البيان
في علوم القرآن

إعداد

الأستاذ الدكتور
سليمان بن صالح القرعاوي
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
قسم الدراسات الإسلامية - كلية الآداب
جامعة الملك فيصل
الإحساء - المملكة العربية السعودية

الأستاذ الدكتور
محمد علي الحسن
الأستاذ بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
دبي - الإمارات العربية المتحدة

البيان في علوم القرآن

إعـــــداد

الأستاذ الدكتور

سليمان بن صالح القرعاوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

قسم الدراسات الإسلامية - كلية الآداب

جامعة الملك فيصل

الإحساء - المملكة العربية السعودية

الأستاذ الدكتور

محمـــد علي الحســـن

الأستاذ بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

دبي - الإمارات العربية المتحدة

ح سليمان بن صالح القرعاوي ، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القرعاوي، سليمان بن صالح بن عبدالرحمن

البيان في علوم القرآن. / سليمان بن صالح بن عبدالرحمن القرعاوي الإحساء، ١٤٤٠هـ.

٢٨٨ص ، ١٧×٢٤

ردمك: ٥-١٦٤٦-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١ـ علوم القرآن ٢- القرآن - بلاغة أ.العنوان

ديوي ٢٢٠ ١٤٤٠/١١٦٣٤

رقم الإيداع: ١٤٤٠/١١٦٣٤

ردمك: ٥-١٦٤٦-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

أوصى المجلس العلمي بجامعة الملك فيصل بجلسته الرابعة المنعقدة بتاريخ ٢٤/ ٨/ ١٤٢٤هـ بالموافقة على استخدام البيان في علوم القرآن للأستاذ الدكتور سليمان بن صالح القرعاوي والأستاذ الدكتور محمد علي الحسن، كتاباً منهجياً لمقرر علوم القرآن الكريم.

الطبعة السادسة

مزيدة ومنقحة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

١٤٤٠هـ

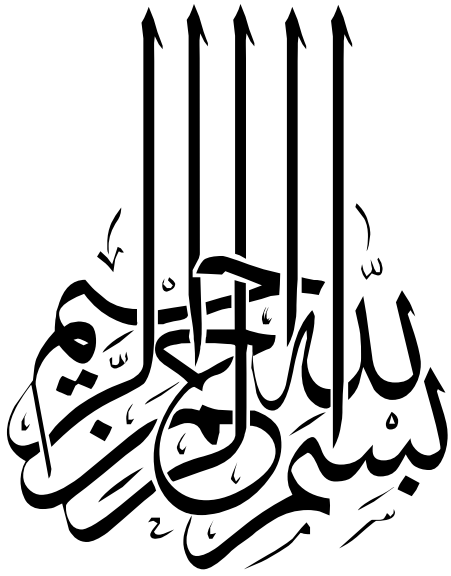
بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، حمل الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فقد سخر رب العالمين لكتابه المبين خاتمة الكتب السماوية سبل حفظه والاعتناء به ونشره وتفسيره ونقله وتعليمه والغوص على أسراره والعمل بأحكامه والتخلق بآدابه مما لم يعهد التاريخ لغيره مثل هذه العناية والرعاية.

وقد نمت في خدمة القرآن الكريم علوم كثيرة واتسعت دوحة علوم القرآن في ظلاله، فلم تدع شاردة ولا واردة لها صلة بخدمته أو ببيان بعض ما يتعلق به إلا أحاطت بها من وحيه وكيفية نزوله وحفظه وحفاظه وجمعه وتدوينه وشكله وإعجامه ورسم كلمه وترتيب آياته وسوره ومعرفة مكيه ومدنيه وأسباب نزوله وما كان منه في قر شتاء أو قيظ صيف في سلم أو حرب وليل أو نهار مما يذهل العقول حتى عدوا حروفه وبينوا قرّاءه وقراءته، ووجوه إعجازه وغير هذا مما يطول عده وبيانه...

وقد كثرت المصنفات في علوم القرآن قديماً وحديثاً وتفاوتت مناهجها وحجومها، وتنوعت أبحاثها وكثرت مسائلها وتعددت الأقوال فيها حتى بدت كالرياض النظرة يجوب فيها نزيلها فيحار بين زهورها وورودها وجمال ألوانها.

وكان من أحدث ما اطلعت عليه من تلك الرياض أصول كتاب البيان في

علوم القرآن، الطبعة الثانية منه للإخوة الأفاضل الأستاذ الدكتور محمد علي الحسن، والدكتور سليمان بن صالح القرعاوي حفظهما الله، فكان بعض باقات منسقة من وورود وأزهار تلك الرياض وثمرات يانعة من أشجارها اجتهد فيه المؤلفان أن يتخذا أحوج ما يحتاج إليه الطالب في دراسته، ليحيط بما لا غنى له عنه لمعرفة دستور خاتمة الرسالات ومنهجها، فيحسن فهمه والانتفاع به، ويوفق إلى صدق تطبيقه والعمل بأحكامه وآدابه.

وقد ضم الكتاب باقات متنوعة من تلك الفياض الوارفة، كل باقة تمثل فصلاً، وكل وردة منها ينتظم رصف وُرَيقاتها بحثاً، فكان اختياراً شاملاً ولم يدعا للمطَّلِع عليه منبتاً دون جذور فلقد أخذا بيده إلى أصوله ومراجعه ليكون البيان سبيله إلى التراث العظيم يقف على مكنونات ويغوص على درره، ويتخيّر من كنوزه، فجمع هذا الكتاب بين أصالة البحث وحداثته، بأمانة العزو، وحسن العرض والمناقشة والترجيح، بعبارة جزلة وأسلوب سهل وتلخيص محكم، وتفصيل مرتب، يساعد القارئ على حسن الفهم والاستيعاب.

جزى الله المؤلفين خير الجزاء

الأستاذ الدكتور محمد عجاج الخطيب
رئيس قسم الدراسات الإسلامية
بجامعة الإمارات العربية المتحدة

تمهيد

نقصد بعلوم القرآن – كفن مدون – المباحث التي تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وإعجازه، وجمعه وترتيبه وناسخه ومنسوخه، وقراءاته ونحو ذلك من المواضيع التي كانت معروفة للصحابة وإن لم تكن مدونة مكتوبة إنما مسلكهم في تحصيلها الفهم السديد أو تذوق بيان القرآن وإعجازه، كل هذا كان سليقة وذكاء في القريحة وبتوجيه وإرشاد من رسولهم الكريم عليه الصلاة السلام.

ثم جاء التابعون وبقيت العلوم تؤخذ بالرواية والتلقين لا بالكتابة والتدوين حتى كانت بداية التدوين لجزء من علوم القرآن فقام أمثال سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج ودونوا لنا الروايات التفسيرية المروية عن الصحابة وكبار التابعين وبذلك كان أول حركة لتدوين علوم التفسير، ثم جاء الفراء المتوفى سنة ٢٠٧هـ فدون كتابه معاني القرآن، ويحي بن سلام ومحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ وقد دون في مقدمة تفسيره أبحاثاً في علوم القرآن كبحث الأحرف السبعة وتوالت بعده كتب التفسير بالمأثور والمعقول والجمع بينهما.

هذا ما يتعلق بعلوم التفسير، أما ما يطلق عليه علوم القرآن فلم يتناول أحد تدوين هذا العلم تدوينا كاملا، بل شرحوا أبعاضه وأجزاءه؛ فعلي بن المديني شيخ الإمام البخاري (المتوفى سنة ٢٣٤هـ) كتب في أسباب نزول القرآن، وأبو عبيد بن سلام (المتوفى سنة ٢٢٤هـ) كتب الناسخ والمنسوخ، ومن كتاب علوم القرآن في في القرن الرابع الهجري أبو بكر السجستاني الذي ألف في غريب القرآن، وفي القرن الخامس علي بن سعيد الحوفي الذي ألف في إعراب القرآن. وفي السادس كتب السهيلي في مبهمات القرآن ثم انهالت التآليف في كل

فن كالقراءات، وأسباب النزول والإعجاز، والأمثال والقرآن وحججه وجدله.

ويرى الشيخ الزرقاني أن أول عهد لظهور هذا الاصطلاح هو القرن الرابع الهجري إذ كتب علي بن إبراهيم بن سعيد الشهير بالحوفي المتوفى سنة ٣٣٠هـ كتابه (البرهان في علوم القرآن) -وهو بالطبع غير كتاب الزركشي- والموجود منه حالياً خمسة عشر جزءاً ويبدو من طريقته أنه كتاب تفسير، وإن تعرض من خلال تفسيره إلى شذرات في علوم القرآن، التي يظن أنه قد تعرض لها بإسهاب في المقدمة من تفسيره مع الأجزاء الخمسة عشر الأولى، ولم يبق بأيدينا إلا النصف الآخر من الكتاب.

وفي القرن السادس كتب ابن الجوزي كتابه – فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن – الذي وصفه السيوطي بأنه لم يقرأ مثله ولا قريباً منه، وهو موجود في دار الكتب المصرية وهو كتاب صغير الحجم فيه مباحث بسيطة كعد كلمات القرآن وحروفه والكتاب قد حققه محمد بن إبراهيم سليم، ونشرته مكتبة السباعي بالرياض، وأرجح أن الذي وصفه لنا السيوطي ما زال مفقوداً.

وفي القرن السابع ألف علم الدين السخاوي المتوفى سنة ٦٤١هـ كتابه جمال القراء وقد حققه زميلنا عبدالكريم الزبيدي ونشر في بيروت.

وجاء القرن الثامن فكان كتاب البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي ت: «٧٩٤هـ» وهو من أوسع كتب علوم القرآن وكتابه يقع في أربعة مجلدات وتلاه في القرن الثامن محمد بن سليمان الكافيجي المتوفى سنة ٨٧٣هـ غير أن كتابه كما قال السيوطي: (لم يشف غليلاً ، ولم يهد إلى المقصود سبيلاً)، وتلاه جلال الدين البلقيني وكتابه مواقع العلوم من مواقع النجوم وقد ضمنه السيوطي المتوفى ٩١١هـ في كتابه: «التحبير في علوم التفسير»، وألف كتابه

القيم (الإتقان في علوم القرآن) الذي يعتبر عمدة في بابه.

بين البرهان والإتقان في علوم القرآن:

هذان كتابان من خير الكتب وأوسعها في علوم القرآن، أما البرهان للزركشي فهو السابق للإتقان، وهذا الكتاب يتناول الموضوعات تناولاً موسعاً شافياً وافياً.

وأفاد منه السيوطي كثيراً وقد استوفى جميع أبوابه وأنواعه ولكنه أوجزها وأضاف إليها أنواعاً أخرى وجعلها ثمانين نوعاً. وكتابه يعوزه التحقيق الذي يقوم به حالياً قسم التفسير بجامعة الأزهر، وقد أشرف الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة رئيس القسم على رسالة في تحقيق جزء منه وهو مزمع على إكماله إن شاء الله.

وأخيراً فإن كتب علوم القرآن في هذا العصر لا تعد ولا تحصى فلا تخلو كلية من كليات الشريعة وأصول الدين من كتاب يؤلفه مدرسو المادة منفردين أو مجتمعين، وأشهر الكتب مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ الزرقاني وهو أوسع هذه الكتب انتشاراً مع ما فيه من إعواز إلى التمحيص في كثير من القضايا، ومن هذه الكتب وأقيمها كتاب البيان في علوم القرآن للشيخ عبدالوهاب غزلان ولكنه قاصر على بعض الأبحاث كجمع القرآن الذي نال عنايته.

ومن أقدم كتب علوم القرآن في بلاد الشام ما ألفه الشيخ د. صبحي الصالح (مباحث في علوم القرآن)، كما ألف الأستاذ الدكتور عدنان زرزور كتابه القيم (علوم القرآن).

الفصل الأول
القرآن الكريم

المبحث الأول: معناه.

المبحث الثاني: أسماؤه.

المبحث الثالث: لغة القرآن.

المبحث الرابع: إعجاز القرآن.

المبحث الخامس: القصة في القرآن.

المبحث السادس: ترجمته.

المبحث الأول

تعريف القرآن لغة وشرعاً

١-المعنى اللغوي:

أ-يرى بعض علماء اللغة أن القرآن مصدر على وزن (فُعلان) كالغفران والرجحان والشكران، فهو مهموز اللام من قرأ يقرأ قراءة وقرآناً، بمعنى تلا يتلو تلاوة ثم نقل في عرف الشرع من هذا المعنى وجعل علماً على مقروء معين وهو من باب تسمية المفعول بالمصدر، وقد ورد بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[1].

وقد روى الشيخان رضي الله عنهما في سبب نزولها ما يفيد هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة فكان يحرك به لسانه وشفتيه مخافة أن ينفلت منه، يريد أن يحفظه فأنزل الله :﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ....﴾الآية».

فكان النبي ﷺ إذا أتاه جبريل عليه السلام أطرق، وفي لفظ: استمع، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله [2] فهذا الأثر عن ابن عباس يدل بجلاء ووضوح على المعنى المذكور.

وقد روعي في تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسميته

---

(١) سورة القيامة، الآيات: ١٦-١٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الاستماع للقراءة، ١/ ٣٣٠، ح ١٤٨.

كتاباً كونه مدوناً بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه [١].

ب-وذهب الشافعي ورجح قوله السيوطي إلى أن القرآن عَلَمٌ غير مشتق، فهو اسم لكتاب الله مثل سائر الكتب السماوية [٢].

٢-المعنى الشرعي:

لقد عرَّف علماء الأُصول والكلام القرآن بتعريفات كثيرة وأحسن هذه التعاريف وأقومها قول القائل إن القرآن: (هو كلام الله المعجز المنزل على محمد ﷺ المنقول تواتراً والمتعبد به تلاوة).

فكلام الله المعجز قد أخرج كلام غير الله فهو ليس بكلام إنس ولا جن ولا ملائكة ولا نبي أو رسول، فلا يدخل فيه الحديث القدسي ولا الحديث النبوي.

وخرج بقيد - المنزل على النبي محمد ﷺ - الكتب المنزلة على الرسل من قبله كصحف إبراهيم، والتوراة المنزلة على موسى، والإنجيل المنزل على عيسى عليهم السلام.

أما القيد -المنقول تواتراً - فقد أخرج به كل ما قيل إنه قرآن، ولم يتواتر مثل القراءات الشاذة غير المتواترة فإنها رويت على أنها من القرآن إلا أن نقلها آحاداً قد جعلها غير معتبرة فلا يعتبر من القرآن قراءة ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾[٣] فقد زاد (متتابعات)، ولا قراءته

---

(١) النبأ العظيم، محمد عبدالله دراز، ص١٢، دار القلم، الكويت.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، ١/ ٥١.

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن، تحت عنوان: القراءات، وكذلك كتب التفسير في سورة المائدة آية ٨٩.

كذلك في قوله تعالى: (وآتيتم إحداهن قنطاراً (من ذهب) فلا تاخذوا منه شيئاً) بزيادة (من ذهب)[١]، أو قراءة ابن عباس: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج)[٢] بزيادة (في مواسم الحج) ولا قراءة من قرأ (والسارق والسارقة فاقطعوا أيمانهما) بدل أيديهما، فما زيد أو بُدِّل في هذه القراءات وأمثالها لا يصح اعتبارها قرآناً حتى ولا حديثاً نبوياً لأنها نسبت إلى قارئها فلا يعدو اعتبارها أكثر من أنها تفسير أو رأي للمثبت لها.

أما القيد الأخير المتعبد به تلاوة – فقد خرج به الحديث القدسي فإنه وإن كان منسوباً إلى الله إلا أنه غير متعبد بتلاوته كما سنبينه بعد.

(١) انظر: تفسير ابن كثير لسورة النساء، ١/ ٤٦٧.

(٢) انظر: الإتقان، تحت بحث القراءات، ١/ ٨٣.

المبحث الثاني

أسماء القرآن

صنف أحد العلماء في أسمائه جزءاً وذكر نيفاً وتسعين اسماً وذكر بعضهم أقل من ذلك، قال القاضي أبو المعالي رحمه الله: اعلم أن الله تعالى سمى القرآن بخمسة وخمسين اسماً، وقد ذكر صاحبا البرهان والإتقان وجوها للتسمية ومعانيها، أما الطبري فقد اكتفى بذكر أشهرها مبيناً معانيها، من هذه الأسماء:

١-سماه الله تعالى كتاباً فقال: ﴿ حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[١].

والكتاب مصدر كتب يكتب كتابة وأصلها الجمع وسميت الكتابة لجمعها الحروف فاشتغل الكتاب لذلك لأنه يجمع أنواعاً من القصص والأحكام والأخبار على أوجه مخصوصة.

٢-وسماه ذكراً فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[٢].

وذلك لما فيه من المواعظ والتحذير وأخبار الأمم الماضية، والذكر أيضاً يأتي بمعنى الشرف والفخر لمن آمن بالقرآن وصدق بآياته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾[٣] أي شرف لك ولقومك.

٣-وسماه فرقاناً فقال: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ

---

(١) سورة الجاثية، الآيتان: ١-٢.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٤٤.

لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾[١].

وذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل، والمؤمن والمنافق، والمسلم والكافر، وقيل لأنه مفروق بعضه عن بعض في النزول[٢].

وقال آخرون: الفرقان هو الفرق بين الشيئين والفصل بينهما وقد يكون ذلك بقضاء واستفتاء وإظهار حجة وغير ذلك من المعاني المفرقة بين المحق والمبطل، والقرآن إنما سمي فرقاناً لفصله بحجته وأدلته وحدوده وفرائضه وسائر معاني حكمه بين المحق والمبطل، وفرقانه بينهما تبصرة المحق وتخذيله المبطل حكماً وقضاء[٣].

٤-وسماه التنزيل وقد وردت بذلك آيات كثيرة: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾[٤].

وغيرها من الآيات، والتنزيل مصدر سمي به الكلام المنزل من عند الله على رسوله، وتسميته بذلك من قبيل تسمية المفعول بالمصدر وهو من الأسماء الشائعة على ألسنة العلماء حيث يقولون ورد في التنزيل ويعنون القرآن.

٥-وأسماء أخرى بل صفات كثيرة منها مبارك كما ورد في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾[٥].

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ١.

(٢) مناهل العرفان، ١/ ٨.

(٣) البيان في علوم القرآن، ص١٢٢.

(٤) سورة الشعراء، آية: ١٩٢-١٩٣..

(٥) سورة ص، الآية: ٢٩.

والحكيم كما في قوله تعالى: ﴿ يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾[١].

والمجيد كما في قوله: ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾[٢].

وغيرها من الأسماء والصفات ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى كتابي البرهان والإتقان في علوم القرآن.

الفرق بين القرآن والحديث القدسي:

قد ينسب الحديث تارة إلى النبي ﷺ فيقال حديث النبي، وقد ينسب إلى القدس فيقال الحديث القدسي [٣] والحديث كما عرفه العلماء هو ما نقل عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، فالأقوال التي تصدر عن النبي صلى الله عليه وسلم تعتبر من الأحاديث النبوية فإذا ما نسبت إلى الله عز وجل سماه العلماء أحاديث قدسية وذلك كقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال:

«يا عبادي: إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا.

يا عبادي: كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم.

يا عبادي: كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم.

يا عبادي: كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم.

يا عبادي: إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً

---

(١) سورة يس، الآيتان: ١-٢.

(٢) سورة ق، الآية: ١.

(٣) أقدم الكتب في هذا الموضوع مشكاة الأنوار فيما يروى عن الله لمحيي الدين بن العربي والجامع الكبير للسيوطي وكذلك الجامع الصغير، كتاب الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية لعبدالرزاق المناوي، وكتاب أدب الأحاديث القدسية لأحمد الشرباصي.

فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادي: إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.

يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (رواه مسلم)[١].

ومثل قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: «أنا عند ظن عبدي بي، فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه» (رواه البخاري ومسلم والترمذي)[٢].

والمتأمل في نصوص الأحاديث القدسية يلاحظ وحدة الأسلوب بينها وبين الأحاديث النبوية، فكلها قد وقع بلفظ النبي صلى الله عليه وسلم سواء أكان الحديث نبوياً أم قدسياً فكلاهما في مرتبة واحدة، وإن كان الحديث القدسي منسوباً إلى الذات العلية [٣] وأن هذه النسبة أيضاً لا تجعله في مرتبة القرآن بل إن بينهما فروقاً نوجزها فيما يلي:

١ -أن القرآن الكريم لفظاً ومعنى من الله عز وجل، أما الحديث القدسي فهو كالحديث النبوي حتى أجاز العلماء روايته بالمعنى بخلاف القرآن لأن روايته بالمعنى تحريف وتبديل له.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ٣/ ١٩٩٤ ح٥٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله)، صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، ٣/ ٢ ح١، سنن الترمذي، كتاب الدعوات، ٥/ ٥٨١ ح٣٦٠٣.

(٣) يطلق بعض العلماء على الأحاديث القدسية الأحاديث الإلهية أو الربانية والكل معزو إلى الله أو إلى الرب عز وجل.

٢-ولأن القرآن بلفظه ومعناه من الله فقد وقع به التحدي والإعجاز، أما الحديث القدسي فلم يقع به التحدي، فهو في ذلك كالحديث النبوي سواء بسواء.

٣-أن القرآن متبعد بتلاوته؛ فتالي القرآن مثاب على تلاوته عموماً، وتلاوته في الصلاة ركن من أركانها فلا تتم الصلاة بدونه: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾[1].

وهذا بخلاف الحديث القدسي فإنه كالحديث النبوي لو قرئ في الصلاة بطلت.

٤-كل آي القرآن الكريم - آية آية - متواترة والأحاديث القدسية كالأحاديث النبوية فيها القطعي الثبوت وأكثرها ظني في ثبوته.

بعد كل هذا لا يخطرن على بالك أو يدور في خلدك أن الحديث القدسي كالقرآن لقول الراوي قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه، أو روى الرسول عن ربه عز وجل، فإن هذه الشبهة مردودة وباطلة، وما قول النبي صلى الله عليه وسلم هذا إلا ضرب من ضروب الأساليب العربية الشائعة الذائعة المستعملة في لسان العرب حين يقولون: كقول الشاعر في قصيدته كذا وكذا ثم لا يذكرون بيت الشعر لفظاً بل يوردون معانيه من غير مراعاة لحرفية الألفاظ ولا الأوزان والقوافي الشعرية، بل إن في القرآن الكريم خير شاهد على ما نقول، فقد قص الله عز وجل قصص الأنبياء وجدالهم مع قومهم ولم يذكر عين ألفاظهم التي استعملوها بل ذكر مضامينها ومعانيها مصوراً لنا مواقفهم بأفصح الألفاظ وأنصح البيان، قال تعالى في سورة نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ

(١) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾[1].

فهل هذه الألفاظ القرآنية هي الألفاظ عينها التي قالها نوح عليه السلام؟ أو هي مضمون ومعنى ما قاله وقالوه؟ وهل حين قص الله عن غيره من الرسل قصصاً هي ألفاظهم عينها؟

اللهم لا؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[2].

(١) سورة نوح، الآيات: ٥-١١.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

المبحث الثالث

لغة القرآن

إن الترابط بين القرآن واللغة ترابط شديد الصلة، بل ارتباط الصفة بالموصوف التي لا تنفك عنه ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[1] فلا غرو إذا قلنا إن التهجم على اللغة هو تهجم على القرآن، والنيل من اللغة هو نيل من القرآن، والمحاولات والمعاول التي تهدم لغتنا إنما هي معاول هدمنا لقرآننا وكياننا كله.

وقد طالعنا طالع سوء من المحْدثين يزعم أن القرآن قد حوى في آياته ألفاظاً أعجمية، فهو مزيج من لغات شتى.

وهذا الزعم والادعاء ليس جديداً، بل هو دعوى قديمة دحضها القرآن الكريم واصفاً إياها بأنها منطق الذين يلحدون في القرآن، فملحدوا اليوم هم ببغاوات لملحدي الأمس؛ لذا كان لزاماً على أهل العلم أن يبينوا حيفهم.

وسنحاول بعون الله تعالى أن نعرض لهذه القضية القديمة الحديثة في آن واحد، وأن نرد عليهم بأدلة قاطعة، وبراهين ساطعة، وأن نبين زيف هذه الأفكار الغاشمة، وأن نتناول فيه جانباً من الجوانب التي تعنينا في علوم القرآن تاركين الجوانب الأخرى لمن هو أهل لها.

هذا الجانب يتناول قضية احتواء القرآن لألفاظ معربة عن أصول أعجمية، وهي قضية استحوذت على علمائنا الأقدمين والمحدثين على حد سواء، وكانت مثار اهتمامهم، فتعددت وتضاربت فيها الآراء والمذاهب ما بين مثبت وناف، والمثبتون قد اختلفوا في حصر هذه الكلمات بين مكثر مقل، فقد

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٩٥.

حصرها الإمام الغزالي في كلمتين أو ثلاث، وحصرها تاج الدين السبكي بسبع وعشرين لفظاً ونظمها شعراً، وزادها الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني ونظمها شعراً أيضاً، كما زادها الإمام السيوطي بضع وستين لفظاً فتمت أكثر من مائة لفظ [١].

وسنرى فيما بعد القول الحق في حقيقة هذا الحصر الادعائي.

وقبل أن نخوض في مذهب العلماء في وقوع المعرب في القرآن، هناك بعض الألفاظ:

سئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾[٢] قال هو بالعربية الأسد، وبالفارسية جاد، وبالقبطية أريا، وبالحبشية قسورة، وحين سئل ابن عباس عن معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾[٣] قال: حوباً بلغة الحبشة، وبالعربية إثماً.

وعن ابن مسعود أنه فسر لفظ ناشئة في قوله تعالى من سورة المزمل: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [٤] قال الناشئة هي بالحبشية، وبالعربية قيام الليل، وروى عن مجاهد أنه فسر القسط في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾[٥] قال إن القسط بالرومية وبالعربية العدل.

وقد أورد السيوطي ما في القرآن عن بعض الألسن، فما ورد بلسان الحبشة

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن، والمتوكلي ومقدمة تفسير ابن جرير ص٣.

(٢) سورة المدثر، الآية: ٥١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢.

(٤) سورة المزمل، الآية: ٦.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

الأرائك بمعنى السرر، وأواه: المؤمن بمعنى الرحيم، وطوبى اسم للجنة.

وبلسان العبرية مرقوم بمعنى مكتوب، وراعنا وهي كلمة سب عند اليهود.

وبلسان الروم فصرهن أي قطعن، وطفقا أي قصدا، والفردوس بمعنى البستان.

وبلسان الفرس: سجيل عن مجاهد: سجيل أولها حجارة وآخرها طين، وسرادق بمعنى الدهليز، والسندس بمعنى دقيق الديباج. وبالنبطية: بأيدي سفرة أي بأيدي القراء.

وبالسريانية: أسفار بمعنى كتب، وكلمة شهر ذكر بعض أهل اللغة أنها سريانية كذلك [١].

وبعد: فهذه كلمات وألفاظ قرآنية قلت أو كثرت جرى فيها خلاف في ثلاثة آراء نسوقها إليك مع المناقشة والترجيح في نهاية المطاف.

الفريق الأول: وعلى رأسهم الإمام الشافعي الذي شدد النكير على القائلين إن في القرآن غير لغة العرب فأخذ يقيم الحجة بأن القرآن كله عربي، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٣] وقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤)

(١) تفسير ابن جرير، ص٦-٧.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٣.

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[١].

يقول الشافعي في رسالته: ومن جماع علم كتاب الله العلم بأن جميع كتاب الله إنما نزل بلسان العرب فالواجب على العالمين ألا يقولوا إلا من حيث علموا، وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تُكلِم فيه منه لكان الإمساك أولى به، وأقرب إلى السلامة له إن شاء الله.

فقال قائل منهم: إن في القرآن عربياً وأعجمياً، والقرآن يدل على أن ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب، ووجد قائل هذا القول من قبل ذلك منه تقليداً له، وتركاً للمسألة عن حجته ومسألة غيره ممن خالفه، وبالتقليد أغفل من أغفل منهم، والله يغفر لنا ولهم، ولعل من قال إن في القرآن غير لسان العرب، وقبل ذلك منه، ذهب إلى أن من القرآن خاصاً يجهل بعضه بعض العرب، ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء، على عامتها حتى يكون موجوداً فيها من يعرفه، والعلم به عند العرب كالعلم بالسنة عند أهل الفقه، لا نعلم رجلاً جمع السنن فلم يذهب منها شيء، فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن، وإذا فرق علم كل واحد منهم، ذهب عليه الشيء منها، ثم كان ما ذهب عليه منها موجوداً عند غيره[٢].

وأما الطبري فقد قال: إن الذي قالوه من ذلك غير خارج من معنى ما قلنا؛ من أجل أنهم لم يقولوا: هذه الأحرف وما أشبهها لم تكن للعرب كلاماً، ولا كان ذلك لها منطقاً قبل نزول القرآن، ولا كانت به العرب عارفة قبل مجيء

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٩٢-١٩٥.

(٢) الرسالة للشافعي، تحقيق: أحمد شاكر، ص٤١-٤٢.

الفرقان، فيكون ذلك قولاً لقولنا خلافاً إنما قال بعضهم: حرف كذا بلسان الحبشة معناه كذا، وحرف كذا بلسان العجم معناه كذا، ولم يستنكر أن يكون من الكلام ما يتفق فيه ألفاظ جميع أجناس الأمم المختلفة وذلك كالدرهم، والدينار، والدواة، والقلم، والقرطاس، وغير ذلك مما يتعب إحصاءه ويمل تعداده، لذا كرهنا إطالة الكتابة بذكره مما اتفقت فيه الفارسية والعربية باللفظ والمعنى، ولعل ذلك كذلك في سائر الألسن التي يجهل منطقها ولا يعرف كلامها فلو أن قائلاً قال فيما ذكرنا من الأشياء التي عددنا وأخبرنا اتفاقه في اللفظ والمعنى بالفارسية والعربية وما أشبه ذلك، مما سكتنا عن ذكره، كله فارسي لا عربي، أو ذلك كله عربي لا فارسي، أو قال: بعضه عربي وبعضه فارسي، أو قال: كان مخرجه أصله عند العرب فوقع إلى العجم فنطقوا به أو قال: كان مخرج أصله من عند الفرس فوقع على العرب فأعربته، كان مستجهلاً؛ لأن العرب ليست بأولى أن تقول كان مخرج أصل ذلك أو استعمل ذلك بلفظ واحد ومعنى واحد موجوداً في الجنسين ثم قال: وهذا المعنى الذي قلناه في ذلك هو معنى قول من قال: في القرآن من كل لسان عندنا بمعنى أن فيه من كل لسان عندنا بمعنى أن فيه من كل لسان، اتفق فيه لفظ العرب ولفظ غيرهم من الأمم التي تنطق به نظير ما وضعنا من القول فيما مضى، وذلك أنه غير جائز أن يتوهم على ذي فطرة صحيحة مقر بكتاب الله ممن قرأ القرآن وعرف حدود الله أن يعتقد أن بعض القرآن فارسي لا عربي، وبعضه حبشي لا عربي، بعد ما أخبر الله تعالى أنه جعله قرآناً عربياً [1].

وقد ذهب فخر الدين الرازي المفسر، وابن فارس العالم اللغوي إلى هذا

(١) جامع البيان، ص١/ ٧-٨.

الرأي وأطال الاستشهاد على صحة هذا القول، ومما قاله: لو كان في القرآن الكريم من غير لغة العرب شيء لتوهم متوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان مثله، لأنه أتى بلغات لا يعرفونها [١].

هذه أدلة الإمام الشافعي ومن معه، ويجدر بالذكر أن هذا الفريق وإن كان يقول إن جميع ألفاظ القرآن عربية إلا أنه لا ينكر موافقة لسان العرب للسان العجم كما يقول الشافعي ولا ينكر إذا كان اللفظ قيل تعلماً أو نطق به موضوعاً، أن يوافق لسان العجم أو بعضها قليلاً من لسان العرب، كما يتفق القليل من ألسنة الأعاجم المتباينة في أكثر كلامها مع تنائي ديارها، واختلاف لسانها، وبعد الأواصر بينها وبين من وافقت بعض لسانه [٢].

ويمثل أبو عبيد على ذلك بالمثال التطبيقي فيقول: وقد يوافق اللفظ اللفظ ويفارقه ومعناهما واحد؛ أحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها، فمن ذلك الإستبرق بالعربية، وهو الغليظ من الديباج، وهو استبره بالفارسية، ثم ختم أبو عبيد كلامه بقوله: من زعم أن في القرآن لساناً سوى العربية فقد أعظم القول [٣].

يقول أبو بكر الباقلاني: القرآن عربي لا عجمة فيه فكل كلمة في القرآن استعملها أهل لغة أخرى فيكون أصلها عربياً إنما غيرها غيرهم تغييراً ما، كما غير العبرانيون فقالوا: للإله لاهوت وللناسك: ناسوت.

أما الفريق الثاني فهو فريق المتساهلين الذين حكموا بأن القرآن شامل

---

(١) انظر: الصاحبي لابن فارس، ص٤٦، والإتقان، ص١٧٨.

(٢) الرسالة للإمام الشافعي، ص٤٤-٤٥.

(٣) جامع البيان، ص٤٣-٤٤.

لجميع لغات العالم في زمانهم، استناداً لقوله تعالى: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فالآية حسب زعمهم شاملة وعامة، لذا قالوا إن القرآن فيه من كل لهجة عربية باللغات الشائعة في زمن نزوله، كالفارسية والرومية والعبرية، لذا فقد تساهلوا وتوسعوا في الألفاظ الوافدة التي استعملها القرآن الكريم ظناً منهم أنها مزية من مزاياه في عدم التفريط بشموليته لسائر اللهجات واللغات، قال الثعلبي: إنه ليس لغة في الدنيا إلا وهي في القرآن.

ويرى أن وقوع هذه الألفاظ في القرآن إنما يدل على حكمة احتوائه لعلوم الأولين والآخرين، ومن ضمن ذلك إحاطته بجميع اللغات والألسن.

مما تقدم يتبين لنا أن هناك خلافاً بين الفريقين، وهو خلاف حقيقي لا شكلي، وعلى الرغم من وضوح حقيقة الخلاف إلا أن أبا عبيد بن سلام قد صبغ الخلاف وفاقاً.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام إن القرآن كله عربي وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم في أحرف كثيرة من غير لسان العرب مثل سجيل ومشكاة، واليم والطور وأباريق وإستبرق وغير ذلك فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيد، ولكنهم ذهبوا إلى مذهب، وذهب هذا إلى غيره، وكلاهما مصيب إن شاء الله تعالى، وذلك أن هذه الحروف بغير لسان العرب في الأصل، فقال أولئك على الأصل ثم لفظت به العرب بألسنتها فعربته فصار بتعريبها إياه فهي في هذه الحال أعجمية الأصل.

وعلق الشيخ الزفزاف فقال: وهذا الرأي الذي ذكره أبو عبيد إنما أراد به أن يجعل الخلاف بين الفريقين السابقين لفظاً، والذي يظهر لي أنه ليس كذلك؛ لأن الإمام الشافعي ومن معه لم يكونوا يجهلون أن العرب إذا تكلمت اللفظ الأعجمي يصبح عربياً ولكنهم كانوا يرون أن القطع بأن هذه الألفاظ أعجمية

الأصل لا سبيل إليه كما يفهم ذلك من القرآن وكما يفهم من كلام القاضي أبي بكر الباقلاني وهم يرون غلق هذا الباب [١].

ثم استدل هذا الفريق أولاً بالآية القرآنية ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾[٢].

ووجه الدلالة في الآية أن كل رسول مرسل إلى قومه، فيتحدث بلسانهم والنبي صلى الله عليه وسلم مرسل إلى كل الأمم فلابد أن يكون في الكتاب المبعوث إليهم من لسان كل قوم إن كان أصله بلغة قومه هو.

ثانياً: ورد في القرآن الكريم أعلام أعجمية وهي كما يقول علماء النحو ممنوعة من الصرف وعلة ذلك العلمية والعجمة، وإذا اتفق على وقوع الأعلام فلا مانع من وقوع الأجناس.

ثالثاً: أما الدليل الأخير فهو القياس كما ذكره ابن جني: أن ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب [٣].

الفريق الثالث: وهو الوسط بين الفريقين فليس بمبالغ ولا متساهل ذلك أنه أثبت وجود كلمات أعجمية، ولكنها لما عربت أصبحت عربية، فوصف القرآن بأنه عربي صحيح، لأن المعرب كالعربي سواء بسواء، وبهذا القول يكون قد وافق فريق المتساهلين، ولكنه يخالف في الإفراط بالكم من هذه الكلمات إلى درجة إثبات أن القرآن فيه كل اللغات واللهجات، أو على حد تعبيرهم في القرآن من كل لسان عربي، أما وجه مخالفة الفريق الثالث للفريق الأول فإن

---

(١) القرآن والحديث للشيخ الرفراف.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

(٣) الخصائص، ١/ ٣٥٧.

العرب في جاهليتهم قد استعملوا كلمات أعجمية، ولكنهم لاكوها بألسنتهم وأخضعوها لتفعيلاتهم، فأصبحت معربة، فامرؤ القيس استعمل لفظ السجنجل في معلقته المشهورة:

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

والسجنجبل بمعنى المرأة وهي لفظة معربة [١] لم يستعملها العرب من قبل، والتعريب في هذه الألفاظ لا يكون بأخذها كما وردت عن الأعاجم، بل لابد من صياغتها على تفعيلة من التفعيلات العربية، كأفعل وفعل وفاعل وافتعل واستفعل وغيرها، فإن وافقتها أخذ بها، وإلا أنقص بدل حرف منها حتى توافق أوزان التفعيلات، فالتعريب هو صوغ الكلمة الأعجمية صياغة جديدة بالوزن والحروف العربية، ولكنها أصبحت عربية حين لاكتها العرب بألسنتها، نعم إننا لا نستطيع أن نحزم أن جميع الألفاظ التي أوردها بعض العلماء هي ألفاظ أعجمية في الأصل، لأن القطع بهذا يحتاج إلى تتبع اللفظ والتنقلات التي اعتبرته حتى نصل إلى منشئه الأصلي هذا أولاً.

ثانياً: إن الفريق الأول الذي استدل على عربية القرآن وأنه ليس فيه كلمة معربة تعنى أن أصلها أعجمي، ثم نقلت إلى العربية قد خالفوا سنة التأثير والتأثر بين اللغات، وحكموا أن اللغة العربية قد أثرت في اللغات الأخرى على الدوام والاستمرار، فقد أثرت ولم تتأثر، وأقرضت ولم تستقرض، ويعللون هذه الظاهرة بأحد أمرين كما يقول الشيخ أحمد شاكر [٢].

أولهما: أن العرب من أقدم الأمم، ولغتها من أقدم اللغات وجوداً، كانت

---

(١) انظر شرح المعلقات السبع للزوزني.

(٢) انظر تقديم أحمد شاكر لكتاب الرسالة.

قبل إبراهيم وإسماعيل وقبل الكلبانية والعبرية والسريانية، وغيرها بله الفارسية، وقد ذهب منها الشيء الكثير بذهاب مدنيتهم الأولى قبل التاريخ، فلعل الألفاظ القرآنية التي يظن أن أصلها ليس من لسان العرب، لا يعرف مصدر اشتقاقها، لعلها من بعض ما فقد أصله وبقى الحرف وحده.

ثانيها: اتساع اللغة العربية:

يقول الإمام الشافعي: ولسان العرب أوسع الألسنة مذهباً، وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي [١].

ولذا وجدنا ابن عباس مع علمه الواسع يخفى عليه معنى (فاطر) بروي أنه قال: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها أي بدأتها[٢].

ونظراً لاتساع اللغة العربية فقد رأوا أنها المصدر لتلك اللغات أو المؤثر والمقرض لتلك اللغات، فقط أعطت ولم تأخذ، وأثرت ولم تتأثر، وأقرضت ولم تقترض الخ ..

المناقشة والرد والنقض لهذه الأدلة:

١ -إن قضية أقدمية اللغة العربية غير مسلم بها، والنظريات في الأقدميات لم تستقر على حال، وهي أدلة ظنية، وهناك كلام طويل في لغة آدم عليه السلام وكلام طويل في توقيفية اللغة ووضعها من البشر، والخلاف في هذه القضية طويل وعريض.

ولكن من المسلم به أن اللغات قد عايشت بعضها بعضاً، وأحتك البشر

---

(١) الرسالة للإمام الشافعي.

(٢) تفسير ابن كثير المطلع سورة غافر.

مع البشر، فجريا على سنة التأثير والتأثر جرى الإقراض والاقتراض، واللغة العربية لم تخرج عن هذه السنة، وليست لغة بأولى من لغة في هذه السنة.

٢- أما القول بأن اللغة العربية من أوسع اللغات، فلا يحتم ذلك أن تكون دوما هي المؤثر الذي لا يتأثر، والمقرض الذي لا يقترض.

مجمل القول أن أقدمية اللغة وسعتها لا يمنع شيئاً مما قلناه وأقصى ما يمكن قوله إنها اللغة الأكثر تأثيراً وإقراضاً وهذا الأمر الصواب.

٣-أما القول بأن ابن عباس قد خفى عليه معنى فاطر، فلا ينهض دليلاً على ما تقولون لأن خفاء المعاني على العلماء لا يدل على سلب أو إيجاب في هذا المقام.

وبعد: فيظهر مما تقدم أن القول الراجح هو رأي الفريق الثالث وهو قول ترجمان القرآن عبد الله بن عباس الذي دعا له النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) ووافقه تلميذه مجاهد وعكرمة فهم أعلم بالتأويل كما يقول أبو عبيد مخالفاً شيخه أبا عبيدة.

فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة [1] وقد روى عنهم أقوال في بيان الأصل الأعجمي لبعض الألفاظ القرآنية، وهذا غير مانع من وضعها بالعربية لأن تعريب العرب لها جعلها عربية، فهي أعجمية في الابتداء عربية في الانتهاء وكما يقول ابن جني فما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم.

قال ابن عطية: فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية لكن استعملتها في العرب وعربتها فيه عربية بهذا الوجه، فقد كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسان بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات، وبرحلتي

(١) المعرب للجواليقي ص٥٣

قريش، كسفر مسافر عن أبي عمرو إلى الشام، وكسفر عمر بن الخطاب، وعمارة بن الوليد، إلى أرض الحبشة وكسفر الأعشى إلى الحيرة، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة، فعلقت العرب بهذا كله ألفاظاً أعجمية غيرت بعضها بالنقص في حروفها، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمية واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها، حتى جرى مجرى العربي الصحيح، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن، ثم تابع ابن عطية حديثه فقال رداً على الطبري رحمه الله في أن اللغتين اتفقتا لفظة لفظة بذلك بعيد، بل أحدهما أصل والأخرى فرع، وليس بأولى من العكس[1].

إن هذا القول لا يقلل من شأن عربية القرآن لا من قريب ولا من بعيد، بل يدل على مرونتها واتساعها لما هو مستحدث وجديد، وكما قيل. ولنا أن نضيف إليها كلمات لم تكن مستعملة من قبل، ولقد أضاف لها العرب في جاهليتهم وإسلامهم، وصبُّوا ذلك في قوالبهم وأصبحت الألفاظ المعربة عربية فصيحة.

يقول السيوطي: وقد رأيت الجويني ذكر لوقوع المعرب في القرآن فائدة أخرى فقال: إن قيل: إن (إستبرق) ليس بعربي، وغير العربي من الألفاظ دون العربي في الفصاحة والبلاغة، فنقول: لو اجتمع فصحاء العالم وأرادوا أن يتركوا هذه اللفظة ويأتوا بلفظة تقوم مقامها في الفصاحة لعجزوا عن ذلك. فمثلاً كلمة (إستبرق) إن أراد الفصيح أن يترك هذا اللفظ ويأتي بآخر لم يمكنه، لأن ما يقوم مقامه إما لفظ واحد أو ألفاظ متعددة، ولا يجد العربي لفظاً واحداً يدل عليه، لأن الثياب من الحرير عرفها العرب من الفرس، ولم يكن لهم بها عهد ولا وضع في اللغة العربية للديباج التخين اسم، وإنما عربوا ما سمعوا من

(١) مقدمة المهذب ص١٥-١٨ بتصرف، وقوع المعرب في القرآن للأستاذ محمد السيد.

العجم، واستغنوا عن الوضع لقلة وجوده عندهم وندرة تلفظهم به أما إن ذكره بلفظين فأكثر فإنه يكون قد أخل بالبلاغة، لأن ذكر لفظين لمعنى يمكن ذكره بلفظ تطويل، فعلم بهذا أن لفظ (إستبرق) يجب على كل فصيح أن يتكلم به في موضعه ولا يجد ما يقوم مقامه، وأي فصاحة أبلغ من ألا يوجد غيره مثله[1].

ويؤكد هذه الحقيقة الرافعي؛ إذ يقول: ولذا قال العلماء في تلك الألفاظ المعربة التي اختلطت بالقرآن إن بلاغتها في نفسها أنه لا يوجد غيرها يغني عنها في مواقعها من نظم الآيات لا إفراداً ولا تركيباً[2]. وهو قول يحسن بعد الذي بيناه.

(١) المرجع السابق ص٢٣١ وقارن بالبرهان للزركشي.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة العربية، ص٧٢-٧٣.

المبحث الرابع

إعجاز القرآن

لكل رسول معجزة تدل على نبوته ورسالته، وأنه مرسل من قبل ربه، إذ بدون ذلك لا تقع حجة الله على الخلق بالإيمان برسله، فمهما سمت أخلاق الرسول وعلت همته، وجادت قريحته، وتوقد ذهنه، وإن اقتعد المكانة الأولى في قومه، فإن كل هذا لا يكفي دليلاً على أنه مرسل من قبل الله، فلا يمكن للعقل أن يصدق ويذعن ويعترف بأن هذا رسول إلا بما يظهره الله على يديه من معجزات فيخرق له السنن الكونية أسبابها ومسبباتها، إذ المعجزة هي الأمر الخارج للعادة، وهي خارجة عن الأسباب المعروفة، هادمة للنتائج المبتناة على المقدمات، فالنار مثلاً حارقة عادة، ولكنها أصبحت برداً وسلاماً على سيدنا إبراهيم، فالذي جعلها حارقة على وفق السنن والقوانين التي نعرفها هو الذي جعلها برداً وسلاماً، فكانت بذلك معجزة لإبراهيم عليه السلام ودليلاً على نبوته.

والمقصود من المعجزة ليس هو إعجاز الناس لذات الإعجاز لمجرد إيقاعهم في العجز عن الإتيان بمثل المعجزة، بل المقصود هو الإذعان والإيمان بصاحبها أنه رسول من قبل خالق هذه السنن وهو الله تعالى.

لذا فإن الله تعالى قد بعث كل رسول إلى قومه، وأظهر على يديه المعجزات التي من شأنها أن تجعل قومه يدركون إدراكاً يرفع عنهم كل لبس وغموض أن هذا رسول من عند الله، وليس بمدع عليه، لذا كانت معجزات كل نبي ورسول نابعة من بيئته، ومتناسبة مع قومه، فتأتيهم على وفق ما برعوا فيه حتى يكون ذلك أدعى لإيمانهم، ولإقامة الحجة لأن المعجزة لا تحقق الغاية منها إلا إذا حصل التحدي بها ولا يتحقق التحدي لأمة من الأمم لا تعرف شيئاً عن

المتحدى به.

وإن المتتبع لآيات القرآن الكريم والمتدبر لآياته التي تتحدث عن المعجزات بشكل عام لتبرز له كل هذه المعاني التي أشرنا إليها.

فهناك معجزة موسى عليه السلام التي كانت في عصاه، وهي تتلاءم مع قوم برعوا في السحر؛ إذ احترفوا السحر حرفة، ويدلنا على معرفة قومه بالسحر: قوله تعالى:﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾[١] ﴿ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾[٢] ﴿ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾[٣] واستجاب له السحرة: ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾[٤].

لقد وردت مشتقات كلمة سحر، فوردت كلمة ساحر (إفراداً) والسحرة (جمعاً) ووردت بصيغة اسم الفاعل (ساحر) واسم الفاعل الموصوف (ساحر عليم) ووردت بصيغة المبالغة على وزن فعال (سحّار) كل هذا يشعرنا بما عليه القوم من علم بالسحر وفنونه، وقوم هذا شأنهم أهل للتحدي الكبير في هذا المجال، وجعلت لهم المكافأة العظمى إن كانوا غالبين، وأية مكافأة أعظم من أن يكونوا من المقربين من الطاغوت العظيم إلههم فرعون لقد استجمعت جميع عناصر التحدي:

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا

---

(١) سورة يونس، الآية: ٧٩.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان: ١١١، ١١٢.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١١٣.

فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾[1].

وهكذا وقع التحدي وانتهى بإيمان السحرة أجمعين بالله رب العالمين.

وقل مثل ذلك في معجزة عيسى عليه السلام، حين برع قومه في الطب، فجعل المعجزة من جنس ما عرفوا وبرعوا، جعل الله على يد عيسى إحياء الموتى قبل دفنهم أو بعده، وجعل مسحة من يديه ترد الأعمى بصيراً وتبرئ الأكمة والأبرص ويكون سليماً، وأي معجزة أعظم من إحياء الموتى، وأعلم الناس إدراكاً لهذه المعجزة هم أولئك الذين يعرفون الطب وعلومه، وهم أقدر الناس على التمييز بين إحياء حقيقي أو إحياء مزعوم، قادرون على معرفة الفارق بين حياة حقيقية بعد موت محقق أو إغفاءة نتيجة سكرات المرض ثم صحوة منه.

وقل مثل ذلك في معجزة النبي صلى الله عليه وسلم، فلقد بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم في قوم كان الكلام بضاعتهم؛ فرسان البلاغة والفصاحة والبيان، الشعر والخطب البليغة زادهم وشرابهم، قصيدة تجذبهم فتكون وكأنها معبود لهم، فتعلق في الكعبة أعز مكان وتكون من المعلقات،

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١١٥-١٢٥.

كانت أسواقهم تبادلاً وتداولاً، يتبادلون بضائعهم ويتداولون أشعارهم. فجاءتهم معجزة من جنس ما عرفوا وألفوا، فتحداهم بالمعروف عندهم والمألوف لديهم.

بعد كل هذا قد يدور في خلَدِنا حيرة وتساؤل، كيف ولم لم تؤمن الشعوب والأمم برسالات الرسل عليهم السلام؟ لما بادروهم بالتكذيب والجحود بعد مشاهدة المعجزات البينات؟

أقول إن الإنكار والجحود والكفر قديم قدم الرسالات السماوية، والكافرون هم الأكثر عدداً والذين خلقوا لجهنم هم الكثير من الناس: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾[1]. ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

فهذا نوح عليه السلام مكث في قومه ألف عام إلا قليلاً وهو يدعوهم ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً ومع ذلك لم يلق إلا إصراراً وعناداً وجحوداً: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾[3].

وهذا موسى عليه السلام قد أتى قومه بالمعجزات العظام، فعصاه يلقيها فتنقلب ثعباناً، ويضرب بهذا الصخر فتنفجر منه العيون، ولقد عاينوا ذلك بأعينهم، ولكن العناد والإصرار هو الدافع لهم للجحود والإنكار، حتى قالوا

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٢) سورة يوسف، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة نوح، الآيات: ٥-٧.

قولتهم الآثمة: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾[١].

وهذا عيسى قد لاقى من قومه صدوداً حتى الحواريين طلبوا منه أن ينزل عليهم مائدة من السماء فقالوا لعيسى عليه السلام: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[٢].

وأجابهم الله بما سألوا: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾[٣].

وهكذا الشأن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد جاءهم بالمعجزة التي تذعن لها العقول، ولكن لم يؤمن بها إلا من هداه الله للإيمان، أما أكثر العرب فقد جحدوا بها واستيقنتها قلوبهم وأبوا إلا الضلال، فراحوا يقولون كما تحدث عنهم القرآن: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴾[٤].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٥٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٥.

(٤) سورة الإسراء، الآيات: ٩٠-٩٤.

الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[١].

وما هذه المواقف وما هذا الكفر والإلحاد إلا نتيجة إدبار واستكبار: ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾[٢].

وجه الإعجاز القرآني:

يحلو لبعض العلماء أن يرى وجوهاً كثيرة في إعجاز القرآن، فبعضهم يرى من وجوه الإعجاز إخبار القرآن بالغيب، أو في نظامه التشريعي، أو الاجتماعي أو علم الجناية، أو علم الاقتصاد، أو الفلك أو الطب وغير ذلك من العلوم التي لا تعد ولا تحصى، ويذهب للتدليل على رأيه بقوله تعالى: ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[٣].

وقد بالغ بعضهم فيما يسمى بالإعجاز العلمي حتى حملوا النصوص القرآنية ما لا تحتمله، وما لا يقبله العقل في تأويل النصوص تأويلاً متعسفاً في كثير من الأحيان.

ونحن لا ننكر أن القرآن الكريم يتسع للكثير مما هُدي إليه البشر في بعض المجالات كالطب وعلم الفلك وغيرها، وقد توسعت فيه مدارك علماء التفسير فأبرزوا لنا هذه المعاني ومدى مطابقتها للواقع ومدى احتمال الآيات القرآنية لمعانيها العلمية، فهذه العلوم تصدق القرآن ولكنها ليست وجوهاً في الإعجاز.

لهذا فإننا نحصر وجه الإعجاز القرآني في الوجه الذي تحدى به القرآن

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧.

(٢) سورة المدثر، الآيات: ٢٣-٢٥.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

سائر العرب، نحصره في وجه واحد ألا وهو لفظ القرآن ونظمه وبيانه، فهو الوجه الذي تحدى الله به العرب قاطبة منذ نزول القرآن وحتى هذا الزمن، وسيبقى هذا الوجه هو الشاهد على القرآن بنظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك، فما هو بتحد بالأخبار بالغيب المكنون ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهر من تنزيله، ولا بعلم ما لا يدركه علم المخاطبين به من العرب، ولا بشيء مما لا يتصل بالنظم والبيان.

إن ما في القرآن من مكنونات الغيب ومن دقائق التشريع ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز، وإن كل ما فيه يعد دليلاً على أنه من عند الله، ولكنه لا يدل على أن نظمه وبيانه مباين لنظم كلام البشر وبيانه وأنه بهذه المباينة كلام رب العالمين لا كلام بشر مثلهم [١].

نعم لقد تحداهم بداية بالإتيان بمثل هذا القرآن: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[٢]. وتحداهم أن يأتوا بعشر سور ولو كانت هذه السور مفتريات حسب زعمهم: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾[٣].

بل تحداهم بسورة واحدة: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا

---

(١) علوم القرآن، ص٢٨٨ والكلام من مقدمة الأستاذ محمود شاكر في مقدمة لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

(٣) سورة هود، الآية: ١٣.

مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1].

هذه الآيات القرآنية المتحدية للبشرية بل للإنس والجن معاً إنما تحدتهم، وما زالت تتحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن نظماً وبياناً، وهذا هو الوجه الذي أعجز العرب سابقاً ولاحقاً، وهم إذ عجزوا عن الإتيان بمثله فقد انتفى أن يكون القرآن من كلامهم أو من كلام محمد لأنه واحد منهم علاوة على أنه ثبت لنا أحاديث شريفة قالها الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل عليه، وبالمقارنة بين الكلامين نجد البون شاسعاً والفرق بعيداً، بعد الفارق بين الخالق والمخلوق.

ويجدر بنا أن ننقل إليك كلمة الجاحظ في تجلية هذه الحقيقة إذ يقول: وبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله، وتصديق رسالته فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة، حمله على حضهم بالسيف، فنصب لهم الحرب ونصبوا له، وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحدياً لهم بها، وتقريعهم لعجزهم عنها، تكشف عن نقصهم ما كان مستوراً، وظهر منه ما كان خفياً.

(فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة، قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: فهاتوها مفتريات!! فلم يرم ذلك

(١) سورة يونس، الآية: ٣٨.

خطيب ولا طمع فيه شاعر ولو تكلفه (أي لو استطاعته) لظهر ذلك، ولو ظهر أوجد من يستنجده، ويحامي عليه، ويكايد فيه، ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقص)[1].

(فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستقامة لعنتهم، وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم، وكثرة من هجاه منهم، وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله، وأفسد لأمره، وأبلغ في تكذيبه وأسرع في تفريق أتباعه، من بذل النفوس والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال وهذا من جليل التدبر الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعلم بطبقات، ولهم القصد العجيب، والرجز الفاخر، والخطب الطوال البليغة، والمقدر الموجزة ولهم الأسجاع، والمزدوج واللفظ المنثور ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن فهم عجز أدناهم، فمحال – أكرمك الله – أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر، وهم أشد الخلق أنفة، وأكثرهم مفاخرة، والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة وكما أنه محال أن يطيقوه ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة، فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل إليه، وهم يبذلون أكثر منه)[2].

الإعجاز العلمي:

لقد وجد المسلمون هذا اللون المعاصر من ألوان التفسير تأكيداً لإعجاز

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، ٤/ ٥.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، ٤/ ٥.

القرآن أو باباً جديداً من أبوابه وتأكيداً على عدم معارضة القرآن والإسلام للعلم، حتى قام بعض المفسرين من أمثال طنطاوي جوهري تفسير آيات الطبيعة في القرآن بحقائق العلم التجريبي ونظرياته وذهب إلى حشو تفسيره الجواهر بإجراء المطابقة بين كشوف الغرب العلمية وآيات القرآن الكريم وتعسف كثيراً في إجراء هذه المطابقة في معظم الأحيان ووصف كتابه (بهذا الكتاب في التفسير وأمثاله سيستيقظ المسلمون سريعاً، سيجيء جيل لم تشهد مثله، أيها المسلمون هذا هو علم التوحيد في الحقل والجبل والزرع والشجر والثمر والشمس والقمر، لا في الكتب المصنفة المشهورة، هي والله مبعدة عن حكمة الله، ومبعدة عن معرفة آياته)[1].

لقد أبعد الشيخ طنطاوي جوهري – رحمه الله – النجعة، ولم يتحقق له ما أمل أو أراد.

لقد أصبح التفسير العلمي والإعجاز العلمي قرينين أو شيئاً واحداً في عرف كثير من الدارسين والباحثين، ورأوا فيه ميداناً ملائماً للدعوة إلى الإسلام، وإقامة الدليل على أن القرآن وحي يوحى، وإنه تنزيل من حكيم حميد، في الوقت الذي ضعفت سليقة العرب اللغوية، وأضحوا غير قادرين على تذوق الإعجاز البياني للقرآن الكريم في الوقت الذي عد فيه هذا الإعجاز الجديد قادراً على مخاطبة العرب وغير العرب، كما يقوى على إدراكه المسلمون وغير المسلمين بل إن غير المسلمين من الأوربيين المكتشفين للسنن، وأصحاب التقدم العلمي، يأتون في مقدمة من يعقل عن القرآن هذا الإعجاز، أو بعبارة أدق: هذا السبق العلمي الباهر الذي جاء به القرآن الكريم قبل مئات السنين.

---

(١) تفسير الجواهر ١/ ٦٦ طبع القاهرة سنة ١٣٥٢هـ.

والواقع – والقول الحق – أن الإعجاز الحقيقي في هذا الجانب أعني جانب الحقائق العلمية عن الكون والإنسان التي أشار إليها القرآن الكريم، يكمن في طريقة القرآن في التعبير عن هذه الحقائق على نحو يفهم خلال العصور بمعنى أن أسلوب القرآن ونظمه وبيانه – الذي جعلناه اتسع للتعبير عن هذه الحقائق العلمية على نحو لا يعجز عن خطاب الإنسان في أي عصر، ولا يحمله كذلك أكثر مما يطيق، هذا هو وجه الإعجاز الحقيقي في هذه المسألة.

وغني عن البيان أنه ليس في مقدور أحد من الثقلين أن يكتب بهذه الطريقة، أو يجيء بمثل ما جاء به القرآن، وهذا هو السبب في أن القرآن الكريم فهم وفسر خلال هذه العصور.

أما انفراد العصر الحديث – عصر الكشوف العلمية – بهذا اللون من ألوان الفهم، أو ألوان الشرح والتفسير، فيعود إلى أن إدراك المدلول (العلمي) أو الحقيقي للإشارات القرآنية المتعلقة بالطبيعة والإنسان، يتوقف على التجربة والعمل الإنساني وعلى تطبيق المنهج القرآني في التعامل مع هذه الإشارات والظواهر أو على الامتثال للأمر القرآني بالنظر والملاحظة والتجربة، وقد قصر المسلمون في الامتثال للمنهج العلمي الذي تضمنه القرآن الكريم ودعا إليه، بوصفه الطريق الصحيح للاكتشاف.

هذا والحديث طويل ودقيق في هذا اللون من ألوان التفسير وبيان الإعجاز ولكن لن ننهي الحديث قبل أن نلقي الضوء – بإيجاز شديد – على شروط التفسير العلمي:

١ –أقول أول هذه الشروط أن لا يفسر القرآن إلا باليقينات العلمية، أو بالحقائق الثابتة التي ارتقت من درجة الفروض والنظريات العلمية في مقام اليقينات أو بالفعل الواقع القائم، بحسب عبارة موريس يوكاي والذي لا

يمكن أن يتطرق إليه التغيير والتبديل [١].

مثال تطبيقي على ما سبق:

قال تعالى: ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾[٣].

إن العلم الحديث يجعلنا ندرك بسهولة كيف يتداخل كل من الليل والنهار في حركة الأرض حول محورها وحول الشمس الثابتة نسبياً، وربط بهذا تعدد المشارق والمغارب [٤].

قال تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾[٥].

فلا خلاف على جواز تفسير هذه الآيات بما يدل على كروية الأرض والتي تمثل حقيقة علمية واقعة .. الخ.

٢-أن حقائق العلم لا تفسر بها المعجزات والأمور الخارقة للعادة التي نصت عليها الآيات الكريمة نظراً لافتراق موضوع هذه الآيات عن آيات الكون والطبيعة وأطوار الخلق، وسائر الآيات التي يمكن الانتفاع بحقائق العلم وثوابته في تفسيرها وشرح معانيها، بل نقول أبعد من ذلك: إن الآيات القرآنية التي تحدثت عن المعجزات والخوارق لا يمكن إقحامها من باب العلم التجريبي أصلاً؛ لأنها إنما أثبتت بمقدار مخالفة السنن والقوانين فكيف يتأتى

---

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، تأليف بويس بوكاي ص ١٨٤.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الروم، الآية: ٥.

(٤) دراسة الكتب المقدسة، ص١٤٥.

(٥) سورة المعارج، الآية: ٤٠.

تفسيرها من خلال هذه السنن والقوانين.

فمثلاً معجزة حمل مريم بعيسى عليه السلام ليس لها تفسير علمي؛ بناء على سنن الحمل والولادة، ولكن هناك من تعسف في تفسير هذه المعجزة وراح يفسرها تفسيراً علمياً حسب زعمه، فقال: إن مريم خنثى، والخنثى له مبيض في جهة، وخصية في الجهة الثانية [١].

ولا يدري القارئ مع هذا التفسير العجيب كيف تكون مريم وابنها آية للعالمين؟ وما معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آَدَمَ﴾[٢] الآيات الدالة على المعجزة والاستثناء في حمله وولادته.

ومثل هذا، أو قريب منه؛ من تحدث عن الكهرباء، وكيف يصعق التيار الكهربائي الأحياء في سياق شرحه لقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾[٣].

ويضيف طنطاوي جوهري حديثاً عن معجزة موسى التي نصت عليها الآية الكريمة: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾[٤].

قال: إن الله اختار الحجر ليضربه موسى بعصاه دون غيره ليلفت العقول إلى بدائع خلقه ومعجزاته في الكون، فالحرارة تحول الماء بخاراً، والبرد يجمده

---

(١) الدكتور محمد توفيق صدقي، دروس في ميدان الكائنات ١/ ١٥، ط١ في مجلة المنار بمصر سنة ١٣٣٣هـ.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٦٠.

وهو بين الصخور فيصدعها.

ثم يمضي في تفسيره للآية ١٢ من سورة سبأ: ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾.

يقول طنطاوي في تفسيرها أن سليمان – عليه السلام – كان له سفر هوائي منظم ومن ذلك يتضح أن اختراع الطائرات في هذا العصر قد سبق إليه العصر السليماني، وهذا من معجزات القرآن [١].

ومن العجيب حقاً هذا القلب للحقائق تحت عنوان التفسير العلمي، أو في سبيل حض المسلمين على الأخذ بأسباب التقدم العلمي.

٣-ومن أصول التفسير المسلمة؛ أنه لا يجوز تفسير القرآن باصطلاح حادث بعد نزوله؛ لأننا لو فعلنا ذلك لعدنا على معاني القرآن بالتحوير والتبديل، أو بالإبطال والإلغاء، فالملائكة المسومون الذين قاتلوا مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر لا صلة لهم بالجنود الذين يهبطون بواسطة الطائرات في الحروب الحالية، والغواصات التي عم استعمالها في جميع البحار لم تكن مستعملة في عصر سليمان عليه السلام، على خلاف [٢] من استنتج ذلك من قوله تعالى: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾[٣] ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ ﴾[٤].

فلا تكفي كلمة غواص أو يغوصون في سياق الحديث عن الشياطين للزعم بأن الغواصات التي عرفتها الحروب الحديثة كانت معروفة في عصر

---

(١) تفسير الجواهر ١/ ٧٠.

(٢) علي فكري، القرآن ينبوع العلوم والفرقان، ١/ ٥١ ط١، المطبعة السلفية.

(٣) سورة ص، الآية: ٣٧.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٨٢.

سليمان وكأن عالم الشياطين – بوصفه عالم الغيب – لا معنى له أو لا وجود له في القرآن وكان عصر سليمان – على عكس ما يدل عليه التاريخ – عرف هذا التقدم العلمي والسبق في ميدان الاختراع.

وأخيراً تحسن الإشارة إلى أن من أبرز الباحثين المعاصرين الذين سارعوا إلى أخذ الآية القرآنية شاهداً على صحة نظرية من النظريات العلمية، أو يحاولون تفسير الآية بنظرية من النظريات: عبدالرزاق نوفل، الذي كتب كثيراً من الأعاجيب، ومصطفى محمود في كتابه السقيم: (القرآن محاولة لفهم عصري) والدكتور جمال الدين الفندي في كتابه (الله والكون) الذي رد فيه كثيراً من الأحاديث ووقع في كثير من المجاز وضروب التأويل، والله تعالى أعلم [1].

(١) هذا البحث الإعجاز العلمي من كتاب علوم القرآن للأستاذ الدكتور عدنان زرزور ونقلناه بتصرف يسير.

وجوه فاسدة في إعجاز القرآن

(القول بالصرفة)

بعد أن بينا وجه الإعجاز الذي تحدى الله به البشر نذكر وجهاً من الوجوه الفاسدة، بل هو من أفسد الأقوال، وهو القول بالصرفة، والمنسوب إلى أبي إسحاق النظام من المعتزلة والإمام المرتضى من الشيعة ثم إلى أبي إسحاق الإسفرائيني من أهل السنة، وخلاصة هذا القول إن وجه الإعجاز في القرآن هو الصرفة أي أن الله صرف قلوب العرب عن معارضة القرآن فزهدهم في معارضته فلم تتعلق إرادتهم ولم تنبعث إليها عزائمهم، فكسلوا وقعدوا رغم توافر البواعث والدواعي.

بل زعموا أن عارضاً مفاجئاً عطل مواهبهم البيانية وعاق قدرتهم البلاغية.

لم يظهر هذا القول إلا في القرن الثالث الهجري وكان النظام هو أول القائلين به، ولعله استمد مقولته من الفلسفة الهندية عند البرهمية في كتابهم الفيدا، إذ يعتقدون أن ما أورد فيه لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بمثله لأن براهما صرفهم عن أن يأتوا بمثله، ولكن خاصتهم يقولون: إن في مقدرتهم أن يأتوا بمثله ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراماً لها.

هذا القول ظاهر العوار لكل ذي عين، لذا وجدنا الأمة بقضها وقضيضها، مفرقها ومذاهبها، مجمعة على خلاف هذا، فالمعتزلة وعلى رأسهم الزمخشري قد أبطل مثل هذا القول، والطبرسي الشيعي قد فنده وأهل السنة كذلك، فهو مذهب باطل وإن قال به آحاد من المعتزلة والشيعة وأهل السنة وقد جوبه بالرفض، ذلك أن تحدي القرآن وإثبات العجز للناس ليس مقتصراً

على عهد النبوة فقط بل هذا التحدي قائم، وهذا العجز من البشر ثابت إلى قيام الساعة فمن قال بالصرفة فليحاول هو، وهل يحس بشيء من الصرف أو السلب في نفسه؟

إن استعظام العرب لفصاحة القرآن وبلاغته وتعجبهم من ذلك لهو دليل على بطلان الصرفة، فلو كانوا مصروفين عن المعارضة بنوع من الصرف لكان تعجبهم للصرف لا للبيان المعجز، ولو كان هناك سلب لعلومهم لكان الفرق بين كلامهم بعد التحدي، وكلامهم قبله، كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن، ولما لم يكن كذلك بطل القول بالصرفة.

المبحث الخامس

القصة في القرآن

لقد تناول القرآن – موضوع القصة – لا كما يتناوله القصاص والأدباء، بل نهج فيه نهجاً مختلفاً ليحقق الأهداف والمرامي التي يريدها، فقصصه كما يقول الشاطبي لا يراد بها سرد تاريخ الأمم والأنبياء والأشخاص، وإنما قصده منها العظة والعبرة وهو الأعم، وبيان الأحكام أحياناً الذي يرى فيه بعض المجتهدين (أن شرع من قبلنا شرع لنا). وقد ذكر القرآن لنا بعض أهدافه ومراميه والحكمة التي يقصدها: ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

لذا جاءت القصة القرآنية متناثرة في سور متعددة، لتحقق الغرض الذي سبقت من أجله في كل سورة وردت فيها إلا ما ورد استثناء في قصة يوسف عليه السلام التي وردت كاملة متكاملة غير منقوصة في سورة سميت باسمه عليه السلام، أما بقية قصص الأنبياء فقد وردت مشتتة ومجزأة في مواضع مختلفة من السور لتحقق العبرة والعظة التي سيقت من أجلها في تلك المواضع، وفي ذلك حكمة ربانية قد نعلمها أو لا نعلمها وقصور علمنا البشري عن إدراك ذلك يجعلنا في حيرة بل ليقول الذين في قلوبهم مرض ماذا أراد الله بهذا مثلاً من هذا السرد القصصي، وهذا التكرار الذي لا داعي له، إذ ما معنى أن يقول عن قصة إبراهيم في سورة الذاريات: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾[2]، ويقول في سورة أخرى: ﴿ أَنْ

(١) سورة هود، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة الذاريات، الآيات: ٢٤-٢٦.

جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾[1] وهلم جرا من الآيات التي تقص طرفاً من القصة وقد يأتي في موضع آخر من سورة أخرى بمثل ما ورد في الأولى.

وقد راح بعض المفسرين في جمع الأشتات في المواضع المتعددة وكون منها جميعاً قصة، وكثيراً ما يدخل إليها تلك الإسرائيليات، ليكون منها قصة ومسلسلاً عجيباً، وقد تجد فيه العجب العجاب الذي تطير منه الألباب، وما علموا أن هذا القصص ليس للتسلية والتاريخ إنما هو للعبر والاتعاظ وللتنبيه على سنن الله في الاجتماع البشري وبيان مآل الأقوام حين تحيد عن منهاج الله وتسلك سبيل الظلم والضلال.

وما علموا أن الذي أضافوه من الغث والسمين لا يضر ولا ينفع وكأنهم يرون نوعاً من الاستدراك على القرآن وإكمالاً للنقص في القصة، وفي هذا وذاك قصور في النظر في محتوى القصص القرآني لأن الله سبحانه وتعالى حين قص علينا أحسن القصص بالصورة التي وردت في القرآن قد استوفى الفائدة المرجوة من القصة على الصورة التي وردت من غير زيادة ولا نقص، ولو كان شيئاً يهمنا ويفيدنا في زيادة أكثر مما هو مذكور لقصه لنا، فمثلاً حين قص علينا قصة أهل الكهف لم يذكر لنا أسماءهم ولا وصف حالهم في نومهم ويقظتهم، ولا اسم الملك الظالم في زمنهم، ولا اسم كلبهم، ولا مكان كهفهم الذي نزلوا فيه، وإنه وإن كانت النفوس تتشوق لمثل ذلك حسب غريزة حب الاستطلاع إلا أن هدف ومراد القصص لم يسق لتحقيق شيء من ذلك، ولو كان ذكر ذلك مقصوداً لذكره الله لنا فإن الله ينزه عن إهمال ذكر شيء ينفعنا علمه، بل هو كما قال المفسرون: (هو شيء لا ينفعنا ذكره ولا يضرنا جهله، ولو كان ينفعنا أو

(١) سورة هود، الآية: ٦٩.

يضرنا لذكره الله لنا)[١].

وإنما كان المفسرون لا يرون كبير بأس في التوسع في ذكر هذه القصص، لأنها لا تتعلق بعقائد أو أحكام، ولكنها من قبيل الاعتبار والعظة، وغرس فضائل الأعمال قال الإمام أحمد بن حنبل: (إذا روينا في الحال والحرام شددنا، وإذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا)[٢]، فبالأحرى القصص.

وممن توسع في إيراد القصص في التفسير أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة سبع وعشرين وأربعمائة صاحب (التفسير الكبير)، وكذلك عبدالله بن عمرو الذي أصاب جملة من كتب أهل الكتاب، وأدمن النظر فيها، ورأى فيها عجائب، ووردت عنه أشياء تتعلق بالقصص وأخبار الفتن والآخرة[٣].

ثم ولع بعض المفسرين المتأخرين بالغرائب والتفصيلات في القصص لا طائل تحتها فأوقهم في كثير من المحاذير، حتى صعب على بعض الناس التفريق بين فهم هؤلاء المفسرين للقرآن وقصصه وبين النص القرآني نفسه، وأوضح ما كان ذلك في القصص الإسرائيلي حول الأنبياء وحياتهم. ولعل في تفسير الخازن خير شاهد على ذلك.

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري ٧/ ١٣٥.

(٢) القول المسدد في الذب عن المسند للإمام أحمد لابن حجر العسقلاني ص١١.

(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ٤١.

المبحث السادس

ترجمة القرآن

يقودنا الحديث عن لغة القرآن وإعجازه إلى حديث عن ترجمة القرآن بلغة غير لغته، إذ مفهوم الترجمة كما يقول ابن منظور في لسان العرب: هي نقل الكلام بغير لغته، فترجمه وترجم عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر، كما أن الترجمان – بالضم والفتح – هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى أخرى.

ويجدر بنا أن ننوه إلى أن الترجمة ضرورة لنا من أجل إبلاغ ديننا الذي لا يتأتى بدونها، وقد مارسها أجدادنا الأوائل بحال من الأحوال، وإن قل اعتمادهم عليها في صدر الإسلام الأول نظراً لإقبال الشعوب غير العربية على تعلم اللغة العربية التي هي عماد دينهم، فجعل القرآن منهم لساناً عربياً أنساهم في كثير من الأحيان لغاتهم الأصلية بل نصب الأعاجم أنفسهم لخدمة العربية، فكان منهم من وضع القواعد والأسس للغة القرآن، وما أفضل ما قاله الإمام ابن حجر: (إن العربي هو من تكلم العربية وإن كان من العجم والأعجمي هو من تكلم غيرا لعربية وإن كان من العرب).

أقول: إن الأهمية للترجمة قد بدأت تأخذ طريقها وأحرى بنا أن نعتني بها، لأن البعثات التنصيرية والاستشراقية أصبحت المصدر الوحيد للمعرفة الإسلامية لأولئك الذين يسلمون من غير العرب أو لأولئك الذين يرغبون في معرفة الإسلام.

بعد هذه اللمحة نتحدث عن حكم الترجمة للقرآن، ولا يفوتنا أن ننبه إلى نوعين من الترجمة:

الأولى: ترجمة حرفية.

والثانية: ترجمة تفسيرية.

ولا خفاء أن الترجمة الحرفية مستحيلة، إذ إبدال حرف أو كلمة منه يخل بإعجازه الذي هو سمته، والتي بدونها لا يكون قرآناً، فكيف بإبدال لغة غير لغته، وعلاوة على ذلك فإن الألفاظ العربية لها معنيان: معنى أصلي وهو المعنى الذي لا اختلاف فيه في كل الألسنة واللغات، ومعنى ثانوي وهو المعنى الذي يختلف باختلاف اللغات ويتفاوت الناس في فهمه ويتفاوت المتكلمون في درجة الإجادة فيه، وهاك مثالاً يوضح المقصود والمراد منه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾[1].

فلو ترجمتها ترجمة حرفية ما بلغت المراد منها، لأن المراد: النهي عن البخل والإسراف، ولست ببالغه من ظاهر الألفاظ أي من الترجمة الحرفية، وإن أردت المعنى والتفسير وترجمته ونقله إلى لغة أخرى لم يستعص عليك ذلك، إذا فهمت وكان فهمك صواباً في تعيين المعنى، ولكن عندها لن يكون كلامك قرآناً ولو كان بلغة القرآن نفسها، فأنى يكون للغة غيرها أن نسميها قرآناً؟

لذا قرر العلماء – قديماً وحديثاً – أن الترجمة الحرفية مستحيلة، ولا يجوز أن تسمى الترجمة قرآناً، ولا أن يسند شيء منها إليه تعالى، فيقال: قال الله: كذا، فإسنادها إليه تعالى كذب وافتراء.

أما ترجمة معاني القرآن أو الترجمة التفسيرية فلا ريب بجوازها، بل قل: وجوبها إذا كان لا يتم التبليغ للقرآن إلا بها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٩.

يقول شيخ زاده في حاشيته على تفسير البيضاوي وذلك بصدد تفسيره للآية: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾[1].

وما أنزل عليه الصلاة والسلام بلسان العرب خاصة، فكيف يخرج به جميع الناس من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان فأجاب عنه بقوله: وما أرسلنا من رسول إلى الأمم التي اختلفت ألسنتهم إلا بلغة قومه الذين هو منهم؛ إذ لا حاجة إلى أن ينزل إلى كل قوم كتاب ملتبس بلغة أولئك القوم؛ لأن ذلك ينوب ويكفي عن التطويل اللازم من ذلك، فإذا أنزل بلسان واحد من الأقوام كان أولى الألسنة لسان قوم الرسول، لأن قومه أقرب الناس إليه، فكان حقهم عليه أقدم، وكان الأولى أن يدعوهم إلى الحق أولاً، وينذرهم عن المخالفة والعصيان، حتى إذا فهموا منه يبينون ما أرسل به إليهم ويترجمون لغيرهم ما فهموه، فتنتشر دعوته بذلك إلى أطراف العالم[2].

حكم قراءة الترجمات القرآنية في الصلاة:

نقول: إن كلمة المجتهدين سواء في عدم جواز الصلاة بالترجمة ، إلا ما روي عن الإمام أبي حنيفة كما سنرى.

أما الشافعية فقالوا: (لا تجوز قراءة القرآن بغير لسان العرب، سواء أمكنته العربية أم عجز عنها).

أما الحنابلة فيقولون: (ولا تجزئه القراءة بغير العربية ولا إبدال لفظ عربي، سواء أحسن القراءة بالعربية أم لم يحسن ويلزمه التعلم). وروي مثل ذلك عن المالكية؛ قال أبو بكر بن العربي – هو من فقهاء المالكية – في تفسير قوله تعالى:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٨.

(٢) ٣/ ١٢٤.

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾[1]. قال علماؤنا: وهذا يبطل قول أبي حنيفة بأن ترجمة القرآن بإبدال اللغة العربية منه بالفارسية جائز؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ نفس أن يكون للعجمية إليه طريق فكيف يصرف إلى ما نفى الله عنه؟

أما ابن حزم فقد حكم بفسق من قرأ غير العربية في الصلاة.

يقول في محلاه: (من قرأ أم القرآن أو شيئاً منها أو شيئاً من القرآن في صلاته مترجماً بغير العربية أو بألفاظ غير الألفاظ التي أنزل الله تعالى، عامداً لذلك، أو قدم كلمة أو أخرها، عامداً لذلك، بطلت صلاته، وهو فاسق؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾[2]، وغير العربي ليس عربياً، وإحالة عربية القرآن تحريف لكلام الله، وقد ذم الله تعالى من فعلوا ذلك فقال: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾[3].

أما الحنفية فقد خالفوا جمهور الفقهاء، فقد روى عن أبي حنيفة أنه أجاز قراءة الترجمة في الصلاة سواء أكان عاجزاً عن العربية أو قادراً عليها. وروي عن الصاحبين الإمام أبي يوسف ومحمد بن الحسن جواز ذلك للعاجز عن العربية فقط.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: (إن أبا حنيفة الذي عاش أكثر من خمسين سنة في العصر الأموي، قد أدرك الفرس وهم يدخلون في دين الله أفواجاً

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢.

(٣) سورة المائدة، الآية: ١٣.

أفواجاً، وهم يلوون ألسنتهم بالعربية، لا يحسنون النطق بها ولا تستطيع ألسنتهم إخراج الحروف العربية من مخارجها، وإن عرفوا العربية في الجملة، واستطاعوا التفاهم بها بشكل عام، ثم رأهم ينطقون بآي القرآن نطقاً غير حسن فرخص فيها واعتبرها ذكراً لا قرآناً.

ويظهر أنه رجع عن هذا القول؛ خوفاً من أن يظن أن الترجمة قرآن يقوم مقام الأصل العربي فأجازها للعاجز فقط واعتبرها ذكراً لا قرآناً كذلك كما اعتبرها صاحباه على الوضع نفسه)[1].

(١) أبو حنيفة للشيخ محمد أبو زهرة أو كشف الأسرار ١/ ٢٥، أما أقوال المذاهب الأخرى فيرجع فيها إلى المجموع في فقه الشافعية وإلى المغني لابن قدامة، وإلى كتاب المحلى لابن حزم.

الفصل الثاني

الوحـــــي

المبحث الأول: تعريف الوحي لغة وشرعاً.

المبحث الثاني: دليل الوحي.

المبحث الثالث: مراتب الوحي.

المبحث الأول

تعريف الوحي لغة وشرعاً

١-المعنى اللغوي:

الوحي مصدر بمعنى الإشارة السريعة الخفية، يقال أوحيت إلى فلان إذا كلمته بسرعة وخفية، وأوحى وأومأ إلى فلان بمعنى أشار، وأوحى الله إليه: ألهمه [١]، وقد ورد في القرآن الكريم استعمال هذا المعاني، من ذلك:

أ-الإلهام الغريزي للحيوان كقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾[٢].

ب-الوسوسة بالشر سواء أصدرت من إنسان إلى إنسان أم من شيطان، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[٣].

وفي السورة نفسها: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[٤].

جـ- وبمعنى أشار وأومأ ورد قوله تعالى في سورة مريم عن زكريا عليه السلام: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٦/ ٩٣، مادة وحي: فالواو والحاء والحرف المعتل: أصل يدل على إلقاء علم إلى غيرك، فالوحي الإشارة والوحي الكتاب والرسالة، وكل ما ألقيته على غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٨.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.

وَعَشِيًّا﴾[١].

فالوحي هنا لا يجوز أن يكون المراد به الكلام؛ لأن الكلام كان ممتنعاً عليه لقوله تعالى في الآية التي قبلها: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[٢].

قال الرازي: والأشبه بالآية هو الإشارة وهو أن يعرف ذلك إما بالإشارة أو برمز مخصوص لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾[٣] والرمز لا يكون كناية للكلام[٤].

٢-المعنى الشرعي:

عرفه العلماء بتعريفات كثيرة؛ منهم من أسهب فقال: (الوحي هو أن يُعلِّم الله من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر).

وعرفه الشيخ محمد عبده: (بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه على اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو غير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت، ويفرق بينه وبين الإلهام، أن الإلهام وجدان تستيقنه النفس فتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور).

ومنهم الموجز في تعريفه بقوله: (كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه).

---

(١) سورة مريم، الآية: ١١.

(٢) سورة مريم، الآية: ١٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤١.

(٤) انظر: التفسير الكبير، ٢١/ ١٩٠.

كل هذه التعريفات لم تخل من مقال ونقد، وأفضل التعريفات وأحسنها ما قاله ابن حجر في فتح الباري (الوحي هو الإعلام بالشرع) أو (إعلام الله لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه)[١] أو ما روي عن الزهري حين سئل عن الوحي فقال: (الوحي ما يوحي الله إلى نبي من الأنبياء فيثبته في قلبه فيتكلم به ويكتبه وهو كلام الله)[٢].

وبعد: فلا يسعنا بعد أن عرفنا الوحي بمعنييه اللغوي والشرعي إلا أن نسأل: هل وحي الله تعالى إلى أم موسى ينتسب إلى الحقيقة اللغوية أو إلى الحقيقة الشرعية؟

ذهب قتادة بن دعامة السدوسي إلى أن الوحي إلى أم موسى كان بالإلهام الفطري، وممن أيد ذلك: الراغب الأصفهاني، وقد نحا نحوه الحافظ ابن كثير والإمام البيضاوي وغيرهم كما سار على هذا النهج من بعد طائفة من الكاتبين في علوم القرآن من أهل هذا العصر، منهم الدكتور صبحي الصالح رحمه الله والدكتور عدنان زرزور والدكتور القصبي زلط حين قال ثلاثتهم إن الوحي إلى أم موسى هو الإلهام الفطري وهو إلى النحل الإلهام الغريزي، ثم قلدهم كثير.

وذهب آخرون – قدامى ومحدثون – منهم الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة إلى أن الوحي هنا بمعناه الشرعي وناقش ورد على القائلين بأن الوحي هنا بمعناه اللغوي هو الإلهام الفطري، فقال: إن هذا الرأي غير صحيح، وإلا فمن أين لفطرة كائن من كان اعتقاد جازم بأن فلاناً سيكون من المرسلين، حتى

---

(١) فتح الباري، ١/ ٩.

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن مبحث الوحي ١/ ١٤.

يتصور ارتكاز مثل هذا الاعتقاد في فطرة أم موسى بالنسبة لولدها عليه السلام حسبما نطقت به الآية الكريمة من سورة القصص: ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[1].

هكذا وعلى هذا النحو المؤكد بإن واسمية الجملة ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ هذه واحدة.

وثانية لا تقل عن أختها دلالة وهي تعبيره تعالى عن هاتين البشارتين بالوعد في قوله الكريم: ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

فمن أين يصلح أن يقال لمجرد الإلهام أو حتى لرؤيا منام رآها غير نبي كأم موسى مهما تكن درجة رائيها من الصلاح والورع، من أين يصلح أن يقال لشيء من هذا أو ذاك (وعد).

فمن ثم استظهر كل من أبي حيان والألوسي[3] أن يكون الوحي إلى أم موسى عليه السلام هو من طريق ملك أرسله الله إليها.

ولعل الذي حمل هؤلاء وأولئك من قدامى ومحدثين القائلين بدعوى الإلهام الفطري في حسباننا ما هو إلا خشيتهم أن يظن بأم موسى النبوة، مع إجماع المسلمين وغيرهم على عدم نبوتها بل مع إجماع المسلمين على أن من شرط النبوة الذكورة انطلاقاً من نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا

(١) سورة القصص، الآية: ٧.

(٢) سورة القصص، الآية: ١٣.

(٣) انظر: تفسير البحر المحيط ٧/ ١٠٥، وروح المعاني للألوسي ص٤٥.

نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[١].

ولكن من أين يقتضى إرسال الملك إلى ضرورة نبوته، أفلا يرون إلى إرسال تعالى جبريل إلى مريم حين تمثل لها بشراً سوياً، وكلمها بما ذكر من قصتها في كتابه الكريم.

لذا قال بعض المفسرين إن الله تعالى أرسل إلى أم موسى ملكاً ولا يستبعد أيضاً أن يكون هذا الوحي إليها كان عن طريق نبي في زمانها لم يقص علينا القرآن قصته، وأي ذلك قد كان مما الله أعلم به، فليس لما قاله أهل دعوى الإلهام، ومثلهم أهل دعوى رؤيا المنام وجه ألبته فتنبه [٢].

(١) سورة النحل، الآية: ٤٣.

(٢) منة المنان في علوم القرآن ٢/ ١٥١-١٥٣.

المبحث الثاني

دليل الوحي

إن الدليل على أن حقيقة الوحي شرعي لا عقلي، لأنه من الأمور الغيبية التي لا يقع عليها الحس، والذين يدللون على الوحي بالأدلة العقلية – ولو بحسن نية – إنما هم واهمون ومخطئون، فإن للعقل دائرته التي لا يتعداها فهو يسلمنا إلى حقيقة وجود الخالق ويرشدنا إليه فإذا ما سلمنا إلى هذه الحقيقة فقد هدانا إلى الإيمان الذي من مقتضياته التسليم بما أخبرنا من أدلة قطعية قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾[3].

ويكفي دلالة على حقيقة الوحي إعجاز القرآن الذي أثبت عقلاً أنه منزل من الله على رسوله، وإن من آياته المعجزة ما دلنا على الوحي ومصدره، والنازل به والمنزل عليه، والكيفية والحالة التي نزل بها أما التدليل على حقيقة الوحي بالأدلة العلمية لتقريبه للعقل فهو مجاف للصواب.

لقد ذهب بعض العلماء يفتشون لنا عن المقررات العلمية لإثبات القضايا الغيبية، فوجدوا الدليل الأول في التنويم المغناطيسي، فقالوا: إن الذي كشف هذا هو الدكتور مسمر العالم الألماني في القرن الثامن عشر، وجاهد هو وأتباعه

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٣.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٣) سورة النجم، الآيات: ٣-٤.

مدى قرن كامل من الزمان في سبيل إثباته وحمل العلماء على الاعتراف بـه، وقـد نجحوا في ذلك، فاعترف العلماء به علمياً بعد أن اختبروا به الآلاف المؤلفة مـن الخلق، واطمأنوا إلى تجاربه – هكذا يقول صـاحب مناهـل العرفـان – وأخـيراً أثبتوا بواسطته ما يأتي:

١ -إن للإنسان عقلاً باطناً أرقى من عقله المعتاد كثيراً [١].

٢ -أن الإنسان النائم في حالة التنويم المغناطيـسي يـرى ويـسمع مـن بعـد شاسع، ويقرأ من وراء حجاب[٢]، ويخبر عما سيحدث مما لا يوجد في عالم الحس أقل علامة لحدوثه [٣]. ثم ذكر ما يزيد عن ثـماني حـالات وصـفها بأنهـا حقـائق علمية لا مجال للشك فيها.

ثم قال: وإننا نضع بين يديك تجربة واحدة من تجارب التنـويم المغناطيـسي تقرب إليك الوحي كل التقريب وهذه التجربة رأيتهـا بعينـي وسـمعتها بـأذني بنادي جمعية الشبان المسلمين وعلى مرأى ومسمع جمهور مثقف كبير [٤].

ثم بعد أن ساق التجربة قال: (وبهذه التجربة – أيـضاً – يثبـت لي أنـا مـن طريق علمي ما قـرب إلى الـوحي علميـاً، ومـا جعلنـي أعللـه تعلـيلاً علميـاً،

---

(١) إن أراد بهذا الكلام إقناع المسلمين بوقوعه، فإن المسلم يكفيه قول الله، وإن أراد أن يدلل لغير المـسلم بهذه الواقعة على إمكانية حدوث الوحي في عالم الواقع فإن هذا الكلام يشككه حين يزعم أن العقل الباطني أرقى من عقله الظاهر وبهذا يستطيعون الزعم أن الوحي ظاهرة لا تدل على صدق مدعيها.

(٢) كأنه يرى في حادثة التنويم المغناطيسي حالتين من حالات الوحي حالة الإيحـاء وحالـة التكلـيم مـن وراء الحجاب.

(٣) كلام يشبه الشطحات الصوفية وتخيلات الكهان.

(٤) مناهل العرفان ١/ ٥٩.

فالوحي عن طريق الملك عبارة عن اتصال الملك بالرسول يؤثر به الأول في الثاني، ويتأثر فيه الثاني بالأول، وذلك باستعداد خاص في كليهما)[١]. هذا الدليل العلمي الأول.

أما الثاني فهو أن العلم الحديث استطاع أن يخترع من العجائب ما نعرفه ونشاهده وننتفع به مما يسمونه التلفون واللاسلكي والميكروفون والراديو، فهل يعقل بعد قيام المخترعات المادية أن يعجز الإله عن أن يوحي إلى عباده ما شاء عن طريق الملك أو غير الملك؟

تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

أما الدليل الثالث: فقد قال فيه: استطاع بعض العلماء أيضاً أن يملأ بعض الاسطوانات من الجماد الجامد بأصوات وأنغام على وجه يجعله يحاكيه بدقة وإتقان كما هو (بالفوتوغراف).

وأخيراً فقد استدل بالدليل الرابع ودخل عالم الحيوان فقال: إننا نشاهد بعض الحيوانات الدنيا تأتي بعجائب بعض الأنظمة والأعمال.

وإذا صح هذا في عالم الحيوان فهو يكون أتم من ذلك ما يكون بطريق الوحي ويضرب لك المثل بالحيوان الذي اسمه (إكسيكلوب)[٢].

وهكذا استرسل كما بدا له صاحب المناهل في ذكر الدليل تلو الدليل، وأراد أن يدلل على صحة رأيه ووجاهته بقوله: إنه قد رأى هذه التجارب بعينه وسمعها بأذنه، فهذا الأمر محسوس ملموس، ثم إنه قد حصل عليه إجماع من

---

(١) المرجع السابق ١/ ٦١-٦٢.

(٢) مناهل العرفان ١/ ٦١-٦٢ هذا القياس أكثر فساداً وأبعد عن القياس السابق، فالسابق من ملك ونبي والإنسان المَنوم والمِنوم أما هنا فقياس مع حيوان الإكسيكلوب.

المثقفين وكأنه يرى في إجماع أمثال هؤلاء المثقفين كما في إجماع المجتهدين، فالمثقفون علمياً كالمجتهدين فقهياً، فما يقرونه حجة متبعة، كما هو الشأن في الإجماع الشرعي، وهو يزيد أدلته إثباتاً، إن حادثة التنويم المغناطيسي لم تجر في نادٍ أو كازينو ولا في أي مكان لا في أمريكا ولا في أوروبا، بل جرت في مكان له أهميته الدينية وهو نادي جمعية الشبان المسلمين في مصر، وسبحان من جعلها مكاناً للتنويم المغناطيسي وكأن المسلمين بحاجة إلى مثل هذا التنويم، إنهم نائمون منذ أمد بعيد.

وهكذا يرى أن القرار قد خرج من المختبر ليثبت نجاح تجربة الوحي، ومما زاد الطين بلة تدليله على ظاهرة الوحي وتقريب وقوعها إلى الأذهان بالتليفون واللاسلكي، وهذا التدليل بعيد عن نهج هذا الدين، فإن محمداً عليه الصلاة والسلام ما أقنع أهل زمنه إلا بما أرشده الله إليه، أما أن يلتمس لكل حادثة غيبية دليلاً حسياً، أو يدلل على وقوعها أو يقربها إلى الذهن بأدلة مادية محسوسة فهذا ما لم يكن، بل حصل العكس فإن أبا بكر الصديق حين حدثه كفار قريش بقصة الإسراء والمعراج، وأرادوا أن يشككوه في هذه القضايا الغيبية لم يفلحوا في ذلك، وأخذوا منه الجواب الشافي النابع من الإيمان الصادق، قال: إن قالها أي محمد صلى الله عليه وسلم فقد صدق.

إن الاستدلال بالقضايا العلمية على الحقائق الغيبية هو نهج المدرسة العقلية في التفسير التي أرسى قواعدها الشيخ محمد عبده الذي فسر قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾[1].

(١) سورة الفيل، الآيات: ٣-٥.

قال: ليقرب هذه المعاني القرآنية للعقول الأوروبية إن الطير الأبابيل: هي الذباب، وفسر (حجارة من سجيل) بميكروب الجدري، كما فسر (الجن) بالميكروب الضار والملائكة بالميكروب النافع، وهذا تفسير غريب وتأويل بعيد، وقد رد عليه صاحب الظلال بكلام مفيد يحسن الرجوع إليه.

وقد أعجبني الرد على ادعاء إثبات الوحي بالتنويم إذ يقول: وهل نقف أمام من صعب عليه تصور الوحي ولم يجد بداً من التصديق بالإيحاء الذي يتم أمامه عن طريق التنويم المغناطيسي الذي ربما كان موضوعه في مرة من المرات؟.

(وهل نحن بحاجة إلى ضرب الأمثلة والشواهد من عالم البشر المادي والمحسوس على شرح حقيقة الوحي، وبيان إمكانية وقوعه، إن الأمر هنا ليجل عن هذا وذاك، والقرآن الذي نتلوه الآن شاهد صدق على مصدره، كما أن الأدلة على صدق هذه الظاهرة أكثر من أن تحصى)[1].

وقول القائل: (وحاولنا ألا نقرّب حقائق الغيب العليا بما يعرفه الناس عن التنويم المغناطيسي وتسجيل الأصوات على الأشرطة وإذاعتها أو نقلها عن طريق الهاتف واللاسلكي، وظننا أن لا جدوى من هذه الأشياء وأنها ليست هي طريق الإيمان)[2].

---

(١) دراسات قرآنية للدكتور عدنان زرزور ص٥٩.

(٢) مباحث في علوم القرآن، ص٤٧-٤٨.

المبحث الثالث
مراتب الوحي إلى النبي ﷺ
ومظهر النبي مع تلك المراتب [١]

قال ابن القيم الجوزية رحمه الله: وكل [٢] الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي مراتب عديدة نذكر من هذه المراتب:

أولها: الرؤيا الصادقة فكان لا يرى الرؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، واستدل السهيلي وغيره على أن الرؤيا من الوحي يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ فدل على أن الوحي يأتيهم مناماً كما يأتيهم يقظة، وبرواية ابن إسحاق أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة النبوة وغطه ثلاثاً وقرأ عليه أول سورة اقرأ، ثم أتاه وفعل معه يقظة، وفي الصحيح عن عبيد بن عمير رؤيا الأنبياء وحي وقرأ ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى﴾ [٣] الآية.

ثانيها: ما كان يلقيه الملك في روعه من غير أن يراه، من ذلك ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم (إن روح القدس نفث في روعي، أن لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته)[٤].

---

(١) هذا بحث جديد كتبه الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة عن الوحي وقد أوجزناه بتصرف.

(٢) وكل الله له أي أعطاه.

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في كتابه القناعة والحاكم، وصححه من طرق، ورواه ابن ماجه والطبراني وروح القدس: جبريل، ونفث في روعي: ألقى في قلبي أو خلدي أو عقلي، ومعنى أجملوا في الطلب أي اطلبوه بطرق الحلال بلا كد ولا حرص ولا تهافت على الحرام.

ثالثها: خطاب الملك حين كان يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له.

فقد ثبت أن جبريل كان يأتيه في صورة دحية بن خليفة الكلبي [١]، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول، زاد أبو عوانة: (وهو أهونه عليه).

وفي الصحيح روى عمر بن الخطاب نزول جبريل بهيئة رجل، فعنه رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام الحديث ... يقول عمر: ثم انطلق، فلبثت ملياً، ثم قال صلى الله عليه وسلم: (يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) رواه مسلم [٢].

رابعها: أن يأتيه جبريل في مثل صلصلة الجرس وكان أشده عليه، وكان صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي سمع عنده دوي كدوي النحل، فسماع الدوي بالنسبة للحاضرين كما شبهه به عمر بن الخطاب، والصلصلة بالنسبة إليه كما شبهه به صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى مقامه، فقد كان شديداً

---

(١) دحية بفتح الدال وكسرها لغتان مشهورتان، وهو بلسان أهل اليمن رئيس الجند ابن خليفة بن فضالة بن فروة الكلبي، شهد المشاهد كلها بعد نذر، وكان دحية جميلاً وسيماً، وكان إذا قدم لتجارة خرجت الظعن لتراه تقريب التهذيب ص٢٠٠.

(٢) مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ١/ ٣٦ ح١.

على نفسه حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به في الأرض [١].

ولقد جاءه الوحي مرة، وكذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها.

الخامسة: أن يرى النبي صلى الله عليه وسلم الملك جبريل في صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه وهذا وقع له مرتين.

إحداهما في الأرض حين سأله أن يريه نفسه فرآه في الأفق الأعلى، قال الحافظ ابن كثير: كانت والنبي بغار حراء أوائل البعثة بعد فترة الوحي [٢].

والثانية: عند سدرة المنتهى في ليلة الإسراء والمعراج.

فهذه أشهر المراتب، وهناك مراتب أخرى مختلف فيها، لا نطيل الحديث بذكرها مكتفين بما ذكرناه لك من المشهور.

---

(١) رواه البيهقي في الدلائل في حديث عائشة بلفظ: وإن كان ليوحى إليه وهو على رأس ناقته فتضر جرانها من ثقل ما يوحى إليه.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٦٥.

الفصل الثالث

نزول القرآن

تمهيد: نزول القرآن منجماً.

المبحث الأول: أول وآخر ما نزل من القرآن.

المبحث الثاني: نزوله في مكة والمدينة – المكي والمدني.

المبحث الثالث: نزوله على سبعة أحرف.

المبحث الرابع: القراءات القرآنية.

المبحث الخامس: أسباب النزول.

تمهيد

نزول القرآن

هذا الباب المهم ينبثق عنه فصول ومباحث هي لب علوم القرآن، كنزول القرآن منجماً، وأول وآخر ما نزل منه، وأسباب النزول، ونزوله بالأحرف والقراءات، ومن قبل نزوله بالوحي ونزوله من السماوات، وغيرها. وأبدأ بالحديث عن معنى النزول والمقصود منه.

معنى نزول القرآن:

نزول القرآن حقيقةً، وماهية هذا النزول لا نعلم منها إلا ما أخبرنا عنها العزيز الحكيم في قرآنه الكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾[1] قال ابن عباس – رضي الله عنهما –: (أنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة من الذكر الذي عند رب العزة حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا، ثم جعل جبريل ينزل على محمد بحراء بجواب كلام العباد وأعمالهم)[2]. والنزول لا يعني أن هناك تغيراً لحق المنزل في القدر أو المنزلة، فالعظيم أو الكريم ينزل المكان ولا تتغير منزلته وقدره؛ لأن التمايز في القدر قد يكون بين اثنين أو شيئين في موضع واحد، وليس بالضرورة أن يكون أحدهما في مكان أعلى من الآخر.

ونقول هذا لننفي أي شبهة يمكن أن تلحق القرآن بعد أن نزله العلي القدير على عبده محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن القرآن علي في الأرض، وعلي في السماء، وعلي أينما كان، ومعنى ذلك أننا لسنا مضطرين لننفي عن القرآن

---

(١) سورة القدر، الآية: ١.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٦/ ٦٢٨.

شبهة تغير قدره بنزوله، فنقول: إن نزوله إعلام، وليس نزولاً حقيقياً، فالنزول حقيقي على الوجه الذي يليق بالقرآن من غير تكييف ولا تمثيل، وقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له)[١].

قال الإمام النووي: (هذا الحديث من أحاديث الصفات، وفيه مذهبان مشهوران للعلماء ومختصرهما أن أحدهما وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين أنه يؤمن بأنها حق على ما يليق بالله تعالى، وإن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد، ولا يتكلم في تأويلها مع اعتقاد تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوق)[٢].

وقال سماحة الشيخ ابن باز في تعليقه على شرح ابن حجر لصحيح البخاري: (والصواب ما قاله السلف الصالح من الإيمان بالنزول وإمرار النصوص كما وردت من إثبات النزول لله سبحانه على الوجه الذي يليق به من غير تكييف ولا تمثيل كسائر صفاته)[٣].

كيفية نزول القرآن وحكمة تنجيمه:

نزول الوحي بالقرآن الكريم على رسوله صلى الله عليه وسلم بعضه في أثر

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ٣/ ٢٩، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ح١٦٨.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ٦/ ٣٦.

(٣) فتح الباري ٣/ ٢٩ حاشية.

بعض، وأرسل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأعوام – كما يقول ابن عباس – وقد تتابع نزول القرآن ثلاثة وعشرين عاماً تقريباً منها ثلاثة عشرة سنة في مكة وعشر سنوات في المدينة، وكان نزوله مفرقاً كما نطق بذلك القرآن الكريم في أكثر من سورة وآية ففي سورة الإسراء: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾[١] وغيرها من الآيات.

١-ولا شك أن في نزول القرآن منجماً؛ تثبيت لقلبه صلى الله عليه وسلم فتبقى الغبطة تشرح صدره، ويزداد سروره، كلما تجدد لقاؤه بالوحي الإلهي، وهذا واضح وجلي من حزنه صلى الله عليه وسلم مرة أو مرات حين تأخر عنه الوحي، فأقسم له مولاه ليطمئنه أنه ما ودعه ربه وما قلاه: ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾[٢].

إن نزول الوحي مرة ومرات على فترات يقوي من عزمه، وفيه مزيد العناية والرعاية والتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم مما يلقاه من هول ومصاعب تتعب نفسه، وهذا واضح وجلي في نزول القصص القرآني، القصة تلو القصة، ليأخذ منها العظة والعبرة، وإن شأنه مع أمته هو شأن الرسل عليهم السلام مع أممهم: ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[٣]، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾[٤].

٢-من حكمة تنجيمه في النزول تسهيل حفظه وامتثال أوامره ﴿ وَقُرْآنًا

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة الضحى، الآيات: ١-٣.

(٣) سورة هود، الآية: ١٢٠.

(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.

فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾[1] على تمهل وتؤدة، فيسهل حفظه لنزوله شيئاً فشيئاً، ووفق طريقة الصحابة الذين كانوا يتعلمون العلم والعمل معاً فهم يحفظون ويتعلمون ويعملون قولاً وعملاً.

٣-لقد تكون المجتمع الإسلامي الأول عبر المراحل الزمنية المتتابعة والمتعاقبة حسب الوقائع والأحداث والظروف التي كان يمر بها بين الحين والحين، ولم يتم هذا طفرة واحدة، وهذه سنن المجتمعات التي تقوم على غير طراز سبق.

فالمجتمع الإسلامي لم يتم تكوينه وتأسيسه بين عشية وضحاها، وإنما بدأ وتطور واستوى على سوقه عبر السنوات والأعوام، فقد بدأ بتأسيس العقيدة وكرائم الأخلاق، ثم شرع بالتشريع والأحكام في العبادات والمعاملات، ثم بيان الأحكام الدولية بعد تأسيس الدولة، كل هذا يتطلب مراحل زمنية متعاقبة تنزل فيها الآيات تبعاً للأحداث والوقائع المستجدة لكل مرحلة من المراحل، وبذلك بنى المجتمع لبنة لبنة، ولنضرب لذلك مثلاً في تحريم الله تعالى للخمر عبر المراحل الزمنية المتعاقبة.

فإن الخمر كانت أعجب شراب لدى العرب وهي عند مدمنيها عادة مكينة صعبة الترك، وقد حاولت أمريكا من عشرات السنوات تحريم الخمر بتشريع واحد حاسم فعجزت، وأصبح تهريبها إلى عشاقها حرفة رائجة لعشرات العصابات، فعاد البرلمان الأمريكي إلى إلغاء الحظر السابق وإباحة الخمر لجمهور السكارى.

والله عز وجل أحكم من أن يفطم عباده عن هذه الآفة بكلمة واحدة،

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

فشرع لهم من يبعدهم عن الشراب المحرم رويداً رويداً، حتى إذا تمهد الجو للصراحة الكاملة، والعقاب الشديد، أعلن الحكم الذي سبق الإيماء إليه، فاعتبرت الخمر رجساً، واعتبر شاربوها مجرمين، يضربون بالعصى والنعال.

والآيات التي نزلت في صدد هذا التحريم هي: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾[1].

وهذا بداية تؤذن بالخطر، فالقاعدة أن ما غلب شره خيره ترك، والشرائع العامة والخاصة تقوم على هذا الأساس. ونفع الميسر أن كسبه كان يرمى للفقراء، ونفع الخمر يجيء من الاتجار فيها، أو من النشوة الموقوتة التي تعقب تناولها.

بيد أن هذه المنافع خفيفة الوزن إذا قورنت بالأضرار والآثام التي تصحب السكر والقمار ثم بعد ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى ﴾[2].

وهذه سياسة عملية واسعة المدى في تحريم الخمر، فإن الصلاة في الإسلام تكتنف الليل والنهار، ومعنى اليقظة التامة عند قربانها أن الذين ما زالوا يستهينون بالشراب سوف يكفون عنه أغلب يومهم.

وعندما تبلغ الإرادة هذا الحد من القدرة والتسامي، فإن القرار الأخير بالحرمان يجيء في إبانه المناسب، وفي أحسن الظروف لتنفيذه، ومن ثم لم يمض كبير وقت حتى نزل النص الأخير: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٣.

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾[١].

وبعد مجيء هذا الإرشاد القاطع شقت بواطي الخمر، وكسرت دنانها ورمي بها في طرق المدينة وعلى هذا النحو حرم الربا عبر مراحل زمنية متعاقبة ما كانت لتتم لو نزل القرآن دفعة واحدة كما تقول عائشة: (إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل، منها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً)[٢].

٤-من الحكم البالغة في نزول القرآن منجماً الدلالة على الإعجاز القرآني وإثبات مصدره والكلام فيها يطول وقد أشرنا إليه سابقاً.

هل للقرآن نزول آخر غير المعروف على النبي صلى الله عليه وسلم؟

لا يرتاب مسلم أن القرآن الكريم قد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم منجماً حسبما يصدق ذلك الواقع كما حدثناك عنه.

ومع ذلك فقد حلا لكثير من العلماء القول بأن للقرآن نزولاً آخر، قال الزركشي: (اختلف العلماء في كيفية نزول القرآن على ثلاثة أقوال:

١-أنه نزل إلى السماء الدنيا ليلة القدر جملةً واحدة، ثم نزل بعد ذلك منجماً في ثلاث وعشرين سنة.

٢-أنه نزل إلى السماء الدنيا في ثلاث عشرين ليلة قدر في ثلاث وعشرين سنة.

---

(١) سورة المائدة، الآيتان: ٩٠-٩١.

(٢) نظرات في القرآن ص٢٣٠-٢٣١، انظر: صحيح البخاري ٦/ ١٠١ باب تأليف القرآن.

٣-أنه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجماً في أوقات مختلفة في سائر الأوقات.

وذهب الزركشي إلى القول الأول، وقال: إنه الأشهر والأصح وإليه ذهب الأكثرون، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾[١] وفي سورة الدخان: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾[٢] وفي سورة القدر: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾[٣] فقد دلت الآيات الثلاث أن القرآن أنزل في ليلة تسمى ليلة القدر من شهر رمضان، وقد سأل سائل ابن عباس فقال له: إن هذه الآيات أوقعت في قلبه الشك، فكيف ينزل القرآن في ليلة القدر، وهذا أنزل في شوال وفي ذي القعدة وفي ذي الحجة وفي كل الشهور.

فقال ابن عباس: (إنه نزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام، يريد أنزل في رمضان في ليلة القدر جملة واحدة، ثم أنزل مفرداً بعضه بعضاً على تؤدة ورفق، وذكر السيوطي عن ابن عباس عدة روايات أخرى تفيد نزول القرآن جملة إلى السماء الدنيا [٤]، فهو حديث ورد عنه من طرق متعددة يقوي بعضها بعضاً. وهو إن كان موقوفاً على ابن عباس إلا أن له حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ لما هو مقرر أن قول الصحابي فيما لا مجال للرأي فيه إذا لم يكن معروفاً بالأخذ من

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة الدخان، الآية: ٣.

(٣) سورة القدر، الآية: ١.

(٤) الإتقان في علوم القرآن ١/ ١١٦-١١٩.

الإسرائيليات حكمه حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التي لا تعرف إلا من المعصوم.

أما حكمة إنزال القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا قبل إنزاله مفرقاً على النبي صلى الله عليه وسلم فهي أن إنزاله مرتين على وجهين مختلفين، مرة جملة واحدة ومرة أخرى مفرقاً فيه من الاحتفال به والعناية بشأنه ما ليس في إنزاله مرة واحدة على وجه واحد، ولا شك أن في المزيد من العناية به تعظيماً لشأنه وشأن من نزل عليه، ثم إن وضعه في مكان يسمى بيت العزة يدل على إعزازه وتكريمه، ومن لوازم هذا تكريم المنزل عليه، وتفخيم شأنه، هذا شيء يمكن أن يقال في حكمة إنزاله جملة ثم إنزاله مفرقاً والله تعالى هو العليم بحقيقة السر في ذلك.

وقد ذهب إلى هذا الرأي كثير من الأقدمين والمحدثين منهم الشيخ الزرقاني [١] والشيخ محمد أبو شهبة ونص عبارته: (ومعلوم أن هذا لا يقوله ابن عباس بمحض الرأي، فهو محمول على سماعه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه من النبي من الصحابة، ومثل هذا له حكم المرفوع، لأن القاعدة عند أئمة الحديث: أن قول الصحابي الذي لم يأخذ عن الإسرائيليات فيما لا مجال للرأي فيه له حكم الرفع، وبذلك ثبتت حجية هذه الآثار)[٢].

هذا الرأي لم يلق استحساناً عند بعض العلماء كالشيخ محمد عبده والأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة رئيس قسم التفسير بالأزهر.

أما الإمام محمد عبده فقال في تفسيره جزء عم: (إن ما جاء من الآثار

---

(١) مناهل العرفان، ١/ ٤٥.

(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص٥١.

الدالة على نزوله جملة واحدة إلى بيت العزة في السماء الدنيا، مما لا يصح معه الاعتماد عليه، لعدم تواتر خبره عن النبي صلى الله عليه وسلم وأنه لا يجوز الأخذ بالظن في عقيدة مثل هؤلاء، وإلا كان اتباعاً للظن).

أما الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة فقال: (أقول أقصى وأعظم ما استمسك به أصحاب هذا القول هو الآثار التي مدار الأمر فيها جميعاً على ابن عباس رضي الله عنهما وأن حق هذه الآثار أن تعطى حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن لا ننازعهم أولاً في ثبوت هذه الآثار عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولا ننازعهم ثانياً في توفر أحد الشرطين بالفعل هنا وهو كون قول الصحابي في أمر ليس للرأي فيه مدخل، فإن تعيين مكان بالذات في السماء، وتسميته ببيت العزة هو حقاً أمر ليس للرأي فيه مدخل، وهو من أمور الغيب التي لا يمكن أن تدرك مثلها بالرأي، ولكنا ننازعهم في توفر ثاني الشرطين اللذين لا بد منهما مجتمعين لإعطاء قول الصحابي حكم المرفوع، وهو كون الصحابي لم يعرف بالأخذ من الإسرائيليات حتى يكون لقوله صلة مما لدى بني إسرائيل. ولكننا لا نسلم أن ابن عباس لم يعرف بالأخذ من الإسرائيليات بالرغم من نهيه الصريح من الأخذ بها.

أخرج البخاري في كتاب الشهادات قال: (يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذي نزل على نبيه صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله تقرءونه لم يشب؟ وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله، وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم بعد ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم رجلاً

قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم)[1] أ.هـ.

فإنه رضي الله عنه وعلى الرغم من نهيه الصريح هذا، قد ثبت عنه الأخذ عن بني إسرائيل، إما من منطلق الأمان على نفسه ما لم يأمنه على غيره، وإما ثقة منه أن ما أخذه عنهم مما لا يخفى حاله على من تدبر أمره، وإما رؤية منه أن ما أخذهم عنهم لا يتنافى مع شيء مما جاء في الكتاب والسنة، سواء أخطأ في هذه الرؤية أم أصاب، ودليلنا على أنه رضي الله عنه قد ثبت عنه الأخذ من الإسرائيليات أمور:

أحدها: ما ذكره غير واحد من الحفاظ عند ترجمتهم لكعب الأحبار الذي هو أحد رؤوس المصادر الإسرائيلية من كون ابن عباس رضي الله عنهما هو أحد الرواة عنه، وانظر في تحقيق ذلك على سبيل المثال لا الحصر، (تهذيب التهذيب) للحافظ ابن حجر ج٨ ص٤٣٨ وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ صفي الدين الخزرجي ص٣٢١.

وثاني هذه الأمور التي يتشكل منها دليلنا على ما نقول في هذه القضية المهمة روايات قد ثبتت عن ابن عباس رضي الله عنهما بالفعل، لا يشك منصف في أنها من الإسرائيليات، ولا نقول إنها من صنف الإسرائيليات الموافقة للكتاب والسنة، ولا حتى من جنس ما لا تعرف له موافقة ولا مخالفة، بل هي من جنس الإسرائيليات المرذولة المنافرة للعقل وصريح النقل، ونكتفي هاهنا بإيراد مثالين نستبيح قارئنا الكريم العذر في تسويد الصفحات بغثاء ما جاء فيها من الرواية عنه رضي الله عنه.

وأول هذه المواضع، ما جاء من روايته في شأن شيطان سليمان الذي أخذ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها.

خاتهم من إحدى أزواجه، وتملك على ملكه حيث كان يقيم سليمان حتى من نسائه عليه السلام حسبما تفتري هذه الرواية، ولعله يجدر بنا الآن أن نكلك في سوق الرواية والتعقيب عليها إلى قلم الحافظ ابن كثير عليه الرحمة إذ يقول فيما يقول بعد أن ساق قصة ذلك عن غير واحد من التابعين في تفسير القول الكريم: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾[1].

وهذه كلها من الإسرائيليات، ومن أنكرهما ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾[2] قال: أراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يدخل الخلاء، فأعطى الجرادة خاتمه، وكانت الجرادة امرأته وكانت أحب نسائه إليه فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هات خاتمي فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين، فلما خرج سليمان عليه السلام من الخلاء، وقال لها: هات خاتمي، قالت: قد أعطيته سليمان، قال أنا سليمان، قالت: كذبت ما أنت بسليمان، فجعل لا يأتي أحداً يقول له أنا سليمان إلا كذبه حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة فلما رأى ذلك سليمان عرف أنه من أمر الله عز وجل، قال وقام الشيطان يحكم بين الناس، فلما أراد الله تبارك وتعالى أن يرد على سليمان سلطانه ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان، فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهن أتنكرن من سليمان شيئاً، قلن: نعم إنه يأتينا ونحن حيض .. الخ [3].

---

(١) سورة ص، الآية: ٣٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٣٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٩.

أما المثال الثاني: فأورده ابن كثير – أيضاً – في تفسيره [١] ما جاء عنه في شأن الملكين والمرأة التي مسخت فكانت كوكب الزهرة، روى عن ابن عباس من قصة طويلة أن هاروت وماروت هبطا إلى الأرض، وجعل لهما شهوات بني آدم، وأمرهما الله أن يعبداه ولا يشركا به شيئاً، نهيهما عن قتل النفس الحرام، وأكل المال الحرام، وعن الزنا والسرقة وشرب الخمر، فلبثا في الأرض زماناً يحكمان بين الناس بالحق، وذلك في زمن إدريس عليه السلام، وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب، وأنهما أتيا عليها، فخضعا لها في القول، وراوداها على نفسها، فأبت إلا أن يكونا على أمرها وعلى دينها فسألاها عن دينها، فأخرجت لهما صنماً فقالت: هذا أعبده فقالا: لا حاجة لنا في عبادة هذا، فذهبا فغبرا ما شاء الله، ثم أتيا عليها فراوداها على نفسها، ففعلت مثل ذلك، فذهبا ثم أتيا عليها، فراوداها على نفسها، فلما رأت أنهما أبيا أن يعبدا الصنم، قالت لهما: اختارا إحدى الخلال الثلاث: إما أن تعبدا هذا الصنم وإما أن تقتلا هذه النفس وإما أن تشربا هذه الخمر. فقالا: كل هذا لا ينبغي، وأهون هذا شرب الخمر، فشربا، فأخذت فيهما فواقعا المرأة فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه، فلما ذهب عنهما السكر، وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة، أرادا أن يصعدا إلى السماء فلم يستطيعا، وحيل بينهما وبين ذلك، وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه، فعجبوا كل العجب، وعرفوا أنه من كان في غيب فهو أقل خشية، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض فنزل في ذلك: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾[٢] فقيل لهما: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب

(١) المرجع السابق ٤/ ١٤٤.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥.

الآخرة، فقالا: أما عذاب الدنيا فإنه ينقطع ويذهب، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له، فاختارا عذاب الدنيا، فجعلا ببابل فهما يعذبان، وقد رواه الحاكم في مستدركه مطولاً، ثم قال صحيح الإسناد لم يخرجاه [1].

إن هذه الروايات قد ثبتت عن ابن عباس كما قال ابن كثير، وهي تدل على أخذه بالإسرائيليات كما بينا؛ لذا فترد هذه الرواية نزول القرآن إلى السماء الدنيا دفعة واحدة ولا تعطى حكم المرفوع إلى النبي ﷺ؛ لأن من شروطه أن يكون مما لا مجال للرأي فيها وأن يكون الصحابي ممن لم يأخذ بالإسرائيليات فيما له صلة بالرواية فقط، فإن لم يكن للإسرائيليات صلة فتقبل الرواية.

وبهذا يكون القول الراجح في كيفية نزول القرآن: أن القرآن الكريم قد ابتدأ إنزاله في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك منجماً على مدار السنوات على رسول الله ﷺ والله أعلم.

(١) المستدرك على الصحيحين في الحديث للحاكم النيسابوري ٢/ ٤٤٢.

المبحث الأول

أول وآخر ما نزل من القرآن

ليس من غرضنا في هذا البحث بيان أول ما نزل وآخر ما نزل في موضوعات معينة؛ فهذا يحتاج إلى جهد عظيم، بل إلى تكاتف الجهود في إخراج مثل هذه الدراسة الجديرة بكل عناية ورعاية، وقد حاول الشيخ محمد عزة دروزه في كتابه التفسير الحديث الذي جعل محوره العناية بالتتبع التاريخي لنزول القرآن ولكنه إذ قارب من ترتيب السور نزولاً إلا أن متابعة الآيات حسب نزولها التاريخي ما زال بينه وبين ذلك بون شاسع.

إن مدار البحث في معرفة أول ما نزل وآخر ما نزل إنما هو البحث عن الرواة والنقل، ولا مجال للعقل فيه إلا بمقدار الجمع أو الترجيح عند اختلاف النقل.

أولاً: أول ما نزل من القرآن إطلاقاً:

١-أصح الأقوال وأقواها أن أول ما نزل هو الآيات الخمس في صدر سورة العلق كما روى ذلك الإمام البخاري ومسلم عن عائشة – رضي الله عنها – قالت[١]: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنث [٢] فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، مسلم في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١/ ١٣٩.

(٢) يتحنث: يتعبد.

رضي الله عنها فتزوده لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه، فقال: اقرأ، قال رسول الله ﷺ: فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني [1] حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ من الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[2].

بهذه الآيات الخمس استهل نزول القرآن ليعلمنا أن العلم والتعليم والكتابة بالقلم هي الوسيلة التي لا وسيلة غيرها لتبليغ هذه الرسالة في مقتبل عمرها، وقد أصبح معلوماً بل بدهياً أن هذه الآيات الخمس هي أول ما نزل من القرآن.

القول الثاني: روي عن الصحابي الجليل جابر بن عبدالله: إن أول ما نزل هو سورة المدثر، وأسوق إليك هذه الروايات بطولها دون اختصار لسندها، ومتنها لحكمة مقصودة قصدها الإمام البخاري من تعداده للطرق واختلاف الرواة:

فقد رواه أولاً عن يحيى بن موسى البلخي، قال: حدثنا وكيع، عن علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبدالرحمن عن أول ما نزل من القرآن؟ قال: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾[3]. قلت: يقولون: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن ذلك،

---

(١) ضمني وعصرني.

(٢) سورة العلق، الآيات: ١-٥.

(٣) سورة المدثر، الآيات: ١-٥.

وقلت له مثل الذي قلت، فقال جابر: قال رسول الله ﷺ: (جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت فنوديت، فنظرت عني يميني، فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي، فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة فقلت: دثروني، وصبوا علي ماء بارداً فدثروني، وصبوا علي ماءً بارداً، فنزلت: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾[١].

ورواه ثانياً عن محمد بن بشار قال: حدثنا عبدالرحمن بن مهدي وغيره – أي أبو داود والطيالسي – قالا: حدثنا حرب بن شداد، عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ الحديث نفسه[٢].

ورواه ثالثاً فقال: باب قوله :﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا عبدالصمد، حدثنا حرب، حدثنا يحيى، قال: سألت أبا سلمة: أي القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾، فقلت: أنبئت أنه: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبدالله أي القرآن أنزل أول؟ فقال: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ فقلت: نبئت أنه: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ قال: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: (جاورت في حراء، فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلف، وعن يميني، وعن شمالي، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض، فأتيت خديجة، فقلت: دثروني، وصبوا علي ماءً بارداً) وأنزل علي: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾[٣].

---

(١) فتح الباري ٨/ ٦٧٦.

(٢) المرجع السابق.

(٣) فتح الباري ٨/ ٦٧٦.

ورواه رابعاً: فقال: باب ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾، حدثنا يحيى بن كثير، حدثنا الليث بن عقيل، عن ابن شهاب، وحدثني عبدالله بن محمد، حدثنا عبدالرزاق، أخبرنا معمر عن الزهري، فأخبرني أبو سلمة بن عبدالرحمن عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: (فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجثوت منه رعباً، فقلت: زملوني، فدثروني)، فأنزل الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ إلى ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾[1].

ورواه خامساً: فقال: باب ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾، وحدثنا عبدالله بن يوسف، حدثنا الليث عن عقيل، قال ابن شهاب: سمعت أبا سلمة قال: أخبرني جابر بن عبدالله أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي: (فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري قبل السماء، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض، فجثوت منه حتى هويت إلى الأرض، فجئت أهلي، فقلت: زملوني، زملوني) فأنزل الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ إلى ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾. قال أبو سلمة: ثم حمي الوحي وتتابع[2].

هذا الصنيع الذي نهجه الإمام البخاري في سوقه روايات القصة عجيب، ولعله من أسرار جامعه التي لم يسبر غورها، فالقصة واحدة تدور رواياتها كلها حول موضوع واحد، والسائل في الروايات الثلاث الأولى واحد، وهو يحيى بن

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

أبي كثير، والمسؤول فيها واحد، هو أبو سلمة بن عبدالرحمن بن عوف، والمجيب فيها واحد، هو الصحابي الجليل جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما.

وفي الرواية الرابعة والخامسة لم يذكر يحيى بن أبي كثير، وإنما ذكر فيهما ابن شهاب الزهري مخبراً عن أبي سلمة بما حدثه به جابر عن رسول الله ﷺ.

وقد استعصى على الباحثين تأويل هذه الأحاديث المروية عن جابر، فمنهم من أبقاها على التعارض وجزم بخطأ جابر كما ذهب إلى ذلك الإمام النووي الذي جازف فحكم على هذه الأحاديث الثابتة في صحيحي البخاري ومسلم بأنها باطلة، ومقام النووي في فضله وعلمه بالسنة النبوية ودرجات الحديث صحة وضعفاً وورعه وفقهه كان يقتضيه التريث والتعمق في تطلب مخارج لهذا الحديث، وعدم بت الحكم في بطلان هذه الأحاديث، على أن للحديث مخارج تحميه عن مثل هذه الأحكام المتسرعة، ومن العلماء من حاول الجمع بين حديث عائشة وحديث جابر.

ومن المحاولات الضعيفة في الجمع بينهما ما قاله الحافظ جلال الدين السيوطي في الإتقان من أن السؤال كان عن نزول سورة كاملة، فبين جابر أن سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة اقرأ[1].

وهذا القول يبطله ما ثبت في الصحيحين أن سورة المدثر لم تنزل بتمامها وكمالها بل نزلت متفرقة حتى قوله تعالى: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾.

أما الكرماني فرد على حديث جابر قائلاً: إن جابراً استخرج ذلك باجتهاده وليس من روايته، فيقدم عليه ما روته عائشة، وهذه أقوال لا تستند إلى دليل،

---

(١) ١/ ٦٩.

ونحن إذا تأملنا الأحاديث نجد أن الأمر لا يدعو إلى الحيرة والدهشة، فالأحاديث قد قررت الحقائق التالية كما يقول أستاذنا محمد الصادق عرجون:

أولاً: أن الروايات الثلاث الأولى كانت عن أول ما نزل من القرآن والجواب فيها كان من أبي سلمة بأن أول ما نزل: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾، وجاءت معارضة يحيى بن كثير لأبي سلمة، يذكره له ما هو متداول عند أهل العلم بأن أول ما نزل من القرآن ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾، وبيان أبي سلمة بأن جابراً قد قال له مثلما قال، وساق له حديث تجلي جبريل وهو يناديه.

ثانياً: أن الرواية الرابعة والخامسة تفيد أن الزهري أخبره أبو سلمة وسمع منه ما حدثه به جابر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي، وقد جاء فيه: (فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس بين السماء والأرض).

ثالثاً: أن جابراً رضي الله عنه لم يتعرض في حديثه إلى نفي أو إثبات أن قرآناً نزل على النبي ﷺ قبل فترة الوحي، ولم يتعرض في حديثه لأبي سلمة لقصة غار حراء قبل فترة الوحي وما جرى فيها من أحداث كانت معروفة لأهل العلم من جمهور الصحابة وما نزل فيها من أوائل سورة العلق.

ولعل جابراً لم يكن قد وصل إلى علمه شيء من قصة حراء، وما نظن أن أحداً يزعم أن كل صحابي يجب عليه أن يحيط علماً بجميع جزئيات وقائع الوحي. أو لعل جابراً رضي الله عنه كان على علم بقضية الوحي في غار حراء، ولكنه لم يجعلها بمعرض حديثه لأبي سلمة في جواب سؤاله، لأن هذا الحديث كان في مناسبة خاصة، هي عودة الوحي بعد فترة ولا شك أن أول ما نزل حينئذ هو: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾، كما يدل عليه صراحة رواية الزهري بسنديها عن فترة الوحي.

وقد حسم ابن حجر العسقلاني هذه المسألة حسماً حكيماً وموفقاً فقال: دل قوله عن (فترة الوحي) وقوله: (الملك الذي جاءني بحراء) على تأخر نزول سورة المدثر عن اقرأ، ولما خلت رواية يحيى بن أبي كثير عن هاتين الجملتين أشكل الأمر، فجزم من جزم بأن: ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾، أول ما نزل، ورواية الزهري هذه صحيحة ترفع الإشكال [1].

ثم قال في تفسيره سورة اقرأ، ورواية الزهري عن أبي سلمة عن جابر تدل على أن المراد بالأولية في قوله أول ما نزل سورة المدثر أولية مخصوصة بما بعد فترة الوحي.

٣-وأما ثالث الأقوال في المسألة فيقول السيوطي رحمه الله في الإتقان: القول الثالث: سورة الفاتحة، قال في الكشاف: ذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن أول سورة نزلت (اقرأ)، وأكثر المفسرين إلى أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب.

قال ابن حجر: والذي ذهب إليه أكثر الأئمة هو الأول.

وأما الذي نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلا أقل القليل بالنسبة إلى من قال بالأول.

حجة هذا القول ما أخرجه البيهقي في الدلائل والواحدي من طريق يونس بن كبير، عن يونس بن عمرو، عن أبيه، عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل، أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: (إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، والله خشيت أن يكون هذا أمراً)، فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا فقصا

(١) فتح الباري ١/ ٢٨.

عليه، فقال: (إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد يا محمد، فأنطلق هارباً في الأفق)، فقال: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد قل: (بسم الله الرحمن الرحيم) (الحمد لله رب العالمين) حتى بلغ (ولا الضالين) ... الحديث، هذا مرسل رجاله ثقات.

قال البيهقي: إن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزلت عليه اقرأ والمدثر [١].

أما الحافظ ابن كثير رحمه الله فقد ساق الحديث في كتابه (البداية والنهاية) من رواية البيهقي وأبي نعيم في دلائلهما عن عمرو بن شرحبيل ثم قال: (هذا لفظ البيهقي وهو مرسل وفيه غرابة وهو كون الفاتحة أول ما نزل)[٢].

وأقول كون الحديث مرسلاً أمارة كافية على ضعفه وعدم صلاحيته للدلالة في أمثال هذه المطالب، لو استقل بنفسه ولم يعارضه غيره، فكيف وقد عارضه غيره من حديث الشيخين السابق لك في أوائل هذا المبحث عن عائشة رضي الله عنها والقاضي بأولية نجم العلق.

وبعد: فإنه لا يخفى عليك سقوط محاولة الجمع بينه وبين حديث الصحيحين والتي حاولها البيهقي؛ إذ قال في النقل الآنف لك عنه من نص السيوطي: (إن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعد ما نزلت عليه اقرأ والمدثر).

أمام أولاً فلأنه إنما تتحمل مؤونة الجمع إذا صح الخبر المعارض لما هو مثله في الصحة أو أصح منه والخبر هذا ضعيف لا وزن له.

---

(١) ج١، ص٩٤ وما بعدها.

(٢) ج٣، ص٩ وما بعدها.

وأما ثانياً: فلأن في متن هذا الخبر شاهد ضعفه بل سقوطه بالكلية، أليس فيه الزعم بخشيته ﷺ بعد سماعه النداء إذا خلا وحده بل انطلاقه عند سماعه النداء هارباً وانه لم يثبت له إلا بعد أن نصح له ورقة بالثبات، فكيف يصلح هذا بأي وجه من الوجوه في عقل عاقل بعد ما قد عرف الوحي وتحقق من صدقه وحقيقته، وتمت له النبوة والرسالة جميعاً بنزول سورة العلق والمدثر معاً على ما زعم هذا الجمع، فمن ثم كان الصواب كل الصواب في طرح مثل هذا الخبر بالكلية وراء الظهر على مثل ما فعل الإمام النووي عليه الرحمة من إهماله وعدم المبالاة به أصلاً، فقال وصدق فيما قال في شرحه لمسلم: (وأما قول من قال من المفسرين أول ما نزل الفاتحة فبطلانه أظهر من أن يذكر)[1].

وعلى الرغم من وضوح الأمر بحيث لا يشتبه على ذي لب أن ما بني عليه هذا القول من الشبهة هو بحيث لا يستقيم لا سنداً ولا متناً.

نقول على الرغم من وضوح الأمر بالنسبة لهذا القول، فإن البعض من أهل هذا العصر وأعني بهذا البعض الأستاذ الإمام محمد عبده، وقد اقتدى بالزمخشري، ولنورد لك الآن قوله بتمامه على ما نقله عنه تلميذه الأخص صاحب المنار والذي لم ير – على خلاف عادته – موافقة قول أستاذه للصواب أو قل قد رأى بالفعل مجانبة أستاذه للصواب، فقال رحمه الله في أول تفسير الفاتحة: وأما الأستاذ الإمام فقد رجح أن الفاتحة أول ما نزل على الإطلاق، ولم يستثن قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك) ونزع في الاستدلال منزعاً غريباً في حكمة القرآن وفقه الدين فقال ما مثاله:

ومن آية ذلك: أن السنة الإلهية في هذا الكون – سواء أكان كون إيجاد أو

---

(١) ج٢، ص٢٠٨.

كون تشريع – أن يظهر سبحانه الشيء مجملاً ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجياً، وما مثل الهدايات الإلهية إلا مثل البذرة والشجرة العظيمة، فهي في بدايتها مادة حياة تحتوي على جميع أصولها، ثم تنمو بالتدرج حتى تبسق فروعها بعد أن تعظم دوحتها ثم تجود عليك بثمرها. والفاتحة مشتملة على مجمل ما في القرآن، وكل ما فيه تفصيل للأصول التي وضعت فيها.

ولست أعني بهذا ما يعبرون عنه بالإشارة ودلالة الحروف، كقولهم إن أسرار القرآن في الفاتحة، وأسرار الفاتحة في البسملة، وأسرار البسملة في الباء، وأسرار الباء في نقطتها، فإن هذا لم يثبت عن النبي ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان ولا هو معقول في نفسه، وإنما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب بهم الغلو إلى سلب القرآن خاصته وهي البيان.

وبعد هذا الكلام المبهم، أخذ الإمام يفسر سورة الفاتحة إلى أن قال: إن سورة الفاتحة مشتملة على ما اشتمل عليه القرآن، فلابد أن تكون هي الأولى في النزول بمكة [1].

القول الرابع: ما ذكره السيوطي في الإتقان قال: وأخرج الواحدي بإسناده عن عكرمة والحسن قالا: أول ما نزل من القرآن (بسم الله الرحمن الرحيم) وأول سورة نزلت ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾، وقد رد أستاذنا الشيخ عبدالوهاب غزلان على كلام السيوطي قائلاً: (ويندفع كلام السيوطي بأن الأحاديث الصحيحة التي روي فيها نزول صدر سورة العلق لم يرد فيها ذكر (بسم الله الرحمن الرحيم) فهو قول ضعيف، ولضعفه أعرض عنه الزركشي، فلم يذكره، ولم يشر إليه، وكذلك لم يذكره النووي في شرح مسلم ولم يشر إليه

(١) انظر: تفسير المنار لسورة الفاتحة، ج١، ص١٣، ٣٥-٣٨.

عندما ذكر الأقوال في أول ما نزل من القرآن)[١].

ثانياً: أخر ما نزل من القرآن إطلاقاً:

لم يرد في آخر ما نزل حديث مرفوع عن النبي ﷺ بل وردت آثار صحيحة عن الصحابة – رضوان الله عليهم – ونرى أن الجدير من هذه الأقوال ثلاثة وما عدا ذلك فبعيد عن الاعتبار.

أما القول الأول: فرواه البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: (آخر آية نزلت الربا) والمراد بها قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾[٢].

روى الإمام أحمد والنسائي والبيهقي عن عمر (أن من آخر ما نزل آية الربا) وهذا زيادة في الرواية أن النبي ﷺ مات ولم يبين لنا آية الربا إشارة إلى قرب وفاته.

أما القول الثاني: فما أخرجه النسائي وابن مردويه وابن جرير من طرق مختلفة عن ابن عباس: آخر آية نزلت: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[٣].

أما القول الثالث: فما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن المسيب أنه بلغه أن آخر آية نزلت آية الدين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾[٤].

---

(١) البيان ص٨١ وما بعدها، منة المنان في علوم القرآن ج١، ص٣٥٣-٣٥٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

موقف العلماء من هذه الأقوال:

يقول أستاذنا الشيخ عبدالوهاب غزلان: هذه الروايات الواردة في آخر ما نزل وهي متعارضة، ومن المعلوم أنه إذا تعارضت الروايات في أمر من الأمور فإما أن يرجح بعضها على بعض، وإما أن يجمع بينهما إن أمكن الجمع بلا تكلف [١].

أما الترجيح فيقتضي القول بترجيح ما رواه البخاري في صحيحه أن آية الربا هي آخر ما نزل. ومن العلماء من قال بترجيح نزول آية: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ﴾[٢].

وقد ذهب إلى ذلك الزرقاني وقال: إن النفس تستريح لمثل هذا القول لما تحمله هذه الآية في طياتها من الإشارة إلى ختام الوحي والدين، بسبب ما تحث عليه من الاستعداد ليوم المعاد، وما تنوه به من الرجوع إلى الله، واستيفاء الجزاء العادل من غير غبن ولا ظلم، وذلك كله أنسب بالختام من آيات الأحكام المذكورة في سياقها. وأيد ذلك أيضاً أن الروايات قد نصت أن النبي ﷺ عاش بعد نزولها تسع ليال فقط ولم تظفر الآيات الأخرى بهذا التنصيص.

أما الجمع بين هذه الروايات فهو المسلك الأسلم والأصوب ما دام الجمع ممكناً، وهو مقدم على الترجيح، لأن في الجمع إعمال الأدلة وفي الترجيح إهمال لبعضها.

لذا فقد سلك الإمام السيوطي هذا الطريق، ونقل ذلك عن الحافظ ابن حجر العسقلاني.

---

(١) البيان، ص٨٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

قال السيوطي: ولا منافاة عندي بين هذه الروايات في آية الربا، واتقوا يوماً، وآية الدين؛ لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في المصحف، ولأنها في قصة واحدة، فأخبر كل عن بعض ما أنزل بأنه آخر وذلك صحيح.

هذا القول السديد في آخر ما نزل، وبالتأمل الدقيق في هذه الروايات نجد دلائل قوية مع من ذهب إلى الجمع بين الأقوال ونجد ضعف حجج المرجحين.

أما دلائل الجمع بين الروايات فلما أسلفنا من أن إعمال جميع الأدلة خير من إهمال بعضها، وليس في هذه الروايات ما يناقض بعضه بعضاً حتى نرجح بعضها ونسقط شيئاً منها.

وكذلك فإن ابن عباس الذي صح عنه رواية الربا هو نفسه أيضاً روي عنه آية: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا ... ﴾، ولا يعقل أن يناقض نفسه، فالأولى أن نقول بعدم التناقض في أقواله.

أما القول بترجيح آية: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾ فإن هذه الرواية وإن ارتاحت النفس إلى أنها آخر ما نزل إلا أنها لا تعدل في سندها رواية آية الربا التي رويت في صحيح البخاري.

وغني عن البيان تقديم روايات البخاري على غيره، فلا نقدم رواية ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾ عليها لأنها أضعف سنداً، أما دعوى أن آية ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾ قد اقترن بها ما يفيد أن النبي ﷺ لم يعش بعدها إلا تسع ليال فليست هذه قرينة على أنها متأخرة في نزولها على آيتي الربا والدين؛ لأن في آية الربا رواية مساندة تقول بأن النبي ﷺ مات ولم يبين لنا آية الربا لقرب وفاته، وفي آية الربا دلالة على أنها آخر ما نزل حسبما وردت الروايات الصحيحة وهي مقدمة في صحتها على رواية نزول آية: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا...﴾.

كما أن الرواية تقول إن آية الدين أحدث آية بالعرش، وما كان كذلك يدل

على أنها آخر القرآن نزولاً؛ لأن الأحدث نزولاً من العرش هو الآخر نزولاً إلى الأرض.

من أجل كل هذا وغيره نقول إن آخر ما نزل هو جميع هذه الآيات ويساعد على ذلك ترتيبها في المصحف بل رأى ابن حجر أنها قصة واحدة:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ ﴾ الآية [١].

إنها حقاً قصة واحدة ومجالها المعاملة المالية؛ لأن الآيات تتحدث عن ربا النسيئة وهو المراد هنا وإنما يترتب على الدين، فهي في أمرين أحدهما متفرع على الآخر وبهذا يكونان في قصة واحدة.

شبهات في آخر ما نزل من القرآن:

وردت روايات عن الصحابة صحيحة وأخرى ضعيفة في أواخر ما نزل من القرآن، وليس في هذه الروايات ما رفع إلى النبي ﷺ، فتحتمل أن تكون الرواية قالها الصحابي بضرب من الاجتهاد وتحتمل أن تكون آخر ما سمعه من رسول الله ﷺ.

ولا يلزم أن يكون آخر ما سمعه هو آخر القرآن نزولاً ؛ لأن قول الصحابي في مثل هذا الأمر يعطي حكم الموقوف ولا يعطي حكم الرفع، لأن

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٧٨-٢٨٢.

مضمونها لا يتوقف على التلقي والتوقيف بل يمكن معرفته عن طريق ملازمة الرسول في أيامه الأخيرة.

فكل يرى أنه سمع من الرسول ﷺ شيئاً من القرآن قبل وفاته لم ينزل عليه بعده شيء، فيكون آخر ما نزل من القرآن بحسب ظنه واجتهاده كما في حديث عثمان المشهور (براءة آخر ما نزل). وكما ورد عن عائشة أن آخر سورة نزلت المائدة. ومن هذه الآثار ما رواه الشيخان عن البراء بن عازب أن آخر سورة نزلت براءة وأخرج مسلم عن ابن عباس قال: أخر سورة نزلت: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾.

وفي هذه الروايات الصحيحة نظر في متنها، والكلام يطول في مناقشة كونها آخر ما نزل، وفي دعوى نزولها كاملة، أو نزول معظمها إذ من المحتم من خلال استقراء الآيات وأسباب نزولها أنها لم تنزل دفعة واحدة، لذا حملت هذه الروايات على أن كل واحد أجاب بما عنده حسب ظنه الذي لا يوافق ظن غيره فيما قاله، أو تحمل هذه الروايات على أن هذه السور القرآنية من أواخر ما نزل ولكنها ليست الآخرية المطلقة.

وهناك روايات كثيرة في آخر ما نزل، حمل الكثير منها على أنها آخر ما نزل في موضوع معين كآية الكلالة على أنها آخر ما ورد في الميراث، وآية: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾[1] حملت على أنها آخر ما نزل في الخمر وهكذا.

خطأ شائع في ادعاء أن آية: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ هي آخر ما نزل:

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩.

أفردت [١] الحديث عن هذه الآية القرآنية للخطأ الشائع الذائع عنها، فإني قد وجدت هذا الخطأ مكرراً ومردداً في جميع العالم الإسلامي خلال تدريسي في الجامعات العربية، كنت أسأل هذا السؤال كمقدمة لمحاضرتي ما آخر ما نزل من القرآن؟ فيرد الجميع: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[٢].

إنني أعزو هذه الظاهرة إلى التأليف المتعجل في مادة التربية الإسلامية وأنهم يقلدون وينقلون الكلام على علاته، وقد كان مصدرهم جميعاً كتاب تاريخ التشريع الإسلامي للشيخ محمد الخضري بك، الذي لم ينقح الأقوال في هذا الموضوع.

منشأ هذه الشبهة: أشهر الكتب القديمة في علوم القرآن كتابا البرهان في علوم القرآن للزركشي والإتقان في علوم القرآن للسيوطي.

أما الزركشي فأورد الأقوال التي بلغ بها عشرة ولم يشر إلى آية: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ ﴾ أنها آخر ما نزل.

وأما السيوطي فقد عقب على الأقوال في آخر ما نزل، وقال من المشكل على ما تقدم قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ ﴾ فإنها نزلت بعرفة، ثم أورد قول السدي وجماعة: لم ينزل بعدها حلال ولا حرام.

وهذا القول على الرغم مما قيل في سنده إلا أن ابن جرير قد استشكل عليه فهم السدي ومن وافقه من أن المقصود من إكمال الدين في هذه الآية أن جميع الفرائض والأحكام قد تمت قبل نزولها مع أنه نزل بعدها آية الربا وآية الدين وهما من آيات الأحكام.

---

(١) انفرد بهذا المطلب د/ محمد علي الحسن.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

وقد دفع ابن جرير هذا الإشكال بقوله: (الأولى أن نتناول آية ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ على أنه اكتمل لهم دينهم بإقرارهم بالبلد الحرام وإجلاء المشركين عنه حتى حج المسلمون لا يخالطهم المشركون).

ثم أيده بما روي عن ابن عباس: (كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً، فلما نزلت (براءة) نُفي المشركون عن البيت الحرام، وحج المسلمون لا يشاركهم في البيت الحرام أحد من المشركين) فمعنى الآية أن المراد بإكمال الدين إكمال سلطانه وسطوته، وإعلاء كلمته وتقوية شوكته، حيث ذل المشركون أمام المسلمين، وخضعوا لقول الله تعالى في السورة نفسها (براءة). ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾[1] فلم يجترئ أحد منهم على مخالفة هذا الحكم، والتأويل الذي ذهب إليه السدي ومن وافقه لا ينفي أن ينزل بعدها آيات في الحلال والحرام، وفي الوعظ والتذكير والوعد والوعيد ونحو ذلك.

وأخيراً فإن الزعم بأن هذه الآية آخر ما نزل، لم يقل به أحد من السلف فيما أعلم[2].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

(٢) انظر: جامع البيان في تفسير هذه الآيات من سورة المائدة.

المبحث الثاني

المكي والمدني من القرآن

المراد بالمكي والمدني:

لم يرد عن النبي ﷺ بيان في ذلك، لأن المسلمين آنذاك لم يكونوا في حاجة إلى هذا البيان، فهم يشهدون الوحي ومكانه وزمانه، وأسباب نزوله بل ينتظرونه أحياناً لتوضيح مسألة أو للحكم في قضية.

إنما وقع الخلاف بين العلماء حين غابت هذه الظروف وامتد الزمن حول بعض الآيات وبعض السور، وأظهر ما يكون الخلاف في السور المكية وآياتها؛ لأن حوادث مكة لم تعد واضحة بينة مثل حوادث المدينة.

هذا بالنسبة للترتيب الزمني لنزول الآيات والسور. أما من ناحية أن هذا القرآن مكي وهذا مدني فيمكن القطع فيه على وجه الإجمال إلا في مواضع قليلة فيها خلافات يسيرة، أما القطع في التفصيل فأبعد منالاً وأصعب تحقيقاً.

وقد تعددت وجهات النظر حول الأسس والضوابط في تقسيم القرآن الكريم إلى مكي ومدني، فمن العلماء من اعتبر الزمان، ومنهم من اعتبر المكان، ومنهم من راعى توجيه الخطاب.

والأول هو المشهور عند أئمة التفسير بل المجمع عليه لأنه تقسيم ضابط وحاضر ومطرد، فما نزل من القرآن قبل الهجرة فهو مكي وإن نزل خارج مكة، وما نزل بعد الهجرة فهو مدني وإن نزل خارج المدينة بل لو نزل في مكة ذاتها، لذا فقد جعلوا سورة النصر مدنية، وقد نزلت في مكة، واعتبروا آية المائدة

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1] مدنية كذلك وقد نزلت على عرفات قرب مكة.

أما من جعل المكان مناطاً للتقسيم فقال: ما نزل في مكة فهو مكي، وما نزل في المدينة فهو مدني، ولما كان من الآيات ما نزل خارج مكة وخارج المدينة، فقد وسع هؤلاء الدائرة المكانية فقالوا: ما نزل بمكة وضواحيها كمنى وعرفات والحديبية فهو مكي، وما نزل بالمدينة وضواحيها كبدر وأُحد فهو مدني، وعلى الرغم من ذلك بقى هذا التقسيم غير شامل ولا حاصر لكثير من الحالات إذ من الآيات ما نزل في غير مكة والمدينة وضواحيها، كالآيات التي نزلت في بيت المقدس وتبوك وغيرها، مما اضطر بعضهم إلى تقسيمه أربعة أقسام كما قال ابن النقيب في مقدمة تفسيره: (المنزل من القرآن أربعة أقسام، مكي مدني، وما بعضه مكي وبعضه مدني، وما ليس بمكي ولا مدني) أي لم ينزل في مكة ولا في المدينة.

ولا يخفى عليك أن هذا التقسيم غير حاصر ولا ضابط ولا مطرد فهو مخل بالمقصود.

أما التقسيم الذي نظر فيه إلى توجيه الخطاب، فما وُجِّهَ فيه الخطاب لأهل مكة فهو مكي، وما وُجِّهَ فيه الخطاب لأهل المدينة فهو مدني، فهو أيضاً غير شامل ولا حاصر لجميع الآيات القرآنية، إذ من الآيات ما لم يرد فيها خطاب لأهل مكة ولا لأهل المدينة، كالآيات التي خاطبت النبي ﷺ وحده، بل من الآيات التي لم يرد بها الخطاب لأحد من هؤلاء جميعاً، كآيات القصص والأخبار، فماذا يمكن أن يقال عن مثل هذه الآيات؟ بل ماذا يقال عن الآيات التي نزلت بعد أن عمَّ نور الإسلام المدينة ومكة معاً، وأصبح الخطاب موجهاً

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

للجميع دون استثناء، بل موجهاً لجميع الخلق إنسها وجنِّها.

ويبقى القول الأول الذي لا محيص عنه لضبطه وحصره وشموله لجميع القرآن، وقد ورد النص الصريح عن الصحابة في اعتبار هذا الرأي، فقد قالوا عن سورة النصر إنها مدنية، وقالوا عن آية المائدة السابقة الذكر إنها مدنية كذلك، وهذا القول ينسجم مع التقسيم الأول.

هذا هو الاصطلاح المعتمد عند جمهور المفسرين وبذلك وافقوا أقوال الصحابة أن سورة الفتح وآية المائدة: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ مدنية كذلك لنزولها بعد الهجرة وإن نزلتا في مكة، وقالوا: إن آيات فرض الصلاة مكية وإن نزلت في السموات لنزولها قبل الهجرة.

الطريق لمعرفة المكي والمدني:

بعد تحديد المراد من المكي والمدني نود أن نعرف الطريق لمعرفة كل منهما.

يقول الباقلاني: (إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين، ولم يرد عن النبي ﷺ في ذلك قول لأنه لم يؤمر به)[1].

فالصحابة رضوان الله عليهم قد شاهدوا الوحي ونزوله، وقد بلَّغهم النبي ﷺ ما نزل عليه من الآيات، وقد أخبرونا بما أخبرهم به، بل أخبرونا بالمكان والزمان الذي نزلت فيه الآيات، بل بلغت بهم الدقة أن أخبرونا بما نزل منه ليلاً أو نهاراً، وما نزل منه في سفر أو في حضر، في سهل أو في جبل، بالصيف أو بالشتاء، ما نزل ببيت المقدس والجُحفة والطائف والحديبية، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: (والله الذي لا إله غيره ما نزلت آية في كتاب الله إلا وأنا

(١) الإتقان ١/ ٢٣.

أعلم فيمن نزلت وأين نزلت)[1].

وروي مثل ذلك عن وهب بن عبدالله بن أبي الطفيل، قال: شهدت علياً رضي الله عنه يخطب ويقول: (سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، في سهل أم في جبل).

فأمر معرفة المكي والمدني سماعي عن الصحابة رضوان الله عليهم لأنهم شاهدوا الوحي ونزوله، وعرفوا مكانه وزمانه، وقولهم في ذلك له حكم المرفوع عن النبي ﷺ لأن ذلك مما لا مجال للرأي فيه، فإذا صح القول عن الصحابي قُبل ولا يُعَّدل عنه إلا بدليل أقوى يقتضي هذا العدول.

وقد ألحق الباقلاني قول التابعي فجعله كقول الصحابي؛ لأن كبار التابعين قد شاهدوا من شاهد نزول الوحي، ونقلوا إلينا أقوالهم، فإذا ما أخبرونا بأن هذه الآية مكية قُبل قولهم، وقد قبل الإمام الشافعي مراسيل كبار التابعين في الحديث، أفلا يقبل إخبارهم بمكان نزول الآيات.

سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال: (نزلت في سفح ذلك الجبل) وأشار إلى سلع، فإخبار عكرمة بذلك لا يكون إلا إذا سمعه من الصحابة الذين عرفوا هذا المكان فأخبروه بما رأوا وسمعوا، ولا أدل على ذلك من أن ابن مسعود رضي الله عنه على الرغم من القول الذي نقل عنه في معرفة زمان ومكان النزول إلا أن ما روي عنه نزر يسير، وهو إذ لم يكتم علماً في معرفته نفع للأمة، فإنه يكون قد علمه إلى من سمع منه من التابعين رضوان الله عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

يبقى القول في بعض الآيات التي اختلف في زمن وموطن نزولها، هذه الآيات قلائل قد أمكن معرفتها وفق معايير دقيقة كالنظر في طابع الآيات المكية والمدنية، ومميزات كل منهما ومدى انطباق الآيات عليها، أو بالتتبع التاريخي لسير الدعوة الإسلامية ومقتضيات كل مرحلة، أو قرائن أخرى يعرفها المتمرس في القرآن وعلومه، والله أعلم.

مميزات المكي والمدني:

تحدثنا عن الطريق الموصلة لمعرفة المكي والمدني، وعرفنا أن السبيل إلى ذلك هو السماع عن الصحابة – رضوان الله عليهم – أو عن كبار التابعين، بيد أن هناك بعض الآيات التي اختلف في مكيتها ومدنيتها مما اضطر العلماء إلى القول فيها بالاجتهاد والقياس وذلك وفق ضوابط أو قرائن يمكن بواسطتها الحكم عليها، ولدى استقراء الآيات القرآنية وجد أن للمكي ضوابط ومميزات معينة تختلف نوعاً ما عن الطابع المدني أبرزها:

١ –أن السور المكية يغلب على آياتها القصر، فسورة المدثر على سبيل المثال عدد آياتها ست وخمسون آية، وجل آياتها كلمتان أو ثلاث أو بعض كلمات على الأكثر ولا يستثنى من ذلك إلا آية واحدة رقم (٣١): ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾[1].

(١) سورة المدثر، الآية: ٣١.

أما الآيات المدنية فنحن نلحظ طوال آياتها [1]، وإذا قارنا حزباً من الأحزاب القرآنية المكية كالحزب الذي فيه سورة الشعراء، وحزباً مدنياً كالذي فيه سورة الأنفال نجد فارقاً عظيماً في عدد آيات الحزب المكي والحزب المدني.

فعدد آيات سورة الشعراء المكية (٢٢٧) آية، بينما سورة الأنفال (٧٥) آية وبالاستقراء فإن مجموع الآيات المدنية في القرآن لا يزيد عن ربع مجموع الآيات المكية ومع ذلك فإننا نجد مساحتها في المصحف تزيد عن الآيات المكية زيادة واضحة.

٢-يغلب على السور المكية معالجة قضايا العقيدة، وإقامة الدليل، والدعوة إلى ترك عبادة الأصنام وخلع المعتقدات الفاسدة، نلحظ ذلك بوضوح في سورة الأنعام ويونس والفرقان والشعراء والقصص.

٣-كل سورة ذكرت فيها سجدة فهي مكية، وكذلك القصص إلا قصة آدم وإبليس المذكورة في القرآن فهي مدنية.

٤-كل سورة ورد فيها لفظا (كلا) مكية وقد ذكر هذا اللفظ ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة وكلها في السور الأخيرة في القرآن كسورة اقرأ والمطففين وغيرهما.

٥-يغلب افتتاح النداء بالآيات المكية بـ: يا أيها الناس ويا بني آدم.

٦-كل سورة مبدوءة بأحرف التهجي مكية إلا البقرة وآل عمران فهما مدنيتان وسورة الرعد فيها خلاف.

---

(١) اقرأ إن شئت أطول آية في القرآن على الإطلاق، وهي آية الدين في سورة البقرة والتي تبلغ حوالي صفحة من القرآن.

أما السور المدنية فأهم مميزاتها:

١-من المعلوم أن المجتمع الإسلامي قد ظهر في المدينة لأول مرة وقد تعرضت الآيات القرآنية لبناء المجتمع وتأسيسه على أساس الأخوة، لذا نجد أن كل سورة تتحدث عن المهاجرين والأنصار فهي مدنية، كما عنيت الآيات المدنية بفضح المنافقين ومكائدهم وكشف اليهود وتعريتهم على حقيقتهم، فكل سورة ذكر فيها النفاق فهي مدنية إلا سورة العنكبوت فإنها مكية عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها فإنها مدنية وهي تتحدث عن المنافقين، وهكذا فإن كل سورة يذكر فيها أهل الكتاب من يهود ونصارى فهي مدنية أيضاً.

٢-ولما كانت مرحلة ما بعد الهجرة قد تميزت بقيام الدولة الإسلامية والمكلفة بنشر الإسلام؛ لذا فكل سورة فيها حكم يعالج قضايا التشريع والأحكام من عبادات ومعاملات ونظام للأسرة فهي مدنية، وكل سورة فيها ذكر للجهاد وما يترتب عليه من أحكام دولية كحكم الأسرى والغنائم والسلم والمعاهدة فهي مدنية، وقد جاء النفَس في هذه الآيات طويلاً ليوائم الموضوع الذي تعالجه.

٣-ولما تكوّن المجتمع المؤمن المتميز على المجتمعات الكافرة فناسب أن يكون النداء الموجه من الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ﴾ وقل أن تجد نداء موجهاً لأهل المدينة مصدراً بيا أيها الناس إلا إذا كان في موضوع عام يتناول الناس جميعاً وقد جاء ذلك في سبعة مواضع منها:

أ-ما جاء في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾[1]

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١.

وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾[١].

ب-ما جاء في سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[٢] وقوله: ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآَخَرِينَ ﴾[٣].

ج-ما جاء في سورة الحجرات قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٤].

د-وأضاف العلماء إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[٥]. فإنها نزلت ليلاً عند السفر لغزوة بني المصطلق وقد كان ذلك في السنة السادسة للهجرة.

وبعد: فإن هذا القول منسوب لابن مسعود: أن ما ورد فيه النداء القرآني بـ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ أنه مكي، وما ورد النداء في السور بـ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ﴾ أنه مدني.

وقد وقع معه بعض من لا خبرة له في هذا الشأن في التناقض وعدم الفهم لحقيقة مراد الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود، فرد على هذا القول بأن متنه مجانب للصواب وأن سنده أشد ضعفاً[٦].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٣٣.

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٥) سورة الحج، الآية: ١.

(٦) قاله الزركشي في البرهان في علوم القرآن ١/ ٩٧.

والواقع أنه رضي الله عنه يريد ما هو من سور القرآن مشتمل على النداء بـ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ مع خلو تلك السورة من النداء بـ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهو مكي. وما هو مشتمل على النداء بـ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مع خلو السورة من النداء بـ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ فهو مدني.

وحينئذ يكون قد سكت رضي الله عنه عما يكون مشتملاً على النداءين مجتمعين كسورة البقرة وسورة النساء وسورة الحج مثلاً.

وما تكلم عنه هذا الحبر عبدالله بن مسعود مضطرد لا كلام في متنه ولا سنده وما سكت عنه يحتاج إلى بحث في جعل السورة مكية أو مدنية وذلك بالدليل والقرينة.

المبحث الثالث

نزول القرآن على سبعة أحرف

طالما شغل هذا الموضوع العلماء – قديماً وحديثاً – قال الطبري: إن الأقوال فيه فاقت الثلاثين قولاً، وأوصلها بعضهم إلى أربعين ونيف، وكلها لم يخل من مقال وقد أشبع العلماء الأوائل هذه الأقوال نقداً وتفنيداً أذكر على سبيل المثال لا الحصر الإمام الطبري في تفسيره جامع البيان وابن عطية في تفسيره الوجيز، والثعالبي في كتابه الجواهر، وابن كثير والنيسابوري والقرطبي وخلائق لا يحصون، كما عني به علماء القراءات كابن الجوزي في كتابه النشر في القراءات العشر وقد قال: إن هذا الموضوع قد شغله ما يزيد عن ثلاثين عاماً ونيف، ثم قال: إن الله هداه إلى ما يمكن أن يكون صواباً، ومع هذا التواضع العلمي لم يصب الصواب.

وفي عصرنا انساق كثير من العلماء وراء أقوال لا تخلو من ضعف ووهن وإن تابع بعضهم بعضاً، وهم – على جلالة قدرهم – مقلدون لمن سبقهم، فقد استحسن الشيخ العظيم الزرقاني رأي ابن قتيبة وابن الطيب والرازي ودافع عنه كثيراً وجاء من بعده متأثراً بهذا الرأي.

ولكي يعطي هذا المبحث حقه من البيان يجدر بنا أن نسوق أولاً الأحاديث الواردة في هذا الموضوع:

١-عن عمر بن الخطاب يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ في سورة الفرقان في حياة الرسول ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثير لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أسواره في الصلاة، فتصبرت حتى سلّم، فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأها؟ قال: أقرأنيها

رسول الله ﷺ، فقلت: كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، وذهبت للنبي ﷺ فقلت إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، فقال رسول الله ﷺ: (أرسله، أقرأ يا هشام)، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: (هكذا أنزلت)، ثم قال: (اقرأ يا عمر) فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: (هكذا أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه)[1].

٢-عن أبي بن كعب قال: كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه ثم دخل رجل آخر فقرأ قراءة صاحبه، فلما قضيت الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ، فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ نفس قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرأ فحسن النبي ﷺ شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهلية، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب على صدري ففضت عرقاً وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فرقاً فقال لي: (إن ربي أرسل إلي أن اقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هوِّن على أمتي، فرد إليَّ الثالثة اقرأه على سبعة أحرف فلك بكل ردة رَدَدْتُكها مسألة تسألنيها، فلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي)[2].

٣-عن أبي بن كعب أن النبي ﷺ كان عند أضاة بني غفار قال: (فأتاه جبريل عليه السلام، فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم أتاه الثانية، فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين، فقال: أسأل الله معافاته

---

(١) رواه البخاري ٦/ ١٠٠، ٣/ ٩٠، ٨/ ٥٣، والإمام مسلم ١/ ٥٦٠ وغيرهما.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ١/ ٥٦٢.

ومغفرته وإن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الثالثة فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال: أسأل الله معافاته ومغفرته إن أمتي لا تطيق ذلك، ثم جاءه الرابعة، فقال: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا)[١].

٤-عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: (أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده، ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف)[٢].

٥-عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أنزل القرآن على سبعة أحرف)[٣].

٦-عن أبي بن كعب قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل فقال: (يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميين منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط، قال: يا محمد أنزل على سبعة أحرف)[٤].

ما يستفاد من الأحاديث:

١-إن الخلاف الذي وقع بين عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم إنما هو ناجم عن نطق في هيئات الكلمة القرآنية، كما نزلت على رسول الله ﷺ وكما علمها لأصحابه رضوان الله عليهم، تأمل قول عمر وهشام في رواية الحديث:

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٢٦٠.

(٢) صحيح البخاري ص٨٠، وصحيح مسلم ١/ ٥٦١.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ١٩٤، وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٣٩١، والبزار والطبراني وفيه عاصم بن بهدلة، قال الهيثمن: وفيه كلام لا يضر والحديث صحيح.

قال عمر: إني سمعت هذا – يعني هشاماً – يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها، وأنت أقرأتني سورة الفرقان، فالخلاف هو في قراءة الكلمات، ومصدره النبي ﷺ فهو الذي أقرأ عمر، وهو الذي أقرأ هشاماً، وهذه التي علمهم إياها رسول الله ﷺ مصدرها الوحي، فقد قال رسول الله ﷺ مصوباً لكل واحد منهما ومخبراً أن قراءة الآيات من قبلهما بأنها هكذا نزلت وحكم بالصواب لكل قراءة بقوله: (أصبت).

فالأحرف في نطق اللفظ وليس في قراءة القرآن فيما معناه كما يقال: ولا تغيير اللفظ بمرادف.

قال ابن الجوزي: (وأما من يقول: إن بعض الصحابة كابن مسعود كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه إنما قال: نظرت القراء فوجدتهم متقاربين فاقرؤوا كما علمتم)[1].

فلو كانت الأحرف هي القراءة بما معناه أو تبديل الكلمة بمرادف لما صح قوله ﷺ: (هكذا نزلت).

٢-تدلنا هذه الأحاديث بصراحة ووضوح أن المراد بالعدد سبعة هو حقيقة العدد المحصور بين الثمانية والستة وليس المراد به الكثرة.

وقد تاهت أقلام بعض الأقدمين والمحدثين في حقيقة هذا العدد، وقالوا إن المراد به الكثرة لا تحديد العدد سبعة، وقد ذهب إلى ذلك الأستاذ سعيد الأفغاني عميد كلية الآداب في جامعة دمشق وقرر ذلك في مقدمته لكتاب (حجة القراءات لأبي زرعة) وهو رأي قد سبق إليه من الأقدمين كالقاضي

(١) النشر في القراءات العشر.

عياض ومن تبعه [١].

والذي نراه صواباً هو ما ذكرته الأحاديث السالفة الذكر؛ وهو أن المراد بالسبعة هو حقيقة العدد وليس المراد به الكثرة وهذا ما ذهب إليه أكثر المتقدمين والمتأخرين.

قال ابن الجوزي بعد أن ساق كلام الذين يرون أن العدد سبعة يفيد الكثرة، قال: وهذا جيد لولا أن الحديث يأباه [٢]. فالروايات واضحة وصريحة أن النبي ﷺ قد راجع جبريل وطلب المزيد حتى بلغ سبعاً، نعم إن الروايات لا تشير بمجموعها إلى أن المراجعة بلغت ستاً بصريح العبارة، ولكن لفظ الحديث يدل على أن النهاية قد انتهت وثبتت ووصلت إلى العدد سبعة، ومما يفيد هذا ما رواه أبو بكر أن رسول الله ﷺ قال: (فنظرت فسكت – أي جبريل – فعلمت أن العدة قد انتهت)[٣].

وهل هناك ما هو أوضح من القول فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف.

وهذا الرأي الذي رجحه الأستاذ محيي الدين خليل في بحث مستفيض كلمتان بين المفسرين والمحدثين وأهل اللغة (سبعة) و(سبعين)، فقد قرر بعد استعراض شامل وخلص إلى القول: (إننا نجد أن المعاجم اللغوية على كلمة سواء فيما يختص بالسبعين والسبعمائة، وهو أنهما تكررتا في القرآن الكريم والحديث الشريف، والعرب تضعهما موضع التضعيف ولا تريد معناهما

(١) حجة القراءات لأبي زرعة، ص٨-٩.

(٢) القراءات عند المفسرين، ص٥.

(٣) سنن النسائي في جامع ما جاء في القرآن، ٣/ ١٥٤.

اللغوي في كثير من الأحيان، ولكن هذه المعاجم لا تلتقي على كلمة سواء فيما يختص بالسبعة، والسبع رغم تكرارهما في القرآن والحديث ولغة العرب)[1].

ونحن إذا تمعَّنا في الأحاديث ونصوصها فإننا نجد أن المراد بالسبعة هو العدد المحصور بين الستة والثمانية، وليس المراد فيه الكثرة في الآحاد.

٣-نلمس من هذه الأحاديث أن نزول القرآن على سبعة أحرف فيه تسهيل وتيسير على الأمة ويدلنا على ذلك مراجعة النبي ﷺ جبريل بأن يسأل ربه التخفيف والمعافاة حتى بلغ ما بلغ من الأحرف السبعة.

٤-هذه الأحاديث هي عمدة الكلام حول الأحرف السبعة وقد اخترنا الصحيح منها بل المتواتر، وقد ضربنا صفحاً عن ذكر الأحاديث التي لم تصح سنداً فالحديث عنها لا طائل تحته.

هذا ما أردنا التنويه إليه مما يستفاد من الأحاديث حتى يكون عوناً لنا في تحديد المراد فيما بعد.

---

(١) البحث مطبوع ونشره مركز البحوث في جامعة الملك سعود.

معنى الأحرف السبعة

المعنى اللغوي:

الأحرف جمع حرف وقد ورد بمعان كثيرة: حرف الشيء طرفه، والحرف هو أحد حروف التهجي كالألف حرف والباء حرف، والحرف يطلق على الوجه ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَّ عَلَى حَرْفٍ ﴾[1] يعني أنهم عبدوه على وجه الشك لا على اليقين والتسليم لأمره، قال مجاهد: على شك وهذا علامة على القلق وعدم الثبات كضعف القائم على حرف مضطرب فيه.

وقال الحافظ أبو عمرو الداني: إن معاني الأحرف اللغات يعني أن القرآن أنزل على سبعة أوجه من اللغات، وقيل: اللغات يعني اللهجات، وعلى هذا فالحرف لغة: (يعني الطرف، واحد حروف التهجي، والوجه واللغة واللهجة).

أما كلمة السبعة فكما سبق أن قلنا إن المراد منها حقيقة العدد المحصور بين الستة والثمانية وليس المراد منها المعنى المجازي.

المعنى الاصطلاحي للأحرف السبعة:

على الرغم من كثرة الأقوال التي تحدد المعنى الاصطلاحي للأحرف السبعة إلا أنه يمكن رد كثير منها وفق قاعدة متفق عليها: (أن كل قول لا يستند إلى أثر ثابت هو مردود أيضاً، مثل قول ابن مسعود المنسوب إلى النبي ﷺ والقائل: (كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد وعلى حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف، زجر ، وأمر، وحلال، وحرام،

---

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

ومحكم ومتشابه وأمثال)[١].

فهذا القول لم يصح فقد أخرجه الحاكم والبيهقي وليس سنده يصح ولو صح السند لكان حاسماً للنزاع على أنه قد روي عن ابن مسعود قول خلاف ذلك كما قال الطبري.

أو مثل القول: محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخصوص وعموم وقصص. كل هذه الأقوال وأمثالها قد ضربنا عنها صفحاً ولم نتكلف الرد عليها لعدم استنادها إلى الدليل.

وبعد: فنبدأ برأي الطبري الذي استهل به تفسيره المشهور وقد أطال كثيراً في تحديد المعنى لها وقد وافقه الطحاوي واستفتح به القرطبي سائر الأقوال وإن لم يوافقه.

وقد تأثر بعض المحدثين بقول الطبري كما ظهر في كتاب مباحث علوم القرآن.

لقد فسر الطبري الأحرف السبعة أنها سبعة أوجه ولكنها ليست كالأوجه السبعة التي سيأتيك ذكرها بل أوجه سبعة من المعاني المتفقة والألفاظ المختلفة في الكلمة الواحدة نحو هلم وأقبل وأسرع وتعال وعجل وقصدي ونحوي وقربي[٢].

فلك أن تختار أي لفظ من هذه الألفاظ وهذا معنى التسهيل والتيسير على الأمة وقد أورد الطبري الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: (اقرأ فكل شاف كاف، إلا أن تخلط آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة، على نحو

---

(١) جامع البيان ١/ ٢٣، قال السيوطي: حديث ابن مسعود أخرجه الحاكم والبيهقي، الإتقان ١/ ٤٨.

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان، وكذلك الطبري ١/ ٢٠.

هلم وتعال وأسرع وأقبل ... إلخ.

أو كما روي في حديث أبي بن كعب: (قلت غفوراً رحيماً أو قلت سميعاً حكيماً أو قلت عليماً حكيماً أو قلت عزيزاً حكيماً أي ذلك قلت فإنه كذلك).

واستدلوا على هذا القول بقراءات مروية عن أعيان الصحابة مثل أبي بن كعب وهو أقرأ الصحابة كما ورد (أقرؤكم أبي) فقد روي أنه قرأ في قوله تعالى: ﴿ مَشَوْا فِيهِ ﴾[١]، أبدلها بقوله: (مروا فيه سعوا فيه) وقرأ قوله تعالى في سورة الحديد ﴿ لِلَّذِينَ آَمَنُوا انْظُرُونَا ﴾[٢] قال: (امهلونا، أخرونا، ارقبونا).

أما أنس بن مالك فقرأ قوله تعالى في المزمل: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾[٣] قال: (وأصوب قيلاً فقيل له أقوم فقال وأصوب وأهيأ واحد)[٤].

أما ابن مسعود فقد أقر رجلاً قرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾[٥]. حين قال طعام الأثيم فقال: (قل طعام الفاجر) هذا قول الطبري وهو فاسد من وجوه كثيرة:

١ -أن الآثار التي أستند في الأحرف السبعة لم يصح منها إلا ما أوردناه سابقاً وما هو قريب من لفظه ومعناه، أما هذه الروايات فلم تثبت عن النبي ﷺ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الحديد، الآية: ١٣.

(٣) سورة المزمل، الآية: ٦.

(٤) جامع البيان ١/ ١٨، والحديث رواه أبو يعلى والبزار والآية ٦ من المزمل.

(٥) سورة الدخان، الآية: ٤٣، انظر: تفسير الآية للطبري والقرطبي.

٢-أن الآثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم على فرض صحتها هي قراءات شاذة لا يعتد بها في الاستشهاد.

٣-لم يعتبر أحد أن هذه القراءات قرآنية لأنها لم تتواتر وهي قراءات إن صحت على أبعد احتمال فلا تعدو أن تكون قراءة آحاد مخالفة للسواد فلا يعتد بها كما قال أبو حيان.

٤-على أن العلماء مع اتفاقهم جميعاً دون استثناء على أنها ليست قرآناً قد اختلفوا في اعتبارها حديثاً وهي على أحسن تقدير تفسير صحابي.

٥-أن القراءة بالمرادف بفتح باب التغيير والتبديل فليس للنبي ولا لصحابي أن يبدل اللفظة من بعض هذه الألفاظ من تلقاء نفسه، فإن هذا القرآن المعجز لو حذفت أو أبدلت كلمة منه ثم أدرت لسان العرب كله على أن تأتي بدلها ما استطعت.

إن كلمة هلم أو أقبل أو نحوي لا يمكن أن تسد مسد كلمة تعال لا في اللفظ وتناسقه وسياقه ولا في أداء المعنى الدقيق لهذه الكلمة.

فهل كلمة هلم وأقبل ونحوي وأسرع تسد مسد كلمة تعالى؟ أو كلمة أقوم مثل: أهيأ وأصوب، أو كلمة (طعام الفاجر) مثل طعام الأثيم؟.

لقد خاض العلماء في ذلك وكتبوا في تشابه القرآن في آياته بزيادة حرف أو نقص أو بإبدال كلمة مكان كلمة، وقالوا في ذلك عجباً وبينوا الإعجاز الرباني في الإبدال والنقص والزيادة، فكيف يكون قوله عزيزاً حكيماً مثل عليماً حكيماً ما لم تخلط له عذاب برحمة أو العكس كما زعموا.

قال أبو بكر الباقلاني: (فلا يجوز للناس أن يبدلوا أسماء الله تعالى في موضع بغيره مما يوافق أو يخالف)، إن هذا القول رغم إجلالنا لقائله وهو ابن جرير الطبري إلا أنا نقول كما قال علماؤنا: هذا الرجل كبير ولكن الحق أكبر

منه،، لذا فقد خالفه جماهير العلماء فيما ذهب إليه، ولو أمعن بعض المحدثين فيما اعترض به على ابن جرير لما ذهبوا مذهبه، بل أوقعتهم ثقتهم بهذا المفسر العظيم حين افتتح كتابه بالحديث عن علوم القرآن، وبحث الأحرف السبعة، وأطال الاستدلال فتوهم هؤلاء بأن رأيه الحق الذي لا بديل له.

أما القول الثاني فهو رأي ابن قتيبة وابن الجزري والقاضي ابن الطيب والرازي وابن كثير، وقد قال به كثير من المحدثين كالزرقاني الذي تابعه كثيرون.

لقد قال هؤلاء جميعاً إن المراد بالأحرف السبعة أوجه سبعة، وهي لا تخرج عن سبعة أوجه في الاختلاف [١].

الأول: اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية وجمع، وتذكير وتأنيث مثاله قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾[٢] لأمنتهم بالإفراد ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ لأماناتهم بالجمع.

الثاني: اختلاف تصريف الأفعال، من ماضٍ، ومضارع، وأمر مثاله قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾[٣] ربنا بَعِّد بين أسفارنا.

الثالث: اختلاف في وجوه الإعراب، مثال: ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾[٤] ورسوله بالضم، ورسوله بالفتح.

---

(١) النشر في القراءات العشر ١/ ٢٧.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٩.

(٣) سورة سبأ، الآية: ١٩.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٣.

الرابع: الاختلاف بالنقص والزيادة، مثاله: ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾[١] والذكر والأنثى بنقص لفظ وما خلق، ونحو أوصى، ووصى بنقص حرف الهمزة.

الخامس: الاختلاف في التقديم والتأخير ومثاله: ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾[٢] بمعنى مقتول وقاتل، أو ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ بمعنى قاتل ومقتول، وكلاهما موعود بالحسنى والجنة، ومثاله: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾[٣] وجاءت سكرة الحق بالموت.

السادس: الاختلاف بالإبدال وهو قسمان: إبدال حرف قريب المخرج بحرف قريب مثله: ﴿ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾[٤] وطلع منضود. والثاني: إبدال كلمة بكلمة ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾[٥] كالصوف المنفوش بدل العهن.

السابع: اختلاف اللهجات كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم وغير ذلك.

وإذا تأملت هذه الأوجه فإنها لا تخلو من نقد، وهي أوجه فيها نظر من نواح كثيرة، فالأمثلة القرآنية هي روايات أحادية لا تثبت قرآنيتها كما يقول أبو حيان (رواية آحاد مخالفة للسواد فلا يعتد بها)[٦] فقوله: (وجاءت سكرة الحق

---

(١) سورة الليل، الآية: ٣.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٣) سورة ق، الآية: ١٩.

(٤) سورة الواقعة، الآية: ٢٩.

(٥) سورة القارعة، الآية: ٥.

(٦) تفسير البحر المحيط ٨/ ٤٨٣.

بالموت) وقوله: (والذكر وأنثى) بدل (وما خلق الذكر والأنثى) وقوله: (كالصوف المنفوش) بدل (العهن المنفوش) كل ذلك لم يثبت رواية ولم يصح سنداً.

ثم إن المتأمل لهذه الأوجه لا يلمس وجه الحكمة والتسهيل على أمة محمد ﷺ في مثل هذه الأوجه.

المعنى الثالث:

الأحرف السبعة هي لغات سبع [1] متفرقة في القرآن وهي لغات أحياء من قبائل العرب مختلفة نزل بها القرآن الكريم على النبي ﷺ وكان يأمر كتبة الوحي وهم من قبائل شتى من قريش وغيرها بكتابته، وقام عثمان بن عفان وأمر الكتبة حين كتابة القرآن إذا اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلغة قريش، ومعنى ذلك أن القرآن منه ما قرئ بلغة قريش ومنه ما قرئ بغيرها كما ثبت عن النبي ﷺ، وهذا ما سبب اختلاف الصحابة في قراءة القرآن، فمن سمع النبي ﷺ يقرأ على وجه فإنه يقرأه على هذا الوجه، ومن سمع النبي ﷺ يقرأ على وجه آخر فإنه يقرأ على الوجه الذي سمعه كذلك، وربما سمع أحدهم ما لا يسمعه الآخر فينكر عليه، فحين قرأ هشام الفرقان أنكر عليه عمر ذلك؛ لأنه لم يسمعها من النبي ﷺ.

فالأحرف السبعة كلها مسموعة عن النبي ﷺ وقد نزل بها الوحي.

أما إنها لغات سبع فلما روي عن عثمان أنه أمر كتبة الوحي إن اختلفوا مع زيد بن ثابت في كتابة شيء من القرآن أن يكتبوه بلغة قريش، لأنها اللغة الشائعة فهي أحق من غيرها إذا وقع الاختلاف، فلغة قريش إذن معها لغات أخرى.

---

(١) القرطبي ١/ ٣٨-٣٩

إن تفسير الأحرف السبعة باللغات السبع يلمس فيه وجه التخفيف والتسهيل فالقبيلة قد تعتاد لهجة معينة يسهل عليها النطق بها ويصعب عليها النطق بغيرها، وفي نزول القرآن بهذه اللغات يسهل على أصحاب كل لهجة القراءة القرآنية على نحو ما اعتاد عليه نطقه، ورفع الحرج عن من لم يعتد عليه نطقاً. وعلى الأخص الشيوخ والنساء والأطفال وهذا ما يبين وجه الحكمة في قوله ﷺ: (إن أمتي فيها الشيخ الفاني والعجوز الكبير والغلام) ثم قوله ﷺ: (إني بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ...).

وقد يعترض على هذا القول فأي اللغات السبع تريد والعرب قبائل شتى؟ هل هي قريش وثقيف وهذيل وهوازن وكنانة وتميم أو غيرهما.

وما هو الدليل على تعيين هذه اللغات أو اللهجات السبع التي نزل بها القرآن علماً بأن القبائل العربية كثيرة ولهجاتها لا تعد.

أقول: إن الأحرف السبعة هي لغات سبع اشتهرت شهرة بين العرب، ولم يعينوا من هم، ولكنها سبعة على أية حال قد عرفنا لغة قريش على وجه التأكيد، بل منهم من يرى أنها سبع لغات من لغات قريش، أورده النيسابوري في تفسيره قائلاً: أكثر العلماء على أنها سبع لغات من لغات قريش لا تختلف ولا تتضاد بل هي متفقة المعنى ثم يقول: وغير جائز عندهم أن يكون في القرآن لغة لا تعرفها قريش. ذلك أن قريشاً تجاور البيت وكانت العرب تأتي إليهم للحج ويستمعون لغاتهم ويختارون من كل لغة أحسنها كلاماً واجتمع لهم ذلك العلم بلغة غيرهم [1].

أما الألسن فلا حاجة بنا إلى معرفتها، وقد قيل: إن خمسة منها لعجز

(١) في مقدمة الغرائب للنيسابوري.

هوازن واثنين منها لقريش وخزاعة، وروي ذلك عن ابن عباس وليست الرواية عنه من رواية من يجوز الاحتجاج بنقله وذلك أن الذي روي عنه أن خمسة منها من لسان العجز من هوازن هو الكلبي عن أبي صالح، وأما الذي روى عنه أن اللسانين الآخرين لسان قريش وخزاعة فهو قتادة، وقتادة لم يقله ولم يسمع منه [١]، فهذه روايات لم يصح سندها فلا يعول عليها، أما رواية الكلبي فهي من أوهى الطرق عن ابن عباس وهي كما يقول علماء الحديث سلسلة الكذب.

أما الرواية عن قتادة فلا تقبل عنعنته؛ لأنه مدلس، قال الطبري: إن قتادة لم يلق ابن عباس ولم يسمع منه[٢].

وعلى كل حال فاللغات السبع لم ترد على سبيل التحديد ولكن لغة قريش واحدة على وجه التأكيد.

وقد يعترض على ذلك أيضاً أن عمر بن الخطاب قد اختلف مع هشام بن حكيم في قراءة القرآن وهم قرشيان ولغتهما واحدة ولهجتهما واحدة فالخلاف وقع بينهما وهما من قبيلة واحدة، ولو كان الأمر كما زعمت أن الأحرف هي اللغات لم تصح دعواك.

ويجاب على ذلك أن قراءة القرآن على لغة قريش لا يعني الاقتصار عليها، فقد يكون هشام بن حكيم القرشي قد سمع القرآن بلغة أو بلهجة أخرى فلما قرأها باللغة الأخرى استنكرها عمر؛ لأنه لم يسمعها كما سمعها هشام بل الأمر كذلك حسب الرواية أن هشام كان يقرأها على حروف كثيرة كما وردت، على

---

(١) المزهر، للسيوطي ١/ ٢١٠.

(٢) جامع البيان ١/ ٦٦.

أن هشام لم ينكر على عمر بل الذي وقع من الإنكار عمر، لأنه لم يسمع القراءة التي قرأها هشام، والتي ربما كانت قراءة إضافية عما قرأها عمر.

وبعد: فقد آن لنا أن نتساءل حول إشكال وقضية في نهاية هذا البحث أما الإشكال فناجم عن الأحرف السبعة والقراءات السبع.

وهل هما من المترادفات وأن كل واحد منهما يعني الآخر سواء بسواء، أو هما غير ذلك.

فالجواب: إنهما قطعا حقيقتان متغايرتان مختلفتان وإن تداخلتا تداخلاً طفيفاً.

أما وجه التغير والاختلاف فالحرف غير القراءة كما بينا أما وصف الاثنين بالسبعة، فالسبعة الأولى أي الأحرف السبعة ربانية المصدر حتى يعددها، فالقرآن نزل على سبعة أحرف ابتداء، أما السبعة التي هي وصف للقراءات فهي اصطلاح عند علماء القراءات، فابن مجاهد رأى أنه أشهر القراء سبعة، وهذا ما أوقع في الإشكال.

أما وجه التداخل فهو أن الأحرف السبعة ربانية كما بينا والقراءات السبع وإن كانت منسوبة إلى القراء السبعة إلا أنها ليست من وضعهم بل هم قرأوها كما نزل بها الوحي السماوي، وكما سمعت عن النبي ﷺ؛ لذا فقد عرفها العلماء بأنها اختلاف ألفاظ الوحي كما نطقها النبي ﷺ.

وأخيراً فقد عقد القرطبي فصلاً في مقدمة تفسيره وقال: هذه القراءات السبع التي تنسب للقراء السبعة ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة في القراءة بها، فالقراءات هي اختيارات أولئك الأئمة السبعة [1].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٨.

قال أبو شامة: ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن بعض الجهال[1] وبهذا الكلام رفع الإشكال.

أما القضية فهي هل القرآن الكريم الذي بين أيدينا يحوي الأحرف السبعة؟ وهل أمر عثمان بن عفان بكتابة الأحرف السبعة أو أنه أمر بإهمال ستة منها والإبقاء على حرف واحد.

قبل الإجابة نبادر؛ أولاً : لا مجال للشك فيها عند الفريقين المختلفين في وجود الأحرف السبعة، هذه الحقيقة مسلم بها عند كلا الفريقين، ألا وهي أن القرآن الكريم الذين بين أيدينا اليوم لا نقص فيه ولا زيادة على ما جمعه عثمان بن عفان وبعث به إلى الأمصار، وإن ما صنعه عثمان كان بإجماع الصحابة رضوان الله عليهم، والزاعمون بالنقص لآيات أو سور هم مارقون في دين الله تعالى أينما كانوا وأينما وجدوا.

إنما الخلاف بين العلماء في وجود الأحرف السبعة أو عدم وجودها وهل يشتمل عليها القرآن الكريم الذي بين أيدينا أو لا يشتمل.

أقول: إن مرد هذا الخلاف راجع إلى تحديد المراد بالأحرف السبعة، فالقائلون بأنها أوجه سبعة كما سبق بيانها، والقائلون بأنها سبع لغات من لغات أو لهجات القبائل العربية، هؤلاء جميعاً قالوا بوجود الأحرف السبعة في القرآن الكريم فالأوجه السبعة المذكورة بأمثلتها موجود منها ما هو متواتر في المصاحف المتعددة التي نسخها عثمان وبعث بها إلى الأمصار.

وقد احتج هؤلاء بالإجماع من قبل الصحابة على ما فعله عثمان الذي نسخ

---

(١) اللآلئ الحسان، ص١٨٣.

القرآن من المصحف عينه الذي كان موجوداً عند حفصة، وهو المصحف عينه الذي كان موجوداً عند أبي بكر، وهو عين المصحف الذي كتب أمام رسول الله ﷺ على الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن والتي عرضها النبي ﷺ مرتين في رمضان على جبريل عليه السلام.

وأما القائلون بأنها سبع لغات بمثل ما فسرها ابن جرير بأنها مترادفات سبع – اختلاف الألفاظ واتحاد المعنى – فإن هذا الفريق يرى أن الأحرف السبعة غير موجودة في القرآن، وانقل إليك كلمة ابن جرير الطبري في مقدمة تفسيره معبراً عن وجهة نظره ونظرهم أوضح تعبير.

يقول ابن جرير: (والآثار الدالة على ان إمام المسلمين وأمير المؤمنين عثمان بن عفان رحمة الله عليه جميع المسلمين نظراً منه لهم وإشفاقاً منه عليهم ورأفة منه بهم، حذار الردة من بعضهم بعد الإسلام والدخول في الكفر بعد الإيمان؛ إذ ظهر من بعضهم بمحضره، وفي عصره التكذيب ببعض الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن مع سماع أصحاب رسول الله ﷺ النهي عن التكذيب بشيء منها وإخباره إياهم أن المراء فيها كفر، فحملهم رحمة الله عليه إذ رأى ذلك ظاهراً بينهم في عصره وبحداثة عهدهم بنزول القرآن وفراق رسول الله ﷺ إياهم بما أمن عليهم معه عظيم البلاء في الدين من تلاوة القرآن على حرف واحد، وجمعهم على مصحف واحد أو حرف واحد، وحرق ما عدا المصحف الذي جمعهم عليه، عزم على كل من كان عنده مصحف مخالف المصحف الذي جمعهم عليه، أن يحرقه فاستوثقت له الأمة على ذلك بالطاعة، ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية، فتركت القراءة بالأحرف الستة التي عزم عليها إمامها العادل في تركها طاعة منها له، ونظراً منها لأنفسها ولمن بعدها من سائر

أهل ملتها حتى درست من الأمة معرفتها، وتعفت آثارها فلا سبيل لأحد اليوم إلى القراءة بها)[١].

ثم يقول: (فلا قراءة اليوم للمسلمين إلا بالحرف الواحد الذي اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية)، وابن جرير بعد هذا الكلام يرد على اعتراض مفترض فيقول: (وكيف جاز لهم ترك قراءة أقرأهموها رسول الله ﷺ وأمرهم بقراءاتها؟) يجيب على ذلك (قيل إن أمره إياهم بذلك لم يكن أمر إيجاب وفرض وإنما كان أمر إباحة ورخصة؛ لأن القراءة بها لو كانت فرضاً عليهم لوجب أن يكون العلم بكل حرف من تلك الأحرف فرضاً وليس الأمر كذلك)[٢].

وقد لاقى الإمام الطبري معارضة قوية عند الأقدمين والمحدثين وقد تكلم الزرقاني كلاماً طويلاً في الرد على من قالوا إن الباقي الآن حرف من السبعة التي نزل بها القرآن، أما الستة الأخرى فقد ذهبت ولم يعد لها وجود ألبتة، ونسوا أو تناسوا تلك الوجوه المتنوعة القائمة في القرآن على جبهة الدهر إلى اليوم، ثم حاولوا أن يؤيدوا ذلك فلم يستطيعوا أن يثبتوا للأحرف الستة التي يقولون بصياغتها نسخاً ولا رقماً، وأسلمهم هذا العزم إلى ورطة أخرى، هي دعوى إجماع الأمة على أن تثبت على حرف واحد، وأن ترفض القراءة بجميع ما عداه من الأحرف الستة، وأنى يكون لهم هذا الإجماع ولا دليل عليه؟ هنالك احتالوا على إثباته بورطة ثالثة، وهي القول بأن استنساخ المصاحف في زمن عثمان رضي الله عنه كان إجماعاً من الأمة على ترك الحروف

---

(١) جامع البيان ١/ ٢١.

(٢) جامع البيان ١/ ٢٢.

الستة، والاقتصار على حرف واحد هو الذي نسخ عثمان المصاحف عليه، وقصارى ما استطاعوا أن يسوغوا به مذهبهم وتورطاتهم هذه، أن الأمة على عهد عثمان رضي الله عنه قد اختلفت في قراءات القرآن إلى حد جعلهم يتنازعون ويترامون بتكفير بعضهم بعضاً، حتى خيف الفتنة، فرأى الصحابة بقيادة خليفتهم الحكيم عثمان رضي الله عنه أن يعالجوا المشكلة ويطفئوا الفتنة، وبهذه الطريقة جمع الناس على حرف واحد، ونسخ المصاحف على حرف واحد وإهمال كل ما عداه من الحروف والمصاحف المنسوخة عليها.

وهذا – لعمرك – استناد مائل واحتجاج باطل فقد تنازع الناس على عهد الرسول ﷺ أيضاً في قراءات القرآن على حروف مختلفة، ومع ذلك أقرهم الرسول على هذه الحروف المختلفة، وقررها فيهم، وحملهم على التسليم بها في أساليب متنوعة وجعل ذلك هو الحل الوحيد لمشكلتهم، والعلاج الناجح لنزاعهم وأفهمهم أن تعدد وجوه القراءة إنما هو رحمة من الله بهم، وقرر في صراحة وهو يسأل مولاه المزيد من عدد الحروف أن الأمة لا تطيق حصرها في مضيق حرف واحد، وقال: "إن أمتي لا تطيق ذلك" إلى آخر ما عرفت، وأنت خبير بأن محمد ﷺ باقية إلى يوم القيامة وهي لا تطيق ذلك كما قرر رسولها المعصوم الرحيم صلوات الله وسلامه عليه كما نشاهد نحن الآن من أن بعض الألسنة في بعض الشعوب الإسلامية، لا يتيسر لها أن تحسن النطق ببعض الحروف ولا بعض اللهجات دون بعض، فكيف يسوغ للصحابة وهم خير القرون، إن يعلقوا باب الرحمة والتخفيف الذي فتحه الله لأمة الإسلام مخالفين في ذلك هدي الرسول عليه الصلاة والسلام في عمله للتخفيف بطلب تعدد الحروف، وعلاجه للنزاع بين المختلفين بتقرير هذا التعدد للحروف؟

إلا أنه ثغرة لا يمكن سدها، وثلمة يصعب جبرها، وإلا فكيف يوافق أصحاب رسول الله ﷺ على ضياع ستة أحرف نزل عليها القرآن دون أن يبقوا

عليها مع أنها لم تنسخ ولم ترفع؟ وعلى حين أن الرسول ﷺ قرر بقوله وفعلهن أنه لا يجوز لأحد أياً كان أن يمنع أحداً أياً كان من القراءة بحرف من السبعة أياً كان، فقد صوب قراءة كل من المختلفين وقال لكل: "هكذا نزلت" وضرب في صدر أبي بن كعب حين استصعب عليه التسليم بهذا الاختلاف في القراءة.

وقصارى القول بأننا نربأ بأصحاب الرسول ﷺ أن يكونوا قد وافقوا أو فكروا فضلاً عن أن يتآمروا على ضياع أحرف القرآن الستة دون نسخ لها.

وحاشى لعثمان رضي الله عنه أن يكون قد أقدم على ذلك وتزعمه، وكيف ينسب إليه هذا؟

والمعروف أنه نسخ المصاحف التي جمعت على عهد أبي بكر رضي الله عنه قبل ان يدب النزاع في أقطار الإسلام بسبب اختلاف حروف القراءة في القرآن فكانت تلك الصحف محتملة للأحرف السبعة جميعاً، ضرورة أنه لم يحدث وقتئذ من النزاع والشقاق ما يدعو إلى الاقتصار على حرف واحد في رأيهم، ولم يثبت أن الصحابة تركوا من الصحف المجموعة على عهد أبي بكر حرفاً واحداً فضلاً عن ستة أحرف ولو كان ذلك لنقل إلينا متواتراً، لأنه مما تتوافر الدواعي على نقله.

ثم كيف يفعل عثمان رضي الله عنه ذلك وهو الذي عرف أن علاج الرسول لمثل هذا النوع الذي دب في زمان، كان بجمع الناس وتقريرهم على الحروف السبعة لا بمنعهم عنها كلاً ولا بعضاً.

ثم كيف يفعل عثمان ذلك، وتوافقه الأمة، ويتم الإجماع؟ ثم يكون خلاف في معنى الأحرف السبعة مع قيام هذا الإجماع؟

أي كيف تجمع الأمة على ترك ستة أحرف وإبقاء حرف واحد ثم يختلف العلماء في معنى الأحرف السبعة على أربعين قولاً، ويكادون يتفقون – رغم

خلافهم هذا – على أن الأحرف السبعة باقية، مع أن الإجماع حجة عند المسلمين، وبه ينجلي ظلام الشك عن وجه اليقين.

ولنفرض جدلاً أن نزاع المسلمين في أقطار الأرض أيام خلافة عثمان رضي الله عنه، قضى عليه أن يجمع المسلمين على حرف واحد في القراءة، فلماذا لم تسمح نفسه الكريمة بإبقاء الستة الأحرف الباقية للتاريخ لا للقراءة، مع أن الضرورة تقدر بقدرها، وهذه الستة أحرف لم تنسخ لا تلاوة ولا حكماً حتى تذهب بجرة قلم كذلك، ثم يبخل عليها بالبقاء للتاريخ وحده في أعظم مرجع، وأقدس كتاب، وهو القرآن الكريم [1].

(١) مناهل العرفان، ص١٦٩-١٧٠.

المبحث الرابع

القراءات القرآنية

أولاً: تعريف القراءات:

معناها اللغوي: القراءات جمع قراءة، وهي مصدر من قرأ يقرأ قراءة وقرآناً، واسم الفاعل منه قارئ وجمعه قراء.

ويطلق لفظ قرأ ويراد منه عدة معان فإذا قلت: قرأت القرآن معناه لفظت به مجموعاً أي ألقيته، وأقرأت حاجتك إذا دنت، وقرأت الشيء إذا جمعته وضممت بعضه إلى بعض.

معناها الاصطلاحي: قال الزركشي: القراءات اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرها [١].

أما ابن الجزري فعرفها: (بأنها علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة)[٢].

وهذا التعريف اعتمده كثير من المؤلفين في علم القراءات.

وهناك من عرف القراءات بأنها مذهب يذهب إليه المقرئ وهو إن كان مقصوده ما ذهب إليه العلماء أن مبنى ما ذهب إليه القارئ هو الوحي والسماع إلا أن المستشرقين قد جعلوا من مثل هذا التعريف مأرباً خبيثاً للصيد في الماء العكر، إذ رأوا أن اختلاف القراءات مبناه اختلاف القراء وفق هواهم

---

(١) البرهان في علوم القرآن، ١/ ٣١٨.

(٢) ابن الجزري هو الحافظ أبو الخير الدمشقي توفي سنة ٨٣٣هـ.

ومعتقداتهم وراحوا يقيسون اختلاف الأناجيل على اختلاف الروايات في القراءات [١].

ومع كل الأسف فقد وجدنا ممن شايعهم من ذهب إلى مثل أقوالهم، ولعل في تعريف الزركشي ما أجلى هذه الحقيقة وما يبعد هذه الشبهة؛ إذا قال عن القراءات واختلافها إنها اختلاف ألفاظ الوحي فهذا التعريف يلقي الضوء على أن مبنى القراءات الوحي النازل من السماء، وقد تبعه علماء القراءات – قديماً وحديثاً – في تجلية هذه الحقيقة، فجاءوا بتعريفات واضحة وناصعة، فعرّفوا القراءات (بأنها النطق بألفاظ القرآن كما نطقها النبي ﷺ).

ومثل هذا التعريف (تلاوة ألفاظ القرآن الكريم كما تلاها المصطفى ﷺ أو كما علمها أو سمعها منه أصحابه وأقرهم عليها)[٢]، وكلها تعريفات قريبة مما ذكره الزركشي، فاختلاف ألفاظ الوحي هي مثل النطق بألفاظ القرآن كما نطقها النبي ﷺ ومثل تلاوة القرآن كما تلاها النبي ﷺ وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾[٣].

نشأة القراءات:

هذا العنوان الذي يستعمله كثير من المؤلفين عن حسن قصد، ويؤكده المستشرقون لغرض في نفوسهم، فيه نظر ذلك أن القراءات المتواترة قرآن لا شك فيه، فقوله: ﴿مالك يوم الدين﴾ و﴿مَلِك يوم الدين﴾ بالألف وبدونها،

---

(١) انظر: المذاهب الإسلامية لجولد زيهر، ص٥٣.

(٢) إتحاف الفضلاء، ص٥.

(٣) سورة النجم، الآية: ٣.

و﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ و﴿اهدنا السراط المستقيم﴾ بسينها وصادها، وكل قراءة قرآنية متواترة، كل ذلك قرآن وهو قديم فلا يقال لقراءة منه نشأت لأن ذلك يشعر الحداثة لبعضها في وقت من الأوقات.

لذا أرى في استعمال المؤلفين المخلصين هذا العنوان تجاوزاً – إن صح التعبير – وأرى في استعمال المستشرقين له مقصداً خبيثاً، ونحن قد رأينا فيما أومأنا إليه سابقاً من تعريف للقراءات بأنها اختلاف ألفاظ الوحي، مما يشير إلى أن القراءة قرآن لا تنفك قرآنيتها عنه ما دامت قد تواترت، فلا يقال لها ناشئة إلا إذا قيل للقرآن ناشئاً، وليس الأمر كذلك فقد نزل الوحي بالقراءة فيما ورد في بعض ألفاظه أكثر من قراءة، بل حين بدأ نزول الوحي بدأها بأول كلمة في أول سورة نزلت هي (اقرأ) ففيها قراءتان متواتران:

الأولى: هي قراءة الجمهور بهمزة ساكنة.

والثانية: قراءة شعبة عن عاصم من طريق طيبة النشر بحذف الهمزة[1] (اقرا يقرا كسعى يسعى)، وأنه لأمر يسترعي الانتباه أن تكون أول كلمة في أول سورة نزلت كلمة اقرأ وأن يكون القرآن والقراءات مشتقاً من مشتقاتها.

بعد هذا التمهيد أرى أن الحديث عن مصدر القراءات هو الحاسم لكثير من الشبه والأضاليل التي يتمسك بها المستشرقون والتي كان لأقوال بعض المفسرين وبعض العلماء قدر غير يسر في الإسهام مد أولئك الملحدين بشيء من أسباب الضلالة من غير قصد منهم رحمهم الله لما لم يلزموا جانب الحيطة والحذر وأقصى غايات الحذر في هذا الأمر الجلل، فقد أمدوا – من حيث لا يشعرون – من في قلبه مرض واستعداد طبيعي لاتخاذ كل شاردة وواردة من

(١) معجم القراءات للخطيب ١٠: ٥٠١ .

القول صيداً ثميناً، وفرصة ذهبية للنيل من مقدسات هذه الأمة وقرآنها.

أقول: إن المصدر الوحيد للقراءات، إنما هو الوحي النازل من السماء إلى النبي عليه الصلاة والسلام الذي بلغه بكل دقة وبكل حركة إلى أصحابه الكرام، فكان يقرئهم إياه كما نزل كما روى ابن مسعود أن النبي ﷺ كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، فإذا ما علمهم القرآن فأتقنوا تلاوته حتى أن يسمعه منهم توثيقاً لما سمعوه عنه.

روى البخاري ومسلم عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: قال لي رسول الله ﷺ: "اقرأ علي القرآن"، فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزِل، قال: "إني أحب أن أسمعه من غيري"، فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[1]. قال: "حسبك الآن"، فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان. فالنبي ﷺ كان يتعهد أصحابه بتعليم القرآن وحفظه حتى أصبحت صدورهم سجلاً لما نزل من الحق، وربما علَّم النبي – عليه الصلاة والسلام – بعض أصحابه قراءة لم يسمعها بعض أصحابه، فيقرأ بعضهم القرآن على القراءة التي سمعها، ويقرأ آخر على قراءة غيرها سمعها من النبي ﷺ فيسمع أحدهما الآخر فينكر عليه عدم سماعه لها من الرسول ﷺ.

ففي البخاري ومسلم أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال: سمعت

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤١، والحديث في صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد .. الآية)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن، وطلب القراءة من حافظ للاستماع، والبكاء عند القراءة والتدبر ١/ ٥٥١.

هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة النبي ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فانتظرته حتى سلم، ثم لببته بردائه أو بردائي، فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ، قلت له: كذبت، فوالله إن رسول الله ﷺ أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرؤها، فانطلقت أقوده إلى رسول الله صلى عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها، وأنت أقرأتني في سورة الفرقان فقال رسول الله ﷺ: (أرسله يا عمر، اقرأ يا هشام، فقرأ هذه القراءة التي سمعته يقرؤها، قال رسول الله ﷺ: "هكذا نزلت" ثم قال: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه"[1].

وروى مسلم عن أبي بن كعب قال: (كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه، ودخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله ﷺ فقرآ، فحسَّن النبي ﷺ شأنهما ..) الحديث[2].

فمن حديث عمر وهشام رضي الله عنهما يتبين لنا أن تعدد القراءات سببه واحد هو أن رسول الله ﷺ أقرأ كلاً منهما على قراءة، وكلتا القراءتين أنزلت من عند الله تعالى.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه ١/ ٥٦٠.

(٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف ١/ ٥٦١.

ومن حديث أبي بن كعب – رضي الله عنه – أن عدد القراءات ثلاث وكلها حسنها رسول الله ﷺ؛ لأنها متلوة من الوحي، جعلها الله من باب التهوين والتسهيل على أمته.

يقول الشيخ الزرقاني – رحمه الله –: ثم إن الصحابة –رضوان الله عليهم – قد اختلف أخذهم عن رسول الله ﷺ؛ فمنهم من أخذ القرآن عنه بحرف واحد، ومنهم من أخذه عنه بحرفين، ومنهم من زاد، ثم تفرقوا في البلاد وهم على هذه الحال، فاختلف سبب ذلك أخذ التابعين عنهم وأخذ تابعي التابعين وهلم جرا، حتى وصل الأمر على هذا النحو إلى الأئمة القراء المشهورين الذين تخصصوا وانقطعوا للقراءات يضبطونها ويعنون بها وينشرونها [1].

إذن فالأمر في تعدد القراءات إنما هو أخذ ونقل من الوحي فلا يجوز لمسلم أن يعزو أية قراءة لغير ذلك، كما صنع المستشرق (جولد زيهر) وغيره من المستشرقين فإن الذين عزوا القراءات إلى القارئين الذين مارس كل منهم القراءة القرآنية ليصحح القرآن، وأن القارئ يقرأ وفق ما يحتمله الرسم القرآني من النقط والشكل.

يقول جولد زيهر: وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات – أي في القراءات – إلى خصوصية الخط العربي الذي يقدم هيكله مقادير صوتية مختلفة، تبعاً لاختلاف النقط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته، وعدد تلك النقاط، بل كذلك في حالة تساوي المقادير الصوتية يدعو اختلاف الحركات الذي لا يوجد في الكتابة العربية الأصلية ما يحدده، إلى اختلاف مواقع الإعراب للكلمة، وبالتالي إلى اختلاف دلالتها، وإذاً فاختلاف تحلية هيكل الرسم

(١) مناهل العرفان ١/ ٤٠٦.

بالنقط، واختلاف الحركات في المحصول الموحّد القالب من الحروف لم يكن منقوطاً أصلاً، أو لم تتحر الدقة في نقطة أو تحريكه [١].

وقد أرجع الدكتور عبدالعال سالم أساس هذا الزعم إلى الزمخشري وقال: إن مصدر الوحي لهذا المستشرق جولد زيهر إنما هو الزمخشري الذي قال بخطأ ابن عامر في قراءته للآية القرآنية [٢].

فقد زعم الزمخشري أن الذي حمل ابن عامر على قراءته أنه رأى في بعض المصاحف (شركائهم) مكتوباً بالياء، والسبب هو الرسم. اهـ.

أقول: ونحن إذ نضع في الاحتمال أن يكون للزمخشري أثر في قول زيهر إلا أننا نجزم أن مراد كل منهم يختلف عن الآخر إذ يهدف زيهر للوصول إلى قياس تعدد القراءات على تعدد الأناجيل وهذه خطيئة ما نظن أن الزمخشري يقع في مثلها.

وفي ضوء دراسة هذه الردود يمكن إيجازها في الأمور التالية:

أولاً: إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب، فإن القراءات وجدت قبل مرحلة تدوين المصاحف وكتابتها، وبعد تدوينها كانت في البداية غير منقوطة ولا مضبوطة الشكل ومع ذلك كانت القراءات معروفة ومنتشرة وكانوا يقرأون حسب السماع والرواية لا حسب الرسم والكتابة.

ثانياً: لو كانت القراءة تابعة للرسم لصحت كل قراءة يحتملها رسم المصحف، ولكن الأمر على غير ذلك، فإن بعض ما يحتمل الرسم صحيح مثل

---

(١) مذاهب التفسير ص٨.

(٢) أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية ص٢٥.

(فتثبتوا) في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ﴾[١].

وبعضه مردود مثل قراءة حماد الراوية (أباه) في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾[٢] الآية.

وكذلك قراءة: (يستكثرون) في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[٣].

وهذه وتلك قراءة منكرة بالاتفاق فليست من السبع ولا الأربع عشرة ولو كان مجرد الخط والرسم كافياً لاعتمدت.

وعلى مثل هذه القراءات المنكرة اعتمد جولد زيهر في الاستدلال على قضيته الباطلة ودعواه الخبيثة ضد القرآن الكريم.

ثالثاً: لقد ثبت بالتاريخ الصحيح أننا لا نزال نرى الكثير من المقرئين حتى يومنا هذا يعطون تلاميذهم بعد أن يتموا حفظه على أيديهم إجازة تتضمن سند التلقي المتصل عنهم إلى النبي ﷺ وأن كثيراً من الأسانيد الصحيحة المتصلة مدونة محفوظة في كتب القراءات فما ينكر هذا إلا جاهل أو مكابر.

كذلك إذا نظرنا إلى الأمصار الإسلامية وجدنا أن كل مصر التزام قراءة قارئ بعينه مع احتمال رسم المصحف لهذه القراءة، وأن القراء انتشروا في هذه الأمصار ليعلموا الناس قراءة القرآن إيماناً منهم بأن المصحف وحده لا يغني شيئاً في مجال القراءة وخاصة أنه مجرد من النقط والشكل.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٨.

يقول الشيخ الزرقاني: لذلك اختار عثمان حفاظاً يثق بهم وأنفذهم إلى الأقطار الإسلامية، واعتبر هذه المصاحف أصولاً ثواني مبالغة في الأمر وتوثيقاً في القرآن ولجمع كلمة المسلمين، فكان يرسل إلى كل إقليم مصحفه مع من يوافق قراءته في الأكثر الأغلب، روي أن عثمان – رضي الله عنه – أمر زيد بن ثابت أن يقرأ بالمدني، وبعث عبدالله بن السائب مع المكي، والمغيرة بن شهاب مع الشامي، وأبا عبدالرحمن السلمي مع الكوفي، وعامر بن عبدالقيس مع البصري [١].

فلو كان الاعتماد على المصحف لما كلف أمير المؤمنين نفسه بإرسال أولئك القراء إلى تلك الأمصار، وملاحظة أن اختيار القارئ كان موافقاً لرسم المصحف المرسل إلى ذلك البلد، وهذا يؤكد أن دعامة القرآن هي التلقي والرواية.

وإذا كان للمستشرقين في تعصبهم للداخل وحقدهم الدفين ضد الإسلام وسيادته، فما عذر من جاراهم من المسلمين وقال: بأن القراءات القرآنية منشؤها الخط العربي حسب رسمها في المصحف العثماني ومن هؤلاء الدكتور علي عبدالواحد وافي [٢]، وتبعه في ذلك الدكتور طه حسين في صورة أكثر بشاعة وأشد خطراً؛ إذ هو ينكر على المعتقد بشرعية القراءات وأنها ليست من الوحي وإنما مصدرها اللهجات واللغات.

يقول طه حسين: والحق أنه ليست هذه القراءات السبع من الوحي في قليل ولا كثير، وليس منكرها كافراً ولا فاسقاً ولا مغتمزاً في دينه، وإنما هي

---

(١) المناهل ١/ ٩٦.

(٢) فقه اللغة ص١١٩.

قراءات مصدرها اللهجات واختلافها [١].

وقد نهج الدكتور محمد عبدالسلام كفافي نهج طه حسين فقال: وهناك سبب قوي لظهور القراءات لأن مصحف عثمان كتب بغير نقط ولا شكل[٢].

والحق الذي لا يمارى فيه أن القراءات سنة متبعة نقلت بالرواية من فِيَّ رسول الله ﷺ وهي قرآن لا تنفك عنه، وهي ليست مغايرة بل هي ألفاظ مختلفة نزل بها الروح الأمين بعرضات متعددة، ولم تكن القراءات وليد خط أو رسم أو عدم شكل وضبط لكتاب الله تعالى ومن يقول بهذا فهو ضال مضل لسوء نيته وخبث قصده سواء كان (جولد زيهر) أو من سار على دربه، والذي يمعن النظر في كلام زيهر مثلاً يجد له أبعاداً وأهدافاً، وقد استوفيناه في بحث خاص بالقراءات، نشر في مجلة البحوث الإسلامية بالرياض، العدد (٣٥)، ويحول منهج الدراسة عن الكلام بأكثر مما قلناه.

أركان القراءات:

يجدر التنويه لأمر، وهو أن ركن القراءة الوحيد هو صحة السند لا غير وأن إضافة الركنين الأخيرين لم يأت إلا في وقت متأخر كما ذكره الأستاذ سعيد الأفغاني في تحقيقه لكتاب حجة القراءات لأبي زرعة وقد وصف السفاقسي اشتراط غير صحة السند بأنه قول محدث لا يعول عليه.

بعد هذا التنويه والتنبيه نقول: إن كان الحديث عن القراءات ومعناها قد كثر فيه الخلاف والاختلاف بين أئمة هذا العلم، فإن الحديث عن أركانها أكثر

---

(١) الأدب الجاهلي ص٩٦.

(٢) في علوم القرآن ص١٠٧.

اختلافاً، فبعضهم يشترط لقبول القراءة أركاناً ثلاثة، ومنهم من يكفي بركنين، ومنهم من يقتصر على ركن واحد، والقائلون بالأركان الثلاثة يتفاوتون في الأخذ بكل ركن منها، وسأضع بين يديك هذه الأركان كما نظمها أحد أئمة هذا الشأن شعراً فقال:

فكل ما وافق وجه نحو وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصح إسناداً هو القرآن فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبت شذوذه ولو أنه في السبعة [1].

فهذه الأركان الثلاثة وسأبدأ بأهمها بل المجمع على اشتراطه ألا وهو:

١ -صحة السند:

هذا أول الأركان المعتبرة بل هو الذي يستهل به العلماء حديثهم عن أركان أو شروط القراءات.

فابن مجاهد شيخ هذه الصنعة -إذ هو أول من سبع السبعة- قد قال: (والقراءة التي عليها الناس بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام هي القراءة التي تلقوها عن أوليهم تلقيناً، وقام بها في كل مصر من هذه الأمصار رجل ممن أخذ من التابعين أجمعت الخاصة والعامة على قراءته، وسلكوا فيها طريقه وتمسكوا بمذهبه)[2]. فلا يمكن اعتبار القراءة القرآنية إلا إذا كانت قد أخذت بطريق التلقي والمشافهة وهذا ما يؤكده في موضع آخر إذ يقول: (فهؤلاء سبعة نفر من أهل الحجاز والعراق والشام خلفوا في القراءة التابعين وأجمعت على

(١) من منظومة ابن الجزري في كتابه النشر.

(٢) كتاب السبعة، ص٤٩.

قراءتهم العوام من أهل كل مصر من هذه الأمصار. فابن مجاهد يشترط لقبول القراءة صحة السند وإلى ذلك ذهب جمهور العلماء المحققين كابن شنبوذ والإمام أبو الحسن البغدادي وابن خالويه ومكي بن أبي طالب والإمام الكواشي والإمام أبو شامة)[1].

ولم يشذ عن إجماع هؤلاء العلماء إلا محمد بن يعقوب المتوفى سنة ٣٥٤هـ. فإنه لم يشترط السند واكتفى بقبول القراءة بشرطين: موافقة الرسم وموافقة اللغة العربية، وأسقط صحة السند، وفي ذلك يقول ابن الجزري: (وله (أي المذكور) اختيار في القراءة رويناه في الكامل وغيره رواه عنه أبو الفرج الشنبوذي ويذكر عنه أنه كان يقول: إن كل قراءة وافقت المصحف ووجها في العربية فالقراءة بها جائزة وإن لم يكن لها سند)[2].

والحق أن هذه هفوة من الهفوات التي لا يرتضيها شرع ولا عقل وهي من أفسد الأقوال، فالقراءات قد تزداد وتنقص وفق احتمال موافقتها للغة أو للرسم القرآني، وبالتالي فهي وفق هوى واجتهاد أئمة اللغة وليس الأمر كذلك.

٢-موافقة القراءة للرسم العثماني:

ذهب كثير من العلماء المتأخرين إلى اعتبار هذا الشرط وقد ذكره أبو الفرج الشنبوذي أول الشروط المعتبرة إذ يقول: إن كل قراءة وافقت رسم المصحف ووجهاً في العربية فالقراءة فيها جائزة.

ويفهم مما ورد في (كتاب السبعة في القراءات) عدم اشتراطه إذ يقول:

---

(١) المرشد الوجيز، ص١٨٠.

(٢) غاية النهاية، لابن الجزري، ٢/ ١٢٤.

(فمن حملة القرآن المعرب العالم بوجوه الإعراب والقراءات، العارف باللغات ومعاني الكلمات، البصير بعلم القراءات المنتقد للآثار، فذلك الإمام الذي يفزع إليه حفاظ القرآن في كل مصر من أمصار المسلمين)[1].

فهذا الكلام يدلنا على شرطين لا ثالث لهما: وهما صحة السند وموافقة العربية وأسقط موافقة الرسم وذهب إلى ذلك الإمام أبو الحسن البغدادي شيخ القراء بالعراق فأسقط موافقة القراءة للرسم العثماني.

وقد توسع بعض العلماء في موافقة القراءة للرسم العثماني، فرأى احتمال الموافقة كافياً، بل توسع بعضهم فرأى موافقة القراءة للرسم وحده وإن لم تتواتر.

ونحن إذ نرد القراءة التي لم توافق الرسم إلا أننا نقبلها لمجرد موافقتها الرسم.

٣-موافقة القراءة للغة:

ابتدأ بذكره صاحب النشر فجعله أول الشروط، وثنى بذكره مكي بن أبي طالب والإمام الكواشي وجعله ثاني الشروط بعد صحة السند، وقد قيد كل منهم هذا الشرط بقيد يختلف عن الآخر، فبينما يكتفي الكوائي بشرط موافقة القراءة للغة لأي وجه من الوجوه، نرى مكي بن أبي طالب والإمام الكواشي وجعله ثاني الشروط بعد صحة السند، وقد قيد كل منهم هذا الشرط بقيد يختلف عن الآخر، فبينما يكتفي الكواشي بشرط موافقة القراءة للغة لأي وجه من الوجوه، نرى مكي بن أبي طالب يشترط أن يكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن شائعاً.

---

(١) كتاب السبعة، ص٤٥.

وذهب أبو الفرج الشنبوذي إلى تأييد رأي الكواشي في التساهل والاكتفاء بموافقة القراءة لأي وجه من الوجوه اللغوية؛ سواء أكان الوجه فصيحاً مجمعاً عليه أم كان مختلفاً فيه اختلافاً لا يصير مثله كما يقولون.

نظرة في الأركان:

لو تأملنا هذه الأركان لوجدناها أركاناً تخضع لاستقراء العلماء واستنباطهم، فمنهم من جعلها ركناً واحداً، ومنهم من جعلها ركنين مع اختلاف في تحديد الركنين، ومنهم من جعلها ثلاثة أركان وأضاف الموافقة للغة، وفي كل شرط خلاف، ففي السند: من العلماء من ذهب إلى اشتراط التواتر، ومنهم من اشترط الشهرة، ومنهم من اكتفى بصحة السند ولو نقل آحاداً.

وفي موافقة الرسم: منهم من اشترط الموافقة تحقيقاً ومنهم من قبلها ولو تقديراً أو احتمالاً، وفي موافقة اللغة كلام استوفيناه في موضعه.

والذي لا شك فيه بل المجمع عليه هو صحة السند بل أرى أنه الركن الوحيد الذي ينبغي أن يقتصر عليه، والذي أعنيه بصحة السند ليس مجرد الصحة بل التواتر، وذلك لأن القرآن كله متواتر لا يشك في ذلك مسلم من المسلمين، وقراءته يتعبد بتلاوتها المؤمنون، وقراءاته المختلفة لا ضير بالاكتفاء ببعضها؛ لأنها كلها قرآن فأرجلَكم من قوله تعالى: ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾[1] قرآن. وأرجلكم بالكسر في الموضع نفسه قرآن، و﴿مالك يوم الدين﴾ إن قرأت بهذه القراءة قرآن، و﴿ملك يوم الدين﴾ قرآن، إن شئت قرأت بهذه أو بتلك فالقراءة قرآن يتعبد بتلاوته فلابد من تواترها لإثبات

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

قرآنيتها.

أما القراءة التي لم تتواتر سنداً فلا تعتبر قراءة مهما أضفت إليها من معايير وشروط، وقد أخطأ من حكم بقرآنيتها إذا وافقت الرسم ووافقت اللغة، وأنزلها منزلة التواتر في السند.

إن التواتر لا يكون إلا بالسند الذي يرويه جمع عن جمع ... إلخ إذا وضح عندنا صحة اعتبار تواتر السند فلا ضير علينا في الركنين الأخيرين؛ لأنه لم يثبت لدينا أن قراءة من القراءات المتواترة قد خالفت الرسم العثماني، أو خالفت العربية، ودع عنك ما يقال إن بعض القراءات المتواترة قد خالفت العربية كما زعموا في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾[1]. بالكسر أو قراءة ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾[2] بالتسكين فإن كلام النحاة الذين خالفوا كلام القراء لا يستند إلى دليل.

أعود لأقول إن شرط القراءة أو ركنها الوحيد هو صحة السند وتواتره، ولا ثاني له والله أعلم.

يقول الأستاذ سعيد الأفغاني: (والشرط الأساسي كما يظهر للمتأمل هو الأول أي صحة السند، أما الثاني والثالث فالغالب أنهما أضيفا ليتكون من الثلاثة ما ينطبق تمام المطابقة على القراءات العشر المعروفة، ثم أضاف أن أول وأشهر من عرفه عنه اشتراط الشروط الثلاثة هو (مكي بن أبي طالب) الذي عاش في المائة الخامسة للهجرة منذ قال: والقراءات الصحيحة ما صح سندها إلى رسول الله ﷺ، وما صح وجهها في العربية، ووافقت خط المصحف، وشاع

---

(١) سورة النساء، الآية: ١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٤.

هذا القول بعده حتى تبعه في ذلك بعض المتأخرين، ومشى عليه ابن الجزري في نشره وطيبه واستنكر الجمهرة ذلك، حتى قال السفاقسي: وهذا قول محدث لا يعول عليه).

أشهر القراء من الصحابة:

المشهورون من الصحابة بإقراء القرآن هم: عثمان، وعلي، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري، وسائر أولئك الذين أرسلهم عثمان بالمصاحف إلى الآفاق الإسلامية.

أشهر القراء من التابعين:

بالمدينة النبوية: ابن المسيب، وعروة، وعمر بن عبدالعزيز، وسليمان بن يسار وأخوه عطاء، وزيد بن أسلم، ومسلم بن جندب، وابن شهاب الزهري، وعبدالرحمن بن هرمز، ومعاذ بن الحارث المشهور بمعاذ القارئ.

بمكة المكرمة: عطاء، ومجاهد، وطاووس، وعكرمة، وابن أبي مليكة، وعبيد بن عمير، وغيرهم.

بالبصرة: عامر بن عبدالقيس، وأبو العالية، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وجابر بن زيد، والحسن، وابن سيرين، وقتادة وغيرهم.

بالكوفة: علقمة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، والربيع بن خيثم، والحارث بن قيس، وعمر بن شرحبيل، وعمرو بن ميمون، وأبو عبدالرحمن السلمي، وزر بن حبيش، وعبيد بن فضلة، وأبو زرعة بن عمرو، وسعيد بن جبير، والنخعي، والشعبي.

بالشام: المغيرة بن أبي شهاب المخزومي صاحب مصحف عثمان، وخليد بن سعيد صاحب أبي الدرداء وغيرهما.

ثم تفرغ قوم للقراءات يضبطونها ويعنون بها، فكان بالمدينة أبو جعفر زيد

بن القعقاع ثم شيبة بن نصاح ثم ناصح بن أبي نعيم.

وكان بمكة: يحيى بن وثاب، وحميد بن قيس الأعرج، ومحمد بن محيصن.

وكان بالبصرة: عبدالله بن إسحاق، وعيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء، وعاصم الجحدري، ثم يعقوب الحضرمي.

وكان بالشام: عبدالله بن عامر، وعطية بن قيس الكلالي، وإسماعيل بن عبدالله بن مهاجر، ثم يحيى بن الحارث الذماري، ثم شريح بن يزيد الحضرمي، وقد لمع في سماء هؤلاء القراء نجوم عدة مهروا في القراءة والضبط حتى صاروا في هذا الباب أئمة يرحل إليهم ويؤخذ عنهم.

القراء السبعة وغيرهم:

لا يفوتنا أن نذكر إليك القراء السبعة الذين عناهم ابن مجاهد الذي هو أول من سبّعهم كما يذكر القراء العشرة الذين عناهم ابن الجزري في كتابه النشر في القراءات العشر ثم نذكر الأربعة المتممين للأربعة عشر.

القراء السبعة:

١ - **نافع**: هو أبو رويم نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم المدني. أخذ القراءة عن أبي جعفر القارئ وعن سبعين من التابعين الذين أخذوا عن عبدالله بن عباس وابي هريرة، وعن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ، وانتهت إليه رياسة الإقراء بالمدينة المنورة، توفي سنة ١٦٩هـ.

وأشهر تلاميذه قالون وورش.

٢-**ابن كثير**: هو أبو محمد أو أبو معبد عبدالله بن كثير الداري، كان إمام الناس في القراءة بمكة. لقي من الصحابة عبدالله بن الزبير وأبي أيوب الأنصاري وأنس بن مالك. وروى عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ وقرأ على عبدالله بن السائب المخزومي، وقرأ عبدالله هذا

على أبي بن كعب وعمر بن الخطاب وكلاهما قرأ على رسول الله ﷺ وتوفي سنة ١٢٠هـ.

وأشهر تلاميذه البزي وقنبل.

٣-**أبو عمرو البصري**: هو أبو عمرو زيان بن العلاء بن عمار البصري، روى عن مجاهد بن جبر وسعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ، قرأ على جماعة منهم أبو جعفر وزيد بن القعقاع والحسن البصري، وقرأ الحسن على حطان وأبي العالية، وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب، توفي أبو عمرو سنة ١٥٤هـ.

وأشهر تلاميذه إسماعيل بن جعفر ومالك بن أنس.

٤-**ابن عامر الشامي**: هو عبدالله اليحصبي يكنى أبا نعيم وأبا عمران، وهو تابعي ثقة لقي وائلة بن الأسقع والنعمان بن بشير، وقد أخذ القراءة عن المغيرة بن أبي شهاب المخزومي عن عثمان بن عفان عن رسول الله ﷺ، وقيل: إنه قرأ على عثمان نفسه، توفي بدمشق سنة ١١٨هـ.

٥-**عاصم الكوفي**: هو أبو بكر عاصم بن أبي النجود الأسدي، قرأ على زر بن حبيش وعبدالله بن مسعود على رسول الله ﷺ وقرأ أيضاً على أبي عبدالرحمن عبدالله بن حبيب السلمي معلم الحسن والحسين، وقرأ عبدالرحمن على الإمام علي وأخذ الإمام علي قراءته عن رسول الله ﷺ، توفي عاصم بالكوفة سنة ١٢٧هـ.

٦-**حمزة الكوفي**: هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي مولى عكرمة بن ربيع التميمي، قرأ على أبي محمد سليمان بن مهران الأعمش على يحيى بن وثاب على زر بن حبيش على عثمان وعلي وابن مسعود على النبي ﷺ، توفي بحلوان سنة ١٥٦هـ.

٧-**الكسائي الكوفي**: هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي النحوي لقلب بالكسائي لأنه كان على الدوام لابساً كساء، قال أبو بكر الأنباري: اجتمعت في الكسائي أمور كان أعلم الناس بالقرآن، فكانوا يكثرون عليه حتى يضطر أن يجلس على الكرسي ويتلو القرآن من أوله إلى آخره، وهم يسمعون منه ويضبطون عنه، توفي سنة ١٨٩هـ.

تمام القراء العشرة:

٨-**أبو جعفر المدني**: يزيد بن القعقاع القاري نسبة إلى موضع بالمدينة يسمى (قارا)، أخذ عن عبدالله بن عباس وأبي هريرة، وعن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ، توفي سنة ١٣٠هـ.

٩-**يعقوب البصري**: هو أبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي قرأ على أبي المنذر سلام بن سليمان الطويل، وقرأ سلام على عاصم وعلي بن أبي عمرو، توفي بالبصرة سنة ٢٠٥هـ.

١٠-**خلف البزار**: أبو محمد خلف بن هشام بن ثعلب البزار البغدادي، قرأ على سليم عن حمزة، وعلى يعقوب بن خليفة الأعشى، وعلى أبي زيد سعيد بن أوس الأنصاري صاحب المفضل الضبي، وعلى أبان العطار، وهم عن عاصم، توفي سنة ٢٢٩هـ ببغداد.

تمام القراء الأربعة عشر:

١١-الحسن البصري: هو السيد الإمام الحسن يسار أبو سعيد المصري الغني بشهرته عن تعريفه توفي سنة ١١٠هـ.

١٢-**ابن محيصن**: هو محمد بن عبدالرحمن السهمي المكي مقرئ أهل مكة مع ابن كثير توفي سنة ١٢٣هـ.

١٣-**يحيى اليزيدي**: هو يحيى بن المبارك بن المغيرة، الإمام أبو محمد

العدوي البصري المعروف باليزيدي توفي سنة ٢٠٢هـ.

١٤-**الشنبوذي**: محمد بن أحمد بن إبراهيم بن يوسف بن العباس بن ميمون أبو الفرج الشنبوذي البغدادي توفي سنة ٣٨٨هـ.

هؤلاء الأئمة العظام هم الذين خدموا الأمة والملة، وحافظوا على الكتاب ونسأل الله تعالى أن يغمر الجميع بواسع رحمته وأن يجزيهم أحسن الجزاء على خدماتهم لدين الله وكتابه.

حكم ما وراء العشرة:

وقع الخلاف في القراءات الأربع بعد العشر فقيل إن المسألة ليست مسألة أشخاص ولا أعداد، بل هي قواعد ومبادئ فأيما قراءة تواترت سنداً فهي مقبولة وإلا فهي مردودة لا فرق بين قراءات القراء السبعة والقراء العشرة والقراء الأربعة عشراً وغيرهم [1].

(١) انظر ترجمة القراء المهذب والنشر وغيرهما.

المبحث الخامس

أساب النزول

لمحة تاريخية سريعة عن هذا العلم

يُعتبر شيخ البخاري علي بن المديني[١] رحمه الله أول من دون كتاباً في هذا العلم، وتلاه علماء[٢] آخرون لم يصلنا شيء من كتبهم إلا ما ذكره الواحدي والسيوطي عنهم، بقي هذا العلم غير مدون ولا مجموع حتى طالعنا أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي[٣] المتوفى سنة ٤٦٨هـ بكتابه المشهور أسباب النزول وهو خير الكتب المصنفة في هذا الفن رغم ما فيه من إعواز وأخطاء تاريخية، وروايات ضعيفة ورد أغلبها عن طريق الكلبي التي هي أوهى الطرق عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي طريق سلسلة الكذب كما يطلق عليها علماء الحديث كما اشتمل كتابه على روايات لا تمت إلى أسباب نزول الآية بصلة، وكان المأمول من العلماء من بعده أن يجردوا كتابه من تلك الأخطاء وان يسدوا ما فيه من أعواز، بيد أن الذين أتوا من بعده لم يفعلوا شيئاً من ذلك، فإبراهيم الجعبري[٤] لم يفعل شيئاً إلا تجريد كتابه من الأسانيد التي ذكرها الواحدي، ولم

---

(١) علي بن المديني شيخ البخاري المتوفى سنة ٢٣٤هـ.

(٢) وممن ألف في ذلك أبو المطرف عبدالرحمن بن محمد القرطبي المتوفى سنة ٤٠٢هـ.

(٣) هو أبو الحسن علي بن أحمد النحوي المفسر، توفي سنة ٤٢٧هـ.

(٤) هو برهان الدين إبراهيم بن عمر المتوفي سنة ٧٣٢هـ، وقد ألف في علوم القرآن (روضة الطرائف في رسم المصاحف)، وشرح الشاطبية في القراءات في كتابه كنز المعاني.

يضف إلى ذلك شيئاً يذكر، وقد تحدث في مقدمته قائلاً: نزول القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداء، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال، ثم أخذ يسرد كتاب الواحدي سرداً لم نحظ منه بتعليق يسير عليه.

وممن ألف في هذا العلم أبو الفرج ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ، وكتابه (أسباب نزول القرآن)، ثم جاء ابن حجر العسقلاني سنة ٨٥٢ وكتب كتابه (العجاب في بيان الأسباب)[١].

ذكر السيوطي أنه كان عنده مسودة، وكان يذكرها كثير من العلماء في عداد المفقودات ولكنها ظهرت أخيراً إلا هذه المسودة ليست كاملة فقد كتب ما يزيد عن أربعمائة صفحة من القطع الكبير ووصل في ذكر أسباب النزول إلى الآية الثامنة والسبعين من سورة النساء، أي حتى قوله تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ ﴾[٢].

ومن خلال اطلاعي على المسودة وجدتها ليست مثل كتابه فتح الباري، بل سود صفحات كثيرة في أشياء لا تمت إلى سبب النزول بصلة، مثل ذكره عن كوكب الزهرة بأن الزهرة هي امرأة جميلة ثم حدث ما حدث إلى أن رفعت إلى السماء ... وقد أطال هجومه على من ضعفوا وردوا هذه الرواية، والكلام في ذلك يطول ولا مجال لذكره.

ثم جاء السيوطي واعداً بأن يكون كتابه (لباب النقول في أسباب النزول) من خير الكتب المصنفة في هذا الشأن، وقال مادحا كتابه: (إني ألفت فيه – أي

---

(١) محفوظ بالمدينة المنورة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والنسخة مصورة عن نسخة مراكش.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٨.

في أسباب النزول – كتاباً حافلاً موجزاً محرراً لم يؤلف مثله في هذا النوع، سميته لباب النقول)، لقد أثنى على نفسه بشيء من المبالغة، في حين أن كتاب الواحدي بقي خيرا منه، وكان الأولى به أن يجمع مزاياه، ويكمل ما رآه ناقصاً، ويسد ما فيه من أعواز كما قال، وهذا ما جعل محقق الكتاب – الأستاذ سيد صفر – يقول: (اللباب مصنوع من الأسباب).

وأخيراً فإن آخر كتب المتقدمين كتاب إرشاد الرحمن في أسباب النزول والمتشابه والتجويد [1] لمؤلفه عطية الله بن برهان الأجهوري المتوفى سنة ١١٧٠ وهو كتاب ما زال مخطوطاً، وقد صنع مثلما صنع السيوطي ووعد بإخراج كتاب فذ في هذا المجال ولكنه لم يصنع شيئاً إلا أنه جمع بين كتابي الواحدي والسيوطي وجرد أسانيدهما.

أولاً: تعريف أسباب النزول:

من المسلمات والبدهيات أن من القرآن ما نزل ابتداء، ومنه ما نزل عقب حادثة أو جواباً عن سؤال، وأكثر القرآن نزل ابتداء ليعالج الأوضاع والعادات الفاسدة القائمة آنذاك فليست كل آية لها سبب، وليس كل ما ذكر من الأسباب سبباً في الحقيقة، فسبب النزول هو الحادثة التي وقعت في عهد الرسول ﷺ ونزل بشأنها قرآن أو الأسئلة والاستفسارات الموجهة للنبي ﷺ وجاءت الآيات مجيبة عنها، وأحسن تعريف لذلك ما ذكره السيوطي قائلاً: (والذي يتحرر في أسباب النزول أنه ما نزلت الآية أو الآيات مبينة لحكمه أيام وقوعه) ليخرج ما ذكره الواحدي في تفسيره سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة، فإن ذلك ليس من أسباب النزول، بل هو من الإخبار عن الوقائع

(١) المخطوطة موجودة في المكتبة الأزهرية وهي بحالة متوسطة.

الماضية كذكر قصة نوح وعاد وثمود وبناء البيت الحرام ونحو ذلك كذلك ذكره في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾[1] سبب اتخاذه خليلاً فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى [2].

فعند النظر في الرواية التي ذكرت أنها سبب النزول يجب أن يُتحقق من مزامنة نزول الآية مع حدوث القصة أو الحادثة أو السؤال فإن تزامنت جاز أن تكون سبب نزول وإلا فلا.

ثانياً: الألفاظ الدالة على سبب النزول:

جدير بالذكر أن الصحابة رضوان الله عليهم هم الطريق الوحيد لمعرفة أسباب النزول؛ لأنهم هم الذين عاينوا نزول القرآن فلا خلاف أنه إذا قال الصحابي: سبب نزول الآية كذا فإن هذا يدل صراحة على السبب دون حاجة إلى بيان، ومثل ذلك إذا أخبر الصحابي عن حادثة أو سؤال وُجِّه إلى النبي ﷺ ثم ذكر بعد ذلك الآيات عقب الحادثة، أو إجابة للسؤال فإنه كذلك يعتبر نصاً في سبب النزول.

مثاله: ما رواه البخاري عن أنس بن مالك قال: قال أبو جهل: (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) فنزل قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

(٢) الإتقان في علوم القرآن، ١/ ٤٢، ولباب النقول في أسباب النزول، ص٤.

يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾[١].

وهناك ألفاظ وقرائن تدل على سبيل الرجحان على سبب النزول كأن ترد الفاء التعقيبية داخلة على مادة نزول الآية بعد سرد حادثة ما أو بذكر سؤال ما أو بذكر سؤال طرح على رسول الله ﷺ كأن يقول سئل رسول الله ﷺ عن كذا فنزلت ..

فهذا يدل على الرجحان لا على سبيل الجزم كما رأى ذلك بعض الباحثين لأنني وجدت آثاراً كذلك ولم تدل على السبب، ويستوي في ذلك أن يكون السؤال الذي نزلت الآية بسببه متصلاً بأمر مضى كقوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾[٢] أو بأمر حاضر كقوله: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾[٣] فنزلت في اليهود قالوا للنبي ﷺ: إن كنت نبياً فأتنا بكتاب جملة من السماء كما أتى موسى. أو بأمر مستقل نحو قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾[٤].

كما لا ينبغي أن يفهم أن كل سؤال ورد في القرآن وأجيب عنه، يدل على سبب النزول، فقد ورد لفظ يسألونك في أثني عشر موضعاً ولم يثبت لأكثر سبب النزول، وإن حاول بعض المفسرين أن يتمحل لها سبباً وأتى بما لا طائل تحته.

بقي تحقيق القول فيما إذا قال الصحابي: نزلت هذه الآية في كذا وهل يدل

---

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٣٣-٣٤.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٣.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

ذلك على سبب؟.

نقل السيوطي عن ابن تيمية أنه قال: قولهم نزلت هذه الآية كذا يراد بها تارة سبب النزول، ويراد به تارة أن ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب، كما نقول عنى بهذه الآية كذا [١]، فهي تحمل على التفسير إن ذكُر فيها معنى تدل عليه الآية، وتحمل على بيان سبب النزول إن ذكر فيها ما دعا إلى نزولها.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[٢].

فإنه إذا قيل: نزلت هذه الآية في نفر من أصحاب النبي ﷺ مر بهم رجل من سليم، وهو يسوق غنماً له، فسلم عليهم، فقالوا ما سلم علينا إلا ليتعوذ منا، فعمدوا إليه فقتلوه وأتوا بغنمه إلى النبي ﷺ ... الحديث [٣].

كان ذلك بياناً لسبب نزولها، وإذا قيل نزلت في معاملة الناس بمقتضى ظواهرهم كان تفسيراً لها وبياناً لمضمونها، ولغلبة استعمال هذه العبارة في التفسير قال الزركشي في البرهان: قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت في كذا فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها.

وما أكثر الآيات القرآنية المتضمنة للأحكام وجعلت هذه الأحكام أسباباً ومن أراد معرفة ذلك لينظر إلى تفسير الآيات: ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى

---

(١) مقدمة في أصول التفسير ص٤٨، تحقيق: د. عثمان زرزور، والإتقان ١/ ٨٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٤.

(٣) ذكره السيوطي في اللباب وقال رواه البخاري والترمذي والحاكم وغيرهم.

التَّهْلُكَةِ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾[٢].

ثالثاً: طريق معرفة أسباب النزول:

يقول الواحدي في مقدمة كتابه: (كل آية لها سبب مقبول مروي منقول)[٣]. وعلى هذا فلا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها وجدوا في الطلاب، وقد ورد الشرع بالوعيد للجاهل ذي العثار في هذا العلم بالنار لما رواه ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (اتقوا الحديث إلا ما علمتم فإنه من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبوأ مقعده من النار)[٤].

والسلف رحمهم الله كانوا أبعد الغاية احترازاً عن القول في نزول الآية، فلا يقبلون إلا ممن شاهدوا التنزيل كالصحابة رضوان الله عليهم، فإن قولهم في سبب النزول: هو مما لا مجال للرأي فيه فهو بمثابة المرفوع، فإن صح النقل عنه وجب الأخذ به، وهو كالحديث المسند، أما إذا لم يجزم الصحابي كأن قال أحسب هذه الآية نزلت في كذا فلا يعد هذا سبباً.

أما قول التابعي في سبب النزول إذا نقل أو سمع الصحابي فيجري فيه من المذاهب ما يجري في الأحاديث المرسلة عند علماء مصطلح الحديث والأصول، أما قولهم بالاجتهاد فلا يصح قال ابن سيرين: (سألت عبيدة عن آية من

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

(٣) أسباب النزول، ص١٧.

(٤)سنن الترمذي ٥/ ٤٩ رقم٢٩٥١ وأسباب النزول، ص١٧.

القرآن، فقال: اتق الله وقل سداداً ذهب الذين يعلمون فيما أنزل القرآن)[١].

وليس لأحد بعد عصر التابعين أن يخترع سبباً للنزول.

قال الواحدي [٢]: أما اليوم فالواحد يخترع شيئاً ويختلق إفكاً وكذباً ملقياً زمامه إلى الجهالة غير مفكر في الوعيد للجاهل سبب الآية.

فوائد أسباب النزول:

لا شك أن لمعرفة سبب النزول فوائد لا يستغني عنها أي مفسر لكتاب الله كما قال الواحدي، ولا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها، أو كما قال ابن دقيق العيد: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن [٣].

من هذه الفوائد:

١-تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ.

٢-ومن الفوائد: دفع توهم الحصر عما يفيد بظاهره الحصر، وقد مثلوا على ذلك بمثال، وهو قول الشافعي كما أورده الزركشي في معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[٤].

---

(١) أسباب النزول، ص١٧.

(٢) أسباب النزول، ص١٧، والإتقان، ١/ ٣١.

(٣) مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، ص٤٨.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٤٥.

قال: إن الحصر في الآية ليس مراداً، ذلك أن الكفار لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة والمحادة، جاءت الآية بهذا الحصر الصوري مشادة لهم ومحادة من الله ورسوله، لا قصداً إلى حقيقة الحصر، نازلة منزلة من يقول: لا تأكل اليوم حلاوة، فتقول: لا آكل اليوم إلا الحلاوة، والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة [1].

٣-معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إلا إذا ورد نص مخصص لها.

وهي من القضايا الأصولية التي ذكرها الآمدي والشاطبي وغيرهم ودللوا عليها كقاعدة أصولية تتعلق بأسباب النزول، وهذه الفائدة من الأمور المجمع عليها عند من يعتد بقولهم في علوم الأصول وهي صحيحة ولا كلام، بل بدهية أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية.

٤-أن السبب يفيد وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم.

٥-ومجمل القول : إن فوائد معرفة أسباب النزول كثيرة ولا غنى عنها، فهي تفيد في فهم النص القرآني بكل أبعاده فتنزيل المشكل وتوضح المبهم، وتدفع الغموض وتطرد الشبه، وترفع الخلاف، فهي أوضح سبيل وأقصره لفهم معاني الآيات التي ورد لها سبب.

وإضافة إلى ما ذكر تفيد الزمان والمكان الذي نزلت فيه الآية فتميز المكي من المدني وتفصل الدعوى في الناسخ والمنسوخ حين يعرف المتقدم من المتأخر، وإلى جانب هذا كله فإنها تعطي صورة واضحة عن مراحل الدعوة الإسلامية في سيرها ومعالجتها للأحداث بوسائل مكافئة في كل حالة من الحالات، وهذه

(١) البرهان في علوم القرآن، ١/ ٣١-٣٢.

فائدة لا تعدلها فائدة لمن تأمل فيها في رسم السياسة الداخلية والخارجية للدولة الإسلامية عبر مراحلها الزمنية في عهد النبي ﷺ.

نعم إن علم الأسباب في النزول بين الفهم الصحيح للآية ولا يزول الإشكال إلا بذكره، وقد توافقت كتب علوم القرآن قديماً وحديثاً على ذكر هذه الأمثلة لتبين أن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ويضبطنا من الوقوع في الزلل.

من ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

فإننا لو تركنا لظاهر الآية لاقتضى أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة لا سفراً ولا حصراً، وهو خلاف الإجماع، ولكن بمعرفة سبب نزولها يتبين لنا أن هذا المفهوم خاطئ، فقد روي في سبب نزولها ان القبلة عميت على قوم فصلوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبين خطؤهم، فعذرهم الله بها، فالآية ترفع الحرج عمن صلى باجتهاده إلى جهة ما يظنها القبلة، فبان له الخطأ بعد ذلك وكأن الله سبحانه يقول لا حرج فالجهات كلها لله، وحيثما كنتم فثم وجه الله [2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾[3].

فقد فهم عروة بن الزبير رضي الله عنه أن الآية نزلت لبيان عدم فرضية السعي بين الصفا والمروة، فإن عبارة (لا جناح في كذا)، فلا يستعمل في الدلالة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(٢) الترمذي ٤/ ٢٧٣، ونيل الأوطار ٢/ ٧٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

على وجوب الصلاة والزكاة مثلاً لا جناح في أداء الصلوات الخمس أو في إخراج الزكاة، وإنما تصلح هذه العبارة للتعبير عن الإباحة لأن هذا المعنى هو مدلولها اللغوي. ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[١]. ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾[٢] ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ ﴾[٣].

ومن هنا فهم عروة أن السعي بين الصفا والمروة ليس بفرض، لأن عبارة الآية تدل بمقتضى الاستعمال اللغوي على الإباحة، والإباحة تنافي الوجوب لأن الإباحة لا إلزام فيها، بخلاف الوجوب، ولولا قوله تعالى: ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ﴾[٤] لما فهم من الآية أن السعي عمل مرغب فيه شرعاً، فتدل الآية بمجموعها على الترغيب فيه وامتناع وجوبه، ولكن من يقف على سبب نزول الآية يعرف أنها لا تنافي وجوب السعي بين الصفا والمروة، فقد روى أن فريقاً من الصحابة تحرجوا من الطواف بهما لأن أهل الجاهلية كانوا يفعلونه، وكانوا في ترددهم بين الصفا والمروة يتمسحون بصنمين كانا عليهما، فتأثموا من عمل هو من أعمال الجاهلية وكان يقترن به عمل من أعمال الوثنية فنزلت.

وروي أن الأنصار كانوا في الجاهلية يحجون إلى الصنم الذي يقال له مناة، ولا يتحللون من الطواف بهما لأنه لم يكن ذكر في القرآن في ذلك الوقت وكان

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

الذي ذكر هو الطواف بالبيت العتيق فنزلت [١].

وبجميع هذه الروايات كلها بأنها نزلت عقب تأثم الجميع، والمعقول أن هذا التأثم إنما وقع منهم قبل أن يسمعوا من رسول الله ﷺ شيئاً في طلب السعي، وإلا فحينئذ لا يعقل أن يتأثموا، فجاءت عبارة الآية على ما كان في نفوسهم من التأثم تبين لهم أن هذا الأمر لا إثم فيه ولا جناح، فالمقصود منه إزالة ما كان في نفوسهم من التأثم لا نفي الوجوب، ولكن عروة لم يعرف سبب النزول ففهم أن الآية تنافي الوجوب.

وقد دلت السنة على وجوبه. وقد عرف عروة من خالته عائشة سبب نزولها ولما عرف اهتدى إلى المقصود منها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾[٢].

فقد أشكل على بعض الأئمة معنى هذا الشرط حتى قال الظاهرية: إن اليائسة لا عدة عليها إذا لم ترتب، وقد بين سبب النزول المراد من هذا الشرط، فقد أخرج الحاكم عن أبي بن كعب من أنه لما نزلت الآية التي في سورة البقرة في عدد النساء، قالوا قد بقيت عدد لم تذكر، وهي عدد الصغار والكبار فنزلت [٣]. فبين سبب النزول ان المعنى إن ارتبتم في حكمهن فعدتهن ثلاثة أشهر، والذين لم يقفوا على سبب نزول الآية فهموا أن المعنى إن ارتبتم في حيضهن، فأشكل عليهم معناها، حتى قال بعضهم أن اليائسة لا عدة عليها.

---

(١) انظر هذه الروايات في فتح الباري ٣/ ٣١٥.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٤.

(٣) نقل ذلك السيوطي عن الحاكم.

والأمثلة التي تبين فائدة أسباب النزول كثيرة، اكتفينا بالمذكور واقتصرنا على الصحيح منها. وتجدر الإشارة إلى أن معرفة بعض أسباب النزول قد لا يقدم ولا يؤخر في قليل أو كثير كأن تنزل آية في زيد أو عمرو من الناس، فالأمر سواء.

حالات تعدد روايات أسباب النزول:

هذا بحث يشتمل على صور كثيرة نبدأ بالصور المتفق عليها ثم نثني بالمختلف فيها.

١-لا خلاف بين العلماء فيما إذا تعددت أسباب النزول وكانت رواية صحيحة وأخرى ضعيفة فإنه يقدم الصحيح على الضعيف، من ذلك ما روي في أسباب نزول سورة: ﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾[1].

فقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ اشتكى فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته امرأة فقالت: يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فأنزل الله سورة الضحى[2].

أما الطبراني فقد روى في سبب نزول السورة، عن حفص بن ميسرة عن أمه عن أمها وهي خادمة رسول الله ﷺ أن جرواً دخل بيت النبي ﷺ فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فقال: "يا خولة ما حدث في بيت رسول الله؟ جبريل لا يأتيني"، فقلت في نفسي لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير، فأخرجت الجرو، فجاء النبي

(١) سورة الضحى، الآيات: ١-٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة (والضحى).

ﷺ ترعد لحيته، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة، فأنزل الله الضحى والليل.. السورة.

قال ابن حجر: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ولكن كونها سبب نزول الآية غريب وفي إسناده من لا يعرف فالمعتمد ما في الصحيح [١].

٢-ولا خلاف أيضاً إذا كانت الروايات في أسباب النزول صحيحة وإحداها أرجح من الأخرى بوجه من وجوه الترجيح أخذ بالأرجح وترك المرجوح.

مثال ذلك: ما رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم لو سألتموه، فقالوا: حدثنا عن الروح فقام ساعة ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحى إليه حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[٢].

أما الترمذي فقد صحح عن ابن عباس قوله إن قريشاً قالت لليهود أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل، فقالوا: اسألوه عن الروح، فسألوه فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾[٣] الآية.

فالروايتان صحيحتان، ولكن رواية البخاري أصح سنداً ودراية، لأن البخاري رواها عمن شاهد القصة وعاينها وهو ابن مسعود، أما الترمذي

---

(١) الإتقان ١/ ٢٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥. وانظر: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب (ويسألونك عن الروح).

(٣) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، ٥/ ٣٠٤ ح ٣١٤٠.

فروايته لا ترجح على رواية البخاري سنداً، وابن عباس الذي رويت عنه الرواية لم يشاهد مثلما شاهد ابن مسعود الذي كان حاضر القصة [١].

٣-يذكر العلماء حالة تساوي روايات النزول في الصحة، ولست أرى لهذا النوع وجوداً ولا دليلاً، ووجدت في حديثهم اضطراباً إذ يلجأون في هذه الحالة إلى تداخل هذه الروايات، ويجعلونها سبباً واحداً إذا كان زمانها متقارباً، أو يقولون بتعدد نزول الآية مرات متعددة إذا كان الزمان متباعداً حتى زعموا أن بعض الآيات قد نزلت ثلاث مرات.

أما حالة تداخل الروايتين وجعلهما سبباً واحداً، فيمثلون لهذه الحالة بما روي في سبب نزول آيات اللعان، فقد أخرج البخاري من طريق عكرمة عن ابن عباس أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سمحاء. فقال النبي: (البينة أو حد في ظهرك) فقال: يا رسول الله إذا رأى أحدنا رجلاً ينطلق يلتمس البينة؟ فأنزل عليه: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾[٢].

وأخرج الشيخان عن سهل بن سعد قال: جاء عويمر إلى عاصم بن عدي فقال: اسأل رسول الله ﷺ أرأيت رجلاً وجد مع امرأته رجلاً يقتله، أيقتل به؟ أم كيف يصنع؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ فعاب المسائل، فأخبر عاصم

---

(١) انظر: البرهان ١/ ٣٠.

(٢) سورة النور، الآيات: ٦-٩.

عويمراً فقال: والله لآتين رسول الله ﷺ فأتاه فقال: "إنه قد أنزل فيك وفي صاحبتك قرآناً" الحديث.

جمع بينهما بأن أول من وقع له ذلك هلال، وصادف مجيء عويمر أيضاً، فنزلت في شأنهما معاً [١].

هذا الرأي فيه نظر، إذ المتأمل لنصوص الحديثين يجد القول الحق في أن سبب النزول هو ما روي بشأن هلال بن أمية لوجود قرائن في متن الحديث، فهذان الحديثان وإن تساويا صحة في السند إلا أن متن كل منهما يختلف عن الآخر مما جعل بعض العلماء يعتمد أن سبب النزول الوحيد للآية هو ما روي بشأن هلال لوجود قرائن تدل على ذلك.

ومن هذه القرائن أن النبي ﷺ حين أتاه هلال بن أمية قاذفاً زوجته قال له:" البينة أو حد في ظهرك" لأن الوحي لم ينزل بعد في حكم اللعان، لذا لم يبق إلا أن يطبق عليه النبي ﷺ حد القذف، كما ورد في الآية السابقة نزولاً لهذه الآية [٢] وهذا يلزمه بتطبيق حد القذف عليه ولم يعفه من ذلك إلا نزول آيات اللعان في حقه.

أما في قصة عويمر فإن النبي ﷺ حين سأله عويمر لم يقل النبي ﷺ "البينة أو حد في ظهرك" بل قال له: "قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً" فلم يتوقف الرسول ﷺ في بيان حكمه.

يقول صاحب معاني القرآن: وقد يذكرون حداثة تحققت في تلك الأيام

---

(١) صحيح مسلم ١٠/ ١٢٠، والإتقان ١/ ٩٥، ومناهل العرفان ص١١٢.

(٢) والآية السابقة هي قوله تعالى: ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ..﴾ الآيات، الآية: ٤ من سورة النور.

المباركة واستنبط النبي ﷺ حكمها من آية قرأها في ذلك الباب فتراهم يقولون بعد ذلك: إن الآية نزلة في كذا وربما قالوا: فأنزل الله قوله كذا فكأنه إشارة إلى أنه من استنباطه عليه الصلاة والسلام، ولعل هذا ما جعل بعض العلماء يجزم أن قصة هلال بن أمية هي السبب الوحيد لوجود قرينة تدل على ذلك، وينفي أن تكون قصة عويمر سبباً.

وعلى أية حال فهذا الخلاف لا يترتب عليه أثر مفيد فسواء أتداخلت الروايتان وكانت سبباً للنزول أم كانت قصة هلال بن أمية هي السبب الوحيد.

٤-أما حالة تعدد الروايات في أسباب النزول التي حكموا فيها بتكرار نزول الآية لتباعد أزمانها فيمثلون لهذه الحالة بما أخرجه البيهقي والبزار عن أبي هريرة أن النبي ﷺ وقف على حمزة حين استشهد، وقد مثل به، فقال: "لأمثلن بسبعين منهم مكانك" فنزل جبريل والنبي ﷺ واقف بخواتيم سورة النحل: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾[1].

وبما أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون من المهاجرين ستة منهم حمزة فمثلوا بهم فقال الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ فظاهر تأخير نزولها إلى يوم فتح مكة، وفي الحديث المتقدم ما يفيد نزولها يوم أحد.

وهناك رواية ثالثة بأنها نزلت في مكة قبل الهجرة.

قال ابن الحصار: ويجمع بينهما أنها نزلت في مكة قبل الهجرة مع السورة لأنها مكية، ثم ثانياً بأحد، ثم ثالثاً يوم الفتح تذكيراً من الله لعباده.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٦.

كما أن الزركشي قد ذكر نحو قوله إذ يقول: (وقد ينزل الشيء تعظيماً لشأنه، وتذكيراً عند حدوث سببه خوف نسيانه)[١].

فهذه الأقوال لا يسندها دليل من الشرع أو العقل، وإذا ناقشنا المثال المذكور فإننا نقول إن رواية البيهقي فيها مقال ففي إسنادها صالح بن بشير المري وهو ضعيف عند الأئمة، قال البخاري عنه إنه منكر الحديث، وعلى هذا فرواية الترمذي أصح منها [٢].

قال القرطبي إن نزول هذه الآيات في أحد مما أطبق عليه جمهور المفسرين ثم قال: إن هذه الآية مدنية نزلت في شأن التمثيل بحمزة يوم أحد، ووقع ذلك في صحيح البخاري وفي كتاب السير، وذهب النحاس إلى أنها مكية، والمعنى متصل بما قبلها في المكي اتصالاً حسناً، لأنها تتدرج في الرتب من الذي يدعي ويعظ، إلى الذي يجادل، إلى الذي يجازي على فعله، ولكنه ما روى الجمهور أثبت [٣] ا.هـ القرطبي.

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢٩.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير لهذه الآية وسنن الترمذي ٤/ ٣٦٢، مباحث في علوم القرآن، للدكتور القصبي زلط ص٦٩.

(٣) تفسير القرطبي لسورة النحل ١٠/ ٢٠١.

الفصل الرابع
جمع القرآن الكريم

المبحث الأول: الجمع في عهد النبي ﷺ.

المبحث الثاني: الجمع في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

المبحث الثالث: الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه.

المبحث الرابع: ترتيب الآيات والسور القرآنية.

المبحث الخامس: رسم المصحف (الرسم القرآني أو العثماني).

جمع القرآن الكريم

تمهيد:

المراد بجمع القرآن الكريم حفظه في الصدور وكتابته في السطور، وقد تحقق جمع القرآن بنوعيه حفظاً وكتابة في جميع العهود.

ففي عهد النبي ﷺ تواتر حفظه في الصدور، كما تمت كتابته كلما نزلت آية من الآيات دعا من يكتب.

وفي عهد أبي بكر جمع أوراق القرآن وما كتب في مكانٍ واحد.

وقد تجوز العلماء في إطلاق جمع القرآن في عهد عثمان الذي أمر بكتابته ونسخه.

وما زال جمع القرآن – حفظاً وكتابة – محققاً وسيبقى كذلك إلى قيام الساعة وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

المبحث الأول

الجمع في عهد النبي ﷺ

لقد جمع القرآن في عهد النبي ﷺ حفظاً وكتابة؛ أما حفظه في الصدور فقد تجلى في حفظ النبي ﷺ لهذا القرآن، فقد كان يتشوق ويتلهف لنزول الوحي، فما إن ينزل بالآيات إلا ويعجل النبي ﷺ بحفظها؛ لذا طمأنه الله سبحانه وأرشده إلى عدم الإسراع والتعجل بالقرآن قال تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾[٢].

ومن هنا كان ﷺ أول جامع للقرآن في قلبه الشريف، وسيد الحفاظ في عصره المنيف، ومرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن وعلوم القرآن، وكان ﷺ يقرؤه على الناس على مكث، كما أمره مولاه، وكان جبريل يعارضه إياه في كل عام مرة، وعارضه إياه في العام الأخير مرتين.

قالت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما سمعنا رسول الله ﷺ يقول: "إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة وأنه عارضنا العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي"[٣].

أما الصحابة رضوان الله عليهم، فقد أخذ القرآن قلوبهم فأخذوا يتسابقون في حفظه أحيوا ليلهم وسمع لبيوتهم في غسق الدجى كدوي النحل

---

(١) سورة القيامة، الآيات: ١٦-١٨.

(٢) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٣) مناهل العرفان ١/ ٢٣٤.

بالقرآن، بل عرفت منازلهم من سماع تلاوتهم للقرآن، قال رسول الله ﷺ: "إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار"، هذا ليلهم، أما نهار الصحابة في المسجد، فكان يسمع لهم ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم الرسول ﷺ بأن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا، ومن هنا كان عدد الحفاظ من الصحابة رضوان الله عليهم كثيراً، أشهرهم الخلفاء الأربعة والعبادلة وعمرو بن العاص وابن الزبير ومعاوية وأمهات المؤمنين عائشة وحفصة وأم سلمة، وغيرهم من المهاجرين، ويكفي أن نعلم من كثرتهم أنه قتل منهم في يوم بئر معونة سبعون، ويوم اليمامة ضعفهم، أي أربعون ومائة [1].

أما الحفظة من الأنصار فهم كثيرون أشهرهم: أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو زيد (وهو قيس بن السكن).

يتضح لنا كثرة الحفاظ ، وقد زادوا عن حد التواتر، ومع ذلك فقد أثار أعداء الإسلام – قديماً وحديثاً – شبهة مفادها أن الحفظة من الصحابة لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة، وتمسكوا بأثر رواه البخاري وغيره، وظنوا أن هذا مستمسك لهم وما هو بذلك، وقد رد علماؤنا كيدهم إلى نحورهم.

أما الأثر فما ورد في صحيح البخاري عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أنه قال: (مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن

(١) هذه الأسماء قد وردت في أحاديث صحيحة.

جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد)[١]. فقد زعموا أن هؤلاء الأربعة هم الحفظة ولا أحد غيرهم ظناً منهم أن الحصر في هذا الأثر حصر حقيقي.

والواقع أن هذا الحصر نسبي لا حقيقي، ويدلنا على ذلك ما رواه أنس بن مالك نفسه وقد سأله قتادة عن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ فقال: (أربعة كلهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد).

فقد ذكر في هذه الرواية أربعة، غير أنه ذكر أبي بن كعب بدلاً من أبي الدرداء في الرواية الأولى، وهو صادق في كلتا الروايتين؛ لأنه لا يعقل أن يكذب نفسه، فتعين أنه يريد من الحصر الذي أورده الحصر الإضافي، فمرة ذكر أبا الدرداء، ومرة ذكر أبي بن كعب، وهذا التوجيه وإن كان بعيداً، إلا أنه يتعين المصير إليه جمعاً بين هاتين الروايتين، وبينهما وبين روايات ذكرت غير هؤلاء، وقد قال الماوردي: لا يلزم من قول أنس رضي الله عنه: (لم يجمعه غيرهم) أن الواقع كذلك في الأمر نفسه؛ لأنه لا يمكن الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة وتفوقهم في الأمصار، ولم يتم له ذلك إلا إذا كان قد لقي كل واحد منهم، وأخبر عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن في عهد النبي ﷺ، وهذا في غاية البعد في العادة، وكيف يكون الواقع ما ذكر وقد جاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: (خذوا القرآن عن أربعة: عن عبدالله بن مسعود، وسالم، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب)[٢]. والأربعة المذكورون منهم اثنان من المهاجرين وهم الأولان، واثنان من الأنصار وهما الأخيران ا.هـ.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٩١٣ رقم ٢٤٦٤).

ولعل مراد الماوردي بهذا نفي الحصر الحقيقي وتوجيه الحصر الإضافي، ويؤكد ذلك حديث آخر رواه أبو داود عن محمد بن كعب القرظي قال: (جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار: معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري).

وهناك أجوبة كثيرة عن هذه الشبهة وقد أجاب الإمام أبو بكر الباقلاني بأجوبة ثمانية ولكن ابن حجر ضعفها وغيره فندها.

ونكتفي في النهاية بكلمة للمازري حيث يقول: (وقد تمسك بقول أنس جماعة من الملاحدة ولا متمسك لهم فيه، فأنا لا نسلم حمله على ظاهره، ولكن من أين لهم أن واقع الأمر نفسه كذلك؟ لكن لا يلزم من كون كل هذا الجم الغفير لم يحفظه كله، إلا أن يكون حفظ مجموعه من الجم الغفير، وليس من شرط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه، بل إذا حفظ الكل الكل ولو التوزيع كفى).

ثم قال: قال القرطبي: قد قتل يوم اليمامة سبعون وقتل في عهد النبي ﷺ في بئر معونة مثل هذا العدد، قال: وإنما خص أنس الأربعة بالذكر لشدة تعلقه بهم[1].

هذا عن جمع القرآن حفظاً وتلاوة، أما الجمع بمعنى كتابة القرآن وتدوينه فلم تكن عناية النبي ﷺ وأصحابه بحفظ القرآن واستظهاره لتمنعهم من توثيق القرآن بكتابته وتدوينه، فقد اتخذ الرسول ﷺ من أصحابه كتبة للوحي، منهم زيد بن ثابت وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي بن كعب وثابت بن قيس وخالد بن الوليد، إذ كان النبي ﷺ يأمر من حضر منهم بالكتابة لما ينزل عليه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٥٧.

من القرآن، فيكتب الكاتب: إما على العسيب أو اللخاف أو الرفاع أو قطع الأديم أو عظام الأكتاف والأضلاع [١]. ثم يوضع المكتوب في بيت رسول الله ﷺ وكان مجموعاً في صحف قال تعالى: ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾[٢] أي يقرأ قراطيس مطهرة من الباطل، فيها مكتوبات مستقيمة قاطعة بالحق والعدل. وقال أيضاً: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾[٣].

أي أن هذه تذكرة مثبتة في صحف مكرمة عند الله، مرفوعة المقدار منزهة عن أيدي الشياطين، قد كتبت بأيدي كتبة أتقياء، وما كتب بالصحف كان مؤلفاً.

روي عن ابن عباس أنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا أنزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب، فقال: ضعوا هذه السورة في هذا الموضع الذي يذكر فيه كذا وكذا).

وعن زيد بن ثابت قال: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع.

وخلاصة ما تقدم أن القرآن الكريم قد حفظ في صدور الكثير من

---

(١) العسيب: بضم العين والسين جمع عسيب وهو جريد النخل كانوا يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف العريض. اللخاف: بكسر اللام جمع خلفة بفتح اللام وسكون الخاء وهي الحجارة الرقيقة قال الخطابي: صفائح الحجارة، والرقائع: جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد. والأديم: الجلد. والأكتاف: جمع كتف، وهو عظم عريض يكون في أصل كتف حيوان كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم. انظر: القرطبي ١/ ٥٠، ١١١.

(٢) سورة البينة، الآية: ٢.

(٣) سورة عبس، الآيات: ١١-١٦.

الصحابة، وقد كتب القرآن كله فتحقق جمع القرآن في عهد النبي ﷺ حفظاً وكتابة في الصدور وفي السطور، سئل محمد بن الحنفية ما ترك النبي ﷺ فقال: (ما ترك إلا ما بين الدفتين أي القرآن).

يتضح مما تقدم أن تواتر القرآن وقطعيته في الحفظ والرواية دون الكتابة التي لم تتواتر كما هو معروف من أمر كتبة الوحي، فكان النبي ﷺ يدعو بعض من يكتب عنده وربما كتب الواحد والاثنان أو دون العدد الذي يتحقق به التواتر.

المبحث الثاني

الجمع في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه

لم يشعر الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاة النبي ﷺ أنهم في حاجة إلى جمع القرآن في كتاب واحد، حتى كثر القتل في حروب الردة، فقد استشهد فيها خلق كثير من القراء والحفظة، قيل: إنه قتل سبعون وقيل خمسمائة، وأياً كان فإن عدد القتلى قد هال المسلمين، فخشي عمر بن الخطاب من ذلك على ضياع بعض الصحف، ففكر في عرض الأمر على أبي بكر ليقوم بجمع القرآن.

روى البخاري أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: (أرسل إليَّ أبو بكر بعد مَقْتَل أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ (اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثيرٌ من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف نفعلُ ما لم يفعلهُ رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هذا والله خيرٌ، فلم يَزَلْ عمرُ يراجعُني حتى شرح الله صَدْرِي لذلك، ورأيتُ في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيدٌ: قال أبو بكر: إنَّكَ رجلٌ شابٌ عاقلٌ لا نتهمك، وقد كنت تكتبُ الوحي لرسول الله ﷺ، فَتَتَبَّع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلفوني نقلَ جبلٍ [1] من

---

(١) وقد عينت بعض الروايات الجبل بأنه جبل أحد، فكان رضي الله عنه يرى نقل جبل أحد من مكان إلى مكان أهون عليه من نقل الكتابة من العسب واللخاف والأكتاف والأضلاع والرقاع المختلفة الأجناس والأشكال والألوان إلى كتابتها على شيء متجانس متماثل يسهل جمعه وربطه وحفظه في مكان مناسب، وقد تطلب هذا منه جهداً عظيماً في مقارنة المحفوظ بالصدور مع المكتوب في السطور مع طلب الشهادة على كل رقعة أنها كتبت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يحافظ على الرسم القرآني كما هو جزى الله زيداً أحسن الجزاء وأجزل له الثواب.

الجبال، ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خيرٌ، فلم يَزَلْ أبو بكر يراجعني، حتى شُرِحَ صدري للذي شُرِحَ له صَدْرُ أبي بكر وعمر، فَتَتَبَّعْتُ القرآنَ أجمعهُ من العسب وَاللِّخَاف وصدورِ الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[1]. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر في حياته، ثم عند حفصة بنت عمر)[2].

كيفية جمع القرآن (في عهد أبي بكر):

يقول زيد نفسه فيما رواه البخاري: (فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال)[3] وهذا يفيد أن طريقة الجمع تعتمد على أمرين:

١-ما كان محفوظاً في صدور الصحابة.

٢-ما كان مكتوباً بين يدي رسول الله ﷺ ولا يقبل المكتوب إلا بشهادة عدلين.

روى ابن أبي داود – في كتاب المصاحف – من طريق يحيى بن عبدالرحمن بن حاطب قال: (قدم عمر، فقال من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ١٢٨-١٢٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن.

(٣) صحيح البخاري (٦/ ٧١ رقم ٤٦٧٩).

القرآن فليأت به [١]، فأقبل الناس بما كان معهم وعندهم حتى جمع على عهد أبي بكر في الورق [٢]، فكان أبو بكر أول من جمع القرآن في المصحف).

وكان زيد – رضي الله عنه – لا يقبل شيئاً مكتوباً حتى يشهد عدلان على أن المكتوب بين يدي رسول الله ﷺ، ذكر ذلك صاحب الفتح حيث قال: (وعند ابن أبي داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ولزيد: اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه).

ونقل السيوطي عن السخاوي [٣] أنه قال: (المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب من الوجوه التي نزل بها القرآن، أو المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ) قال أبو شامة: (كان غرضهم ألا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ).

يتضح للمتأمل أن الجدير بالقبول هو أن المراد بالشهادة فيهما، الشهادة على الكتابة بين يدي النبي ﷺ لا الشهادة على القرآنية، لأن القرآنية لم تكن موضع شك حتى تحتاج إلى شهادة، لكثرة الحفاظ في ذلك الوقت، بخلاف الكتابة بين يدي النبي ﷺ فإن كثيراً من الصحابة كانوا يكتبون القرآن لأنفسهم على حسب ما يتيسر لهم، ولو في غير مجلس النبي ﷺ ويلاحظ أن ما قاله ابن حجر من أنه يجوز أن يكون قد أريد بالشاهدين الحفظ والكتابة، لا عدلان من الناس يشهدان، هو احتمال في غاية البعد، لأن اللفظ متبادر جداً في هذا المعنى دون ما

---

(١) رجاله ثقات مع انقطاعه والحديثان في فتح الباري ٩/ ١١.

(٢) في المصباح يعني بالورق في الأزمان المتقدمة الجلود الرقاق التي يكتب عليها.

(٣) الإتقان ١/ ٢٣٨، والبيان ص١٧٩.

قصه ابن حجر، والله أعلم.

وبعد فلا يفوتنا ان ندفع الشبهة التي تعلق بها المغرضون في الرواية التي أثبت بها زيد كتابة آية لم يثبتها إلا شاهدان اثنان، وهذا كافٍ لإثبات عدم التواتر لهذه الآية المفقودة.

نقول: إن هذه الرواية وأمثالها لم تثبتها كتب الصحاح، وبعض هذه الروايات منقطع كما يقول علماء الحديث، ولو سلمنا أن هذه الروايات صحيحة، لما ثبتت الدعوى، بل على فرض أن زيداً قد أثبتها منفرداً لم يكن ذلك قادحاً في تواتر القرآن، لأن التعويل في توثيق القرآن إنما هو على الرواية، والتلقي طبقة عن طبقة إلى رسول الله ﷺ مع تحقيق للتواتر في الرواية دون الكتابة، بل لو لم يكتب أصلاً ما قدح في تواتره، حيث نقل سماعاً ومشافهة على سبيل التواتر في كل طبقة من طبقات رواته [١].

وبعد: هذا معنى جمع القرآن في عهد أبي بكر الذي كان أول من جمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ.

قال علي رضي الله عنه: أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله، ذكر ذلك ابن كثير وقال: إن أبا بكر وضع الصحف التي جمع فيها القرآن بين لوحين [٢]، ومن الواضح البين أنه لا يمكن أن يجمع القرآن كله مع ترتيب آياته وسوره إذا كانت الأشياء التي كتب عليها مختلفة حجماً ونوعاً، طولاً وعرضاً، كما أن عددها لا يحصى، لأن الآيات قد نزلت في مدى ثلاثة وعشرين عاماً وفي كل مرة ينزل فيها الوحي يكتب

---

(١) البيان، ص١٨٢.

(٢) فضائل القرآن، ص٢٣.

النازل من القرآن على شيء من الأسماء المذكورة سابقاً.

لذا فقد تمت الكتابة على شيء واحد صالح للبقاء متماثل في طوله وعرضه، حتى يتأتى جمعه بين اللوحين وربطه بخيط كما في بعض الروايات، هذا الدور الذي قام به زيد بن ثابت، فكان له سبق التنفيذ، ولعمر بن الخطاب سبق الاقتراح، ولأبي بكر الصديق الأمر بذلك، رضي الله عنهم أجمعين.

المبحث الثالث

الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه

لئن كان جمع أبي بكر للقرآن؛ خوفاً من ضياع المكتوب بموت حفظة القرآن، فإن جمع عثمان بن عفان كان خوفاً من اختلال الأمصار في وجوه القراءات، حين قرأه كل مصر بقراءة تختلف عن قراءة مصر آخر، وأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضاً، وفي قصة حذيفة بن اليمان خير بيان لأسباب الجمع أو النسخ بتعبير أصح.

روى الإمام البخاري بسنده عن ابن شهاب، أن أنس بن مالك حدَّثه أن حذيفة ابن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالمصاحف ننسخها في المصحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصةُ إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف.

قال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا[1]، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمانُ الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما

---

(١) أخرجه البخاري(٤/ ١٨٠رقم ٣٥٠٦) باب نزول القرآن بلغة قريش، وأذربيجان التي فتحت قبل أربعة عشر قرناً كانت سبباً في جمع القرآن.

نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

١-يتضح مما تقدم أن سبب الجمع والداعي إلى نسخ المصحف، هو منع التماري والاختلاف في القراءات بسبب تفرق الصحابة في الأمصار، فقد كان كل فريق يقرأ بما روي له عن الصحابة في بلده، فيختلف الشامي مع العراقي، والمكي مع المدني، وأظهر بعضهم تكفير بعضٍ، وتلاعنوا، فأشْفَقَ حذيفةُ مما رأى منهم، فلما قدم المدينة – فيما ذكر البخاري والترمذي – دخل حذيفةُ على عثمان قبل أن يدخل إلى بيته، فقال: (أدرك هذه الأمة قبل أن تهلك)[١]، وفي هذا خير بيان للباعث على الجمع أو النسخ بتعبير أدق.

ما يستفاد من هذه الرواية:

٢-أن عثمان بن عفان قد جعل على رأس القائمين على الجمع زيد بن ثابت، وهو من كتبة الوحي للرسول ﷺ، وهو الذي قام بالجمع في عهد أبي بكر، وبخبرته وعدالته وعقله كما وصفه أبو بكر (إنك شاب عاقل لا نتهمك) بكل هذا أصبح موضعاً للثقة، فولاه عثمان الأمر، ولكنه أمر الكتبة إذا اختلفوا في كتابة كلمة أن يكتبوها بلغة قريش كما في كلمة (التابوت والتابوه)[٢].

٣-أن هذه الرواية مطلقة لم تحدد عدد المصاحف، وهناك رواية حددتها بسبعة، وقيل أربعة، قال القرطبي وهو الأكثر [٣]، ولكن هذا القول يعوزه الدليل وإن ذهب إليه الأكثر، والحديث الذي سبقناه هو أصح ما في هذا الباب وقد جاء فيه النص هكذا (فأرسل إلى كل أفق بمصحف) ولا شك أنه أرسل

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٥١.

(٢) تفسير القرطبي ١/ ٥٤.

(٣) تفسير القرطبي ١/ ٥٤.

هذه المصاحف لرفع الخلاف في كل أفق.

والآفاق المعروفة آنذاك: المدينة التي استبقى فيها نسخة، ومكة والكوفة والبصرة والشام واليمن والبحرين، فهذه آفاق لا شك أنه نال كل أفق منها نسخة، لذا نميل إلى هذا الرأي الصحيح في سنده والذي يتفق مع المنطق السليم لأن القضاء على الاختلاف لا يتم إلا بإرسال مصحف إلى كل مصر من الأمصار.

ولا شك أن المصاحف التي أرسلها نسخة عن الأصل فهي نقل لعين ما نقل عن رسول الله ﷺ.

٤-في هذه الرواية أخبار عن حرق عثمان للمصاحف، سواء أكانت صحفاً أم مصاحف، وفي عمله جمع للمسلمين على المصحف الموحد الثابت عن رسول الله ﷺ وترك ما سواه لما حوته من قراءات شاذة أو تفسيرات زائدة.

ولقد غالى بعض الشيعة في قضية حرق المصاحف وزعمت ما زعمت، وكان الأحرى بهم أن يقفوا عن هذه المغالاة، وأن يستمعوا إلى قول الإمام علي رضي الله عنه فيما ذكره أبو بكر الأنباري عن سويد بن غفلة قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول: (يا معشر الناس: اتقوا الله، وإيّاكم والغلو في عثمان، وقولكم: حرّاق المصاحف، فوالله ما حرقها إلا على ملأ منا أصحاب رسول الله ﷺ).

وعن عمير بن سعيد قال: قال علي بن أبي طالب: (لو كنت الوالي وقت عثمان لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان)[1].

هذا كلام علي – رضي الله عنه – الذي يتشيعون له ويفضلونه على جميع الصحابة قد ارتضى فعل عثمان وحسنه، وحث الناس على الثناء عليه من أجله،

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٥٤.

فطعنهم فيه بأمر ارتضاه عليّ يعتبر طعناً منهم في عليّ نفسه.

لم يكتف بعض الشيعة بالطعن في عثمان، بل زعموا أن عثمان رضي الله عنه قد أسقط شيئاً من القرآن وحَرَّف القرآن وحَرَّف بعض آياته، والمنصف منهم يرفض هذا الزعم كما ورد في كتاب أبي جعفر (الأم): (إن اعتقادنا في جملة القرآن الذي أوحى به الله تعالى إلى نبيه محمد ﷺ هو كل ما تحتويه دفتا المصحف المتداول بين الناس، وعدد السور المتعارف عليه هو (١١٤) سورة، أما عندنا فسورتا الضحى والشرح تكونان سورة واحدة، وكذلك سورتا الفيل وقريش، وأيضاً سورتا الأنفال والتوبة. أما ما ينسب إلينا الاعتقاد في أن القرآن أكثر من هذا فهو كذب).

ولقد شهد المستشرقون على قطعية القرآن وثبوته دون تغيير ولا تبديل.

يقول جوير: (إن المصحف الذي جمعه – نسخه – عثمان قد تواتر إلينا بدون تحريف، ولقد حفظ بعناية شديدة، بحيث لم يطرأ عليه أي تغيير على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها، والمتداولة في البلاد الإسلامية، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الجماعي لنفس النص المقبول من الجميع حتى اليوم يعد أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا).

ويقول لوبلوا: (إن القرآن هو اليوم الكتاب الرباني الوحيد الذي ليس فيه أي تغيير يذكر)[1].

أقول: والفضل ما شهدت به الأعداء.

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم، للدكتور دراز ص٢٩، القرآن ونصوصه، ص٨٧-٨٨.

المبحث الرابع

ترتيب الآيات والسور القرآنية

أولاً: ترتيب الآيات:

معنى الآية لغة:

١-العلامة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ آَيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[١].

٢-العبرة: ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آَيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾[٢].

٣-المعجزة: ومنه قوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آَتَيْنَاهُمْ مِنْ آَيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾[٣].

٤-الدليل والبرهان: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾[٤].

والمناسبة بين كل هذه المعاني اللغوية للآية وبين الآية القرآنية واضحة، فهي من القرآن المعجز، وهي علامة على صدق من جاء بها، وفيها عبرة لمن أراد أن يعتبر بها، وهي من الأمور العجيبة لسمو أسلوبها ومعناها، وفيها معنى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١١.

(٤) سورة الروم، الآية: ٢٢.

الدليل لأنها برهان على ما تضمنته من هداية وعلم [١].

أما تعريف الآية القرآنية اصطلاحاً: (فهي طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها).

هذا التعريف كما أورده السيوطي ينطبق على الآية كما ينطبق على تعريف السورةن لذا لابد من إضافة قيد لينحصر التعريف بالآية، فيقال: (هي طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها معروفة بالسماع، مندرجة في السورة).

وليس معنى انقطاع الآية عما قبلها وما بعدها، ألا يكون لها تعلق بسابقتها أو لاحقتها، وإنما المراد أن ما يعد آية هو الذي لا يكون جزءاً من آية قبله أو آية بعده.

حكم ترتيب الآيات:

الإجماع معقودٌ على أن ترتيب الآيات توقيفي نقله السيوطي وقال: ولا شبهة في ذلك، وقال الزركشي: (من غير خلاف بين المسلمين).

قال كاتب الوحي زيد بن ثابت: كنا عند النبي ﷺ نؤلف القرآن في الرقاع... قال البيهقي: والمراد تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ.

وقال عثمان بن عفان – رضي الله عنه –: (كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من يكتب، فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا)[٢].

---

(١) البيان، ص٢١٩.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ٢٧٢، ح ٣٠٨٦ مختصراً.

ويكفي ثبوت الترتيب قراءته ﷺ لسورة كثيرة بمشهد من الصحابة رضوان الله عليهم ثم نقله التابعين على مثل ذلك، حتى وصل إلى جيلنا كذلك من غير خلاف على مر العصور.

وربّما يتوهم متوهم أن الخلاف في عدد الآيات يعني الخلاف في ترتيبها، فقد روى أن عدد الآيات ستة آلاف آية فقط ومنهم من زادها مائتي آية وأربع آيات، وقيل وأربع عشرة، وقيل وتسع عشرة، فهذا الخلاف في العدد لا يعني أبداً الخلاف في الترتيب، ذلك أن سبب اختلاف السلف في عدد الآي ناجم عن وقوف النبي ﷺ على رؤوس الآي، فإذا علم محلها وصل للتمام فيحسب السامع حينئذ أنها ليست فاصلة [1].

كما أن بعض السلف يَعُدُّ البسملة آية من كل سورة وبعضهم لا يعدها، فيكون الفارق في عدد الآيات بمقدار عدد السور.

ثانياً: السور القرآنية:

معناها: لفظ السورة مفرد يجمع على سُوَر، كغُرفَة وغُرَف، وتطلق لغة على المنزلة من البناء أي الصف من صفوفه التي يوضع بعضها فوق بعض، كما تطلق ويراد بها المنزلة الرفيعة، وسميت السورة من القرآن بهذا الاسم تشبيهاً لها بسورة البناء، فإنها قطعة من كتاب الله محكمة مترابطة يكمل بعضها بعضاً في الغرض الذي أنزل من أجله، كما أن المنزلة من البناء قطعة متماسكة يكمل بعضها بعضاً، ويتحقق باجتماعها الغرض الذي من أجله أقيم البناء، أو سميت بذلك لارتفاعها، لكونها من كلام الله، وعلى كلا التقديرين فالمناسبة حاصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي.

---

(١) الإتقان ١/ ٦٧.

أما معناها الاصطلاحي فما سبق ذكره (بأنها طائفة من القرآن منقطعة عما قبلها وما بعدها معروفة بالسماع).

وسور القرآن تختلف طولاً وقصراً، فسورة الكوثر هي أقصر سور القرآن، إذ يبلغ عدد آياتها ثلاث آيات، وسورة البقرة أطول سورة القرآن وقد تجاوزت الجزأين، وقد قسم القرآن حسب طول السور وقصرها إلى أربعة أقسام:

١-السور الطوال: وهي سبع: سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف، أما السورة السابعة فقيل إنها سورة الأنفال والتوبة معاً، إذ لم يكتب بينهما بسم الله الرحمن الرحيم وقيل سورة يونس.

٢-المئون: وهي كل سورة تزيد آياتها عن مائة.

٣-المثاني: وهي تلي المئين أي ما كان عدد آياتها أقل من مائة وسميت بالمثاني لأنها تثنى (أي تكرر) أكثر مما تثنى الطوال والمئون.

٤-المفصل: وهي أواخر القرآن ابتداء من سورة (ق) أو الحجرات وانتهاء بسورة الناس.

حكم ترتيب السور القرآنية

في ترتيب السور ثلاثة آراء:

١-ترتيب جميع السور توقيفي ويستدل أصحاب هذا الرأي بقصة معارضة جبريل القرآن على النبي ﷺ، وهذا يعني أن جبريل كان يقرأ القرآن مرتباً بسوره وآياته. وأقوى أدلة هذا الفريق هو إجماع الصحابة رضوان الله عليهم على المصحف العثماني وحرفهم لجميع المصاحف المختلفة الترتيب في السور.

٢-ترتيب جميع السور اجتهادي ويستدلون على ذلك باختلاف مصاحف

الصحابة في ترتيب السور، ولو كان الترتيب توقيفياً لما اختلفوا. وكذلك ما روي عن عثمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قبض ولم يبين للصحابة أمر سورتي الأنفال وبراءة، وكانت الأنفال من أول ما نزل في القرآن وكانت براءة من آخر ما نزل، ولما ترك النبي ﷺ البيان قال عثمان: كانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينها ولم أكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) ووضعتها في السبع الطوال، فهذه القصة تدل على أن ترتيب السور كان أمراً اجتهادياً.

٣-ترتيب بعض السور توقيفي وبعضها الآخر اجتهادي.

وقد وصف الزرقاني هذا القول بأنه أمثل الآراء وإليه ذهب فطاحل العلماء[1].

وأصحاب هذا الرأي وإن اتفقوا على هذا التقسيم إلا أنهم اختلفوا في مقدار التوقيفي والاجتهادي.

وعلى أية حال فإن الذي لا مجال للشك فيه أن كتابة القرآن بترتيبه المعروف في السور والآيات قد أجمعت عليه الأمة منذ الجمع الأول والثاني وحتى عصرنا الحاضر.

لذا نميل إلى الرأي الأول لأن إجماع الصحابة وإقرارهم كاف للدلالة على توقيف ترتيب السور ولا نعلم عنهم اختلافاً فكفى بذلك دليلاً وبرهاناً والله أعلم.

---

(١) مناهل العرفان ١/ ٣٤٩.

المبحث الخامس

رسم المصحف

نقصد برسم المصحف أو كما يسميه بعض العلماء الرسم العثماني وهما واحد؛ لأن عثمان رضي الله عنه قد كتب المصاحف كما كتبت في عهد الرسول ﷺ وأقر كتاب الوحي على كتابتها بصورتها المعروفة، وقد اختلف العلماء في الرسم، فذهب فريقٌ منهم أن الرسم توقيفي قال ابن المبارك في كتابه الإبريز: قال الدباغ: (ما للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن العزيز ولا شعرة واحدة، وإنما هو توقيف من النبي ﷺ، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الأحرف ونقصانها لأسرار لا تهتدي إليها العقول، وما كانت العرب في جاهليتها، ولا أهل الإيمان من سائر الأمم في أديانهم يعرفون ذلك، ولا يهتدون بعقولهم إلى شيء منه، وهو سر من أسراره خص الله كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية، فلا يوجد شبه ذلك الرسم لا في التوراة ولا في الإنجيل، ولا في غيرهما من الكتب السماوية.

وكما أن نظم القرآن معجز فرسمه أيضاً معجز، وكيف تهتدي القول إلى سر زيادة الألف في مائة دون فئة، وإلى زيادة الياء في بأييد من قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾[1].

أم كيف نتوصل إلى سر زيادة الألف في (سعوا) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[2].

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٧.

(٢) سورة الحج، الآية: ٥١.

وعدم زيادتها في سعو من قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴾[١].

وإلى سر زيادتها في قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ ﴾[٢].

وحذفها من قوله تعالى: ﴿ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴾[٣].

وإلى سر زيادتها في قوله تعالى: ﴿ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ ﴾[٤].

وإسقاطها من قوله تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ ﴾[٥].

أم كيف تبلغ العقول إلى وجه حذف الألف في بعض الكلمات المتشابهة دون بعض، كحذف (قرآناً) في يوسف والزخرف، وإثباته في سائر المواضع، وكذا إثبات الألف بعد الواو في (سموات) في سورة فصلت، وحذفها في غيرها، وكذا في إطلاق بعض التاآت وربطها نحو (رحمة) و(نعمة) و(قرة) و(شجرة) فإنها في بعض المواضع كتبت بالتاء المفتوحة وفي مواضع أخرى كتبت بالهاء .. وكل ذلك لأسرار إلهية وأغراض نبوية [٦].

وذهب الفريق الثاني: منهم ابن خلدون والباقلاني إلى أن الرسم اصطلاحي واجتهادي لا توقيفي.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

(٥) سورة النساء، الآية: ٩٩.

(٦) الإبريز، ص٥٧.

قال الباقلاني: وأما الكتابة فلم يفرض النبي ﷺ على الأمة فيها شيئاً، إذ لم يأخذ على كتّاب القرآن وخطاط المصاحف رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية، بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل، لأن رسول الله ﷺ كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً، ولا نهى أحداً عن كتابته.

ولذلك اختلقت خطوط المصاحف، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص لعلمه بأن ذلك اصطلاح، وأن الناس لا يخفى عليهم الحال، ولأجل هذا بعينه جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول، وأن يجعل الكلام على صورة الكاف، وأن تعوج الألفات، وأن يكتب على غير هذه الوجوه، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المحدثة، وجاز أن يكتب بين ذلك، وإذا كانت خطوط المصحف وكثير من حروفها مختلفة ومتغايرة الصورة، وكان الناس قد أجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته، وما هو أسهل وأشهر وأولى، من غير تأثيم ولا تناكر، علم أنه لم يؤخذ في ذلك على الناس حد محدود مخصوص، كما أخذ عليهم في القراءة، والسبب في ذلك أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز. فكل رسم دال على الكلمة مقيد بوجه قراءته تجب صحته وتصويب الكاتب به على أية صورة كانت، وبالجملة فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم

مخصوص وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه وأنّى له ذلك [١].

هذه أقوال الفريقين ويظهر أن هذا القول بتوقيف الرسم هو الأولى بالقبول.

قال البيهقي: من يكتب مصحفاً فينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيه، ولا يغير مما كتبوه شيئاً، فإنهم كانوا أكثر علماً وأصدق قلماً ولساناً، وأعظم أمانة منا، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم [٢].

نص الإمام مالك على أنه لا توضع المصاحف إلا على وضع كتابة الإمام يعني عثمان بن عفان.

وقال الإمام أحمد: (تحرم مخالفة خط مصحف عثمان واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك)[٣].

بقى القول في حكم كتابة بعض آيات القرآن استشهاداً أو كتابتها على اللوح للتعليم أو غير ذلك مما يكتب في غير المصاحف.

أقول: هذا جائز لأن النبي ﷺ حين أمر كُتَّابه أن يكتبوا للملوك والرؤساء كانت كتابتهم على رسم الكتابة العادية، وعلى غير الرسم الذين كانوا يكتبون به المصاحف التي يكتبون فيها القرآن حين نزوله، مع أن المملي واحد والكُتَّاب هم هم، فالرسم القرآني يجب التزامه في كتابة المصحف وحده دون غيره ولا

---

(١) الإبريز، ص٥٩.

(٢) الإتقان، ٢/ ١٦٧.

(٣) المرجع السابق.

يقاس عليه؛ لأنه أمر توقيفي لغير علة فلا يدخله القياس.

شكل المصحف وإعجامه

الشكل (هو وضع العلامات التي تدل على ما يعرض للحرف من حركة أو سكون).

أما الإعجام: (فخاص ببيان ذات الحرف، وتمييزه عن غيره، ويكون بالنقط كالتاء عليها نقطتان وياء تحتها نقطتان ونحو ذلك).

وجدير بالذكر أن القرآن قد كتب خالياً من الشكل والإعجام، وقد كتبه عثمان بن عفان كذلك، ولم يخش عليه من الالتباس لأن العرب يدركون القرآن بسليقتهم وكان تلقيهم القرآن عن طريق الرواية والسماع.

وطبيعي أن مخالطة العرب لغيرهم قد أفسدت هذه السليقة السليمة، وبدأ يظهر اللحن رويداً رويداً، وينتشر شيئاً فشيئاً، حتى بَدَا لزياد بن أبيه[1] والي البصرة أن يضع حداً لهذه الظاهرة، بعد أن أشار عليه أبو الأسود الدؤلي بعد فزعه عندما سمع رجلاً يقرأ قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾[2]، بجر اللام (في رسوله) بدل رفعها أو نصبها، فعهد زياد لأبي الأسود أن يقوم بهذه المهمة الجليلة، والتي كانت الحاجة إليها أمس وأقوى من الحاجة إلى الإعجام، وذلك أن الخطأ في حركات الحروف أضعاف الخطأ في إعجامها، وكان الشكل في البداية بالنقط، ولما أريد وضع الإعجام بالنقط، أصبح الأمر ملتبساً في التمييز بين الشكل والإعجام، فعمدوا إلى تغيير لون

(١) وقيل الحسن البصري ويحيى بن يعمر وقيل نصر بن عاصم الليثي وهؤلاء جميعاً من التابعين.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣.

النقط، ثم جعل الشكل بالطريقة المعروفة لنا الآن، وبقي الإعجام هو المختص بالنقط، وقيل إن الذي أمر بالإعجام هو الحجاج بن يوسف. وعلى هذا فالأمر بالشكل والآمر بالإعجام هما واليا العراق، وهما ثقفيان من ثقيف التي طالما استعملهم الأمويون في حكم العراق بالذات لما عرفوا من شدتهم في جاهليتهم وإسلامهم والله أعلم.

الفصل الخامس
أساليب البيان

المبحث الأول: العام والخاص.

المبحث الثاني: المطلق والمقيد.

المبحث الثالث: النسخ في القرآن الكريم.

أساليب البيان

تمهيد:

كان الصحابة والتابعون يطلقون على التخصيص والتقييد نسخاً؛ إذ التخصيص عندهم ناسخ للعموم والتقييد ناسخ للإطلاق، ثم جاء الإمام الشافعي فحرر لنا بعض الفروق بين هذه المصطلحات، ولم يفت مؤلفي القرآن أن يعقدوا لهذه المصطلحات باباً لبيان مدى الفرق بينها، ونحن نحذو حذوهم في عقد هذا الفصل.

المبحث الأول
العام والخاص

العام: (هو لفظ وضع للدلالة على أفراد غير محصورين على سبيل الاستغراق والشمول)، أو (هو اللفظ الموضوع الذي يستغرق جميع ما يصلح له من أفراد من غير حصر كمّيّ أو عدديّ).

وقد ورد في اللغة صيغ تدل على العموم نوردها مستشهدين بالآيات القرآنية:

١ -اسم الجنس إذا عرف بأل، كقوله تعالى: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ﴾[1].

فلفظ الزانية والزاني يدل على العموم أي كل زانية وكل زانٍ.

---

(١) سورة النور، الآية:٢.

٢-الألفاظ (كل وجميع وأجمع وكافة)، كقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾[١]. وقوله: ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾[٢]. وقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾[٣]. وقوله: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾[٤].

٣-لفظ (مَن) فيمن يعقل سواء أكانت للشرط، كقوله تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾[٥]. أم كانت للاستفهام، كقوله تعالى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَّ قَرْضًا حَسَنًا ﴾[٦].

٤-لفظ (ما) فيما لا يعقل في الجزاء والاستفهام، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهَّ رِزْقُهَا ﴾[٧].

أي كل دابة، وكقوله: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللهَّ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[٨]. أي: أي شيء خلقتم.

٥-النكرة المنفية أو في سياق النفي، كقوله تعالى: ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾[٩].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٢) سورة ق، الآية: ٢١.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٤) سورة ص، الآية: ٧٣.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

(٦) سورة الحديد، الآية: ١١.

(٧) سورة هود، الآية: ٦.

(٨) سورة لقمان، الآية: ١١.

(٩) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

فلفظ (إله) نكرة منفية ولفظ (سِنَةٌ) نكرة في سياق النفي وكلا اللفظين يدل على العموم.

٦-لفظ الجمع المعرف بالإضافة، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾[١].

٧-الأسماء الموصولة، كقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾[٢].

أما التخصيص (فهو قصر العام على بعض أفراده بدليل).

والمخصِّص قد يكون منفصلاً أو متصلاً، أو على حد تعبير الأصوليين مستقلاً أو غير مستقل، وقد يكون غير ذلك كما سنرى.

والمخصِّص المتصل هو نفسه غير مستقل وهو غير تام بنفسه لاعتماده على ما قبله من لفظ العام وهو منحصر في أربعة:

١-التخصيص بالاستثناء: وهو إخراج ما بعد إلا أو إحدى أخواتها مما قبلها، كقوله تعالى: ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾[٣] فالاستثناء جعل الحكم مقصوراً على من كفر راضياً مختاراً.

٢-التخصيص بالشرط: أي تعليق الأمر على شرط بإحدى أدوات الشرط، وهي كثيرة، قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾[٤]. فوجود المال

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣١.

(٢) سورة النور، الآية: ٤.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

شرط في الوصية فإن عدم فلا وصية.

٣-التخصيص بالغاية: وألفاظ الغاية إلى وحتى، مثال (إلى) قوله تعالى: ﴿مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾[١].

فإتمام الصيام عام وقد خصص بدخول الليل إذ لا يجب فيه الصيام. ومثال (حتى) قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾[٢].

٤-التخصيص بالصفة: مثل قوله تعالى: ﴿ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾[٣].

ومعنى ذلك أن الربيبة من المرأة لا تحرم على الرجل إلا إذا دخل على أمها، فإذا لم يدخل على أمها حلت له الربيبة.

وعلى هذا وضعت القاعدة، الدخول على الأمهات يحرّم البنات والعقد على البنات يحرّم الأمهات.

وقد ألحق بعض الفقهاء بدل بعض من كل، والحال، وجعلوهما مثل التخصيص بالصفة. فبدل بعض من كل، مثل قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾[٤].

فلا يجب الحج على جميع الناس بل هو خاص على المستطيع منهم.

أما الحال فمثاله قوله تعالى: ﴿ لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٣، الربيبة هي بنت الزوجة.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

فَحَرَّم قتل الصيد حالة الإحرام خاصة وأباح في الإحلال منه.

أما المخصِّص المنفصل أو المستقل فيشمل أنواعاً كثيرة فقد يخصص عمومَ القرآن آيةٌ أو حديث أو إجماع، ومثال تخصيص عموم القرآن بالقرآن قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾[1].

فهذه الآية عامة تدل على أن عِدَّةَ كل امرأة توفي زوجها عنها هي أربعة أشهر وعشرة أيام، ثم جاءت الآية الكريمة تخصص عمومها ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾[2]. فجعلت مدة عدّة الحامل المتوفى عنها زوجها هي وضع حملها، سواء بلغت المدة أربعة أشهر وعشرة أيام أم لم تبلغ.

أما تخصيص السنة للقرآن: فمثاله ما ورد عن النبي ﷺ في رجم الزاني المحصن، فهذا مخصص لآية الجلد في سورة النور: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ﴾[3].

هذا وفي كتب الأصول أبحاث مستفيضة لمن أراد المزيد.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٤.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ٤.

(٣) سورة النور، الآية: ٢.

المبحث الثاني
المُطْلَقُ والمُقَيَّد

المطلق: ما دل على فرد شائع غير مقيد لفظاً بأي قيد كحيوان وطائر وتلميذ، فإنها ألفاظ وضع كل منها للدلالة على فرد واحد شائع في جنسه، ولئن كانت النكرة في سياق النفي تفيد العموم فإنها في سياق الإثبات غالباً ما تدل على الإطلاق.

أما المُقَيَّد: (فهو ما دل على فرد مقيد لفظاً بقيد ما)[1] كحيوان ناطق، وتلميذ مجتهد.

متى يحمل المطلق على المقيد:

هناك حالات متفق عليها يحمل فيها المطلق على المقيد، وحالات متفق عليها على عدم حمل المطلق على المقيد، وحالات مختلف فيها.

اتفقوا على حمل المطلق على المقيد، في حالة اتحاد الموضوع والحكم معاً، وخير مثال على هذه الحالة، ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: واقع رجل امرأته في رمضان. فاستفتى رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: "هل تجد رقبة؟" قال: لا، قال: "هل تستطيع صيام شهرين؟"، قال: لا، فقال: "فأطعم ستين مسكيناً" رواه البخاري [2].

ورواه ثانية عن الراوي نفسه أنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: هلكت يا رسول الله ﷺ، قال: "وما أهلكك؟" قال: وقعت على امرأتي في

---

(١) مسلم الثبوت ١/ ٣٦٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب من أصاب ذنباً دون الحد.

رمضان، قال: "هل تجد ما تعتق رقبة؟" قال: لا، قال: "فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟"، قال: لا، قال: "فهل تجد ما تطعم ستين مسكيناً؟" قال: لا. قال أبو هريرة ثم جلس فأتِيَ النبي صلى الله عليه وسم بِعرقٍ فيه تَمْر، فقال: "تَصَدَّق بهذا"، قال: أعلى أفقرنا منا؟ فما بين لابتيها هل بيت أحوج إليه منا؟ فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: "اذهب فأطعمه أهلك"[1].

فهذان الحديثان موضوعهما واحد وهو الجماع المتعمد في نهار رمضان، والحكم فيهما واحد إما الإعتاق، وإما الصوم ستين يوماًن وإما الإطعام، وقد ذكر الحديث الأول صيام شهرين وأطلقهما من التفريق أو التتابع.

أما الحديث الثاني فقد قيد صيام الشهرين بالتتابع، لذا يحمل المطلق على المقيد فلا يجزئ صيام الشهرين إلا إذا كانا متتابعين، وإنما قلنا بوجوب حمل المطلق على المقيد في هذه الحالة؛ لأن العامل بالحكم المقيد هو عامل بالحكم المطلق أما العامل بالمطلق فلا يكون عاملاً بالمقيد؛ لذا وجب الجمع بينهما ما دام ذلك ممكناً.

أما الحالة الثانية التي اتفق الأصوليون على عدم حمل المطلق على المقيد منها، فهي حالة اختلاف الموضوع والحكم معاً، مثال هذه الحالة: قوله تعالى في كفارة اليمين في حالة عدم استطاعة الحانث في يمينه أن يطعم أو يكسو أو يعتق: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾[2].

فقد أطلقت الآية الصوم ولم تقيده بالتتابع لذا يجوز التتابع والتفريق في الصيام.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكف.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

أما قوله تعالى في كفارة قتل الخطأ: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾[1]. فقيد الصوم بالتتابع، فلا يحمل المطلق على المقيد في مثل هذه الحالة؛ لأمرين:

أولاً: لاختلاف الموضوعين، إذ الآية الأولى في كفارة اليمين والثانية في كفارة الخطأ.

وثانياً: لأن الحكمين مختلفان في الاثنين.

وهناك حالات مختلف فيها، كحالة اختلاف الموضوع أو الحكم وإن وافق اتحاد أحدهما.

والخلاف طويل بين الأصوليين، يطول بنا المقام إن تحدثنا عنه.

(١) سورة النساء، الآية: ٩٢.

المبحث الثالث
النسخ في القرآن الكريم

التعريف بالنسخ:

كتب فيه خلائق لا يحصون، واتفق على جوازه ووقوعه في القرآن الكريم، ولم ينكره أحد من الأقدمين إلا ما روي عن أبي مسلم الأصفهاني – المعتزلي – ووافقه من المتأخرين الإمام محمد عبده، وتابعه الشيخ الباقوري والشيخ محمد الغزالي وعبدالمتعال محمد الجبري الذي ألف كتاباً في إبطال النسخ، وقد تصدى للرد عليهم الدكتور مصطفى زيد في رسالته القيمة والتي كان موضوعها (النسخ في القرآن الكريم) وقد أثنى على بحثه الشيخ محمد أبو زهرة، والكتاب يقع في مجلدين، وقد استوعب هذه القضية استيعاباً بما لا مزيد عليه، ونحن في هذه العجالة لا نستطيع التعرض لهذه القضية بتمامها بل سنوجز الكلام بما يفيد الغرض في هذا المقام.

معنى النسخ لغة:

للنسخ في اللغة ثلاث معان:

أولاً: بمعنى الإزالة: ومن ذلك قولهم: نسخت الشمس الظلَّ، إذا أزالته أي أذهبت الظِلّ وحلَّت محَلَه، ونسخ الشَيَّبُ الشَبابَ إذا أزالَ سواد الشعر وحل محله بياضه، فهنا الإزالة بعوض أو ببدل، وقد تكون الإزالة من غير عوض كقولهم: نسخت الريح الأثر، أي أزالته ولم تحل مكانه، بل ذهبت هي أيضاً فلم يبق ريح ولا أثر، وبمعنى الإزالة ورد قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

ثانياً: النسخ بمعنى النقل: أي نقل الشيء من موضع إلى موضع ومن ذلك قولهم: نسخت الكتاب: أي نقلت ما فيه، ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

ثالثاً: النسخ بمعنى البدل: ذكره ابن منظور في لسان العرب فقال إن النسخ تبديل الشيء من الشيء وهو غيره، والنسخ أيضاً نقل الشيء من مكان إلى مكان، وهو هو، فهو يفرِّق بين التبديل والنقل في نقل الشيء عينه من مكان إلى آخر دون تغيير.

وقد اختلف علماء اللغة في المعنى الحقيقي والمجازي للنسخ، فقال بعضهم: إن الإزالة هي المعنى الحقيقي والمعاني الأخرى ومنهم من عكس، والخلاف يطول استقصاؤه ولا يترتب عليه أثر يذكر.

معنى النسخ شرعاً:

اختلف مؤلفو علوم القرآن والأصول في تعريف النسخ، فمن قائل بأن النسخ: (هو إبطال الحكم المستفاد من نصٍ سابق بنص لاحق).

ومن قائل: (هو رفع الحكم الشرعي لخطاب شرعي).

وأقوال أخرى لا تخلو من مقال ونقد، وأولى الأقوال وأقربها للصواب أن النسخ (هو رَفْعُ الحكم الشَّرعي بدليلٍ شرعي متأخرٍ).

ما يستفاد من هذا التعريف:

١-أن يكون الحكم المنسوخ شرعياً فلا ينطبق ذلك في رفع الأحكام المبتناة على البراءة الأصلية أو العادات والأعراف الجاهلية أو الأحكام العقلية، هذا ما

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

يفيده رفع الحكم الشرعي.

٢-أن يكون الناسخ شرعياً كذلك، فالشرع لا ينسخ إلا بالشرع، فلا يصح أن يكون العقل ناسخاً لحكم الشرع كما هو الحال الآن في آفة المفتونين الذين ينسخون الأحكام الشرعية وفقاً لمقتضيات العقل مؤولين ذلك بالمصالح والمنافع.

٣-أن يكون الناسخ متراخيا عن المنسوخ، فإذا كان الخطاب المرفوع حكمه مقيداً بوقت معين كقوله تعالى: ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[1]. فإن الحكم ينتهي بانتهاء وقته فلا يقال لهذه الغاية الدالة على انتهاء الحكم إنها نسخ، وذلك لاتصالها بدليل الحكم الأول وهكذا يقال في كل حكم مؤجل بأجل، إذ لا يعني انتهاء أجله أنه نسخ.

دليل مشروعية النسخ:

جاءت الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة بيّنة واضحة تدل على جواز النسخ ووقوعه.

١-أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾[2].

وقد فسرها جمهور المفسرين واستدل بها جمهور الأصوليين وهي من أقوى الأدلة على جواز النسخ.

يقول الإمام المفسرين ابن جرير الطبري:(﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ أي ما نُبدِّل من حكم آية فنغيره، وذلك بأن يُحَوَّل الحلال حراماً والحرام حلالاً،

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٦.

والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي، والحصر والإطلاق، والمنع والإباحة. فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ، أما قوله: ﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ فمعناه نتركها فلا نبدِّلُها. وأما قوله: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ فمعناه: نأت بحكم خير لكم من حكم الآية التي نسخناها، ولا شك أن الخيرية تتحقق بالنسبة للناس في الدنيا إذا كان الحكم الجديد أو الناسخ أخف من الحكم المنسوخ، وتتحقق أيضاً إذا كان فضلاً بالنسبة للآخرة حيث إن الثواب أجزل).

والدليل الثاني قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

قال الزمخشري: تبديل الآية مكان الآية هو النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح، والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد، فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته، وهذا معنى قوله: ﴿ وَ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾.

٢-أما السنة: فقد دل قوله ﷺ على جواز النسخ فقد صح الحديث: "كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها"[2]. وليس معنى الحديث إلا القول بجواز زيارتها بعد النهي عن ذلك، والنسخ لا يعني أكثر من ذلك، أن يُحَوَّلَ الحرامُ حلالاً، والمحظور مباحاً على حد قول ابن جرير الطبري.

٣-أما إجماع الصحابة: فقد انعقد على أن شريعة محمد ﷺ ناسخة لجميع الشرائع السابقة، وانعقد إجماعهم على نسخ وجوب الوصية للوالدين والأقربين بآية المواريث، فإجماعهم على ذلك دليل شرعي على النسخ.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠١.

(٢) سنن ابن ماجه ١/ ٥٠١، ح ١٥٧١.

٤-وأما الدليل العقلي: فإن وقوع النسخ بالفعل وهو أدلُّ دليل على وجوده وعلى جوازه.

وعلى الرغم من تضافر الأدلة على النسخ ووقوعه، فإننا نجد أن طائفة من المنتمين للإسلام قد أنكروا النسخ كما أنكرته الشمعونية والعنانية من اليهود وأيدتهم النصارى.

يقول ابن كثير: (والذي يحمل على البحث في مسألة النسخ إنما هو الكفر والعناد، فإنه ليس من العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله، لأنه يحكم ما يشاء كما أنه يفعل ما يريد، مع أنه وقع ذلك في كتبه المتقدمة، وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حِلّ بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبَنيه، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، وأُمِرَ بنو إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم وبقوا أحياء يذيقون البشرية ألواناً من أحقادهم ولله في ذلك حكمة وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدفون عنه)[1].

المنكرون للنسخ:

أنكر أهل الكتاب اليهود والنصارى وقوع النسخ وجوازه، وزعموا أن النسخ يستلزم البداء، ومعنى البداء لغة الظهور بعد الخفاء، قالوا: لو جاز النسخ على الله تعالى لكان إما لحكمة ظهرت له بعد أن لم تكن ظاهرة، أو لغير حكمة، وكلا الأمرين باطل، لأن الأول بداء، والثاني عبث، والبداء والعبث لا

(١) تفسير ابن كثير ١/ ١٥١.

يجوزان على الله تعالى، إذ كل منهما نقص يتنزه الله أن يوصف به [١].

ويجاب على هذا الزعم بهذا التساؤل، لماذا لا يكون النسخ لحكمة معلومة لله ولم تكن خافية عليه؟ أليس هذا القول السديد؟ بلى ولكن ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[٢].

والعجب أن الرافضة – المرتدة عن الإسلام – قد تجاوزت اليهود في كفرهم وصدهم عن الإسلام، فاليهود ينكرون النسخ لأنه يستلزم البداء، أما الرافضة فيثبتون النسخ المستلزم للبداء فوصفوا الله – تنزه عن ذلك – بالبداء ونسبوا ذلك إلى أئمة آل البيت زوراً وبهتاناً. وقالوا: (البداء ديننا ودين آبائنا).

وأعجب بعد ذلك من قول أبي مسلم الأصفهاني من متأخري المعتزلة الذي قال بجواز النسخ عقلاً ومنع وقوعه شرعاً واستدل بقوله تعالى: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٣].

وقد حذا حذوه الإمام محمد عبده ، وتبعهم لفيف من المتأخرين.

فهؤلاء جميعاً لم يحالفهم الصواب، وليس لهم دليل إلا التحكم العقلي. والحقيقة أننا بحاجة إلى وقفة هادئة متأملة في موضوع نسخ بعض الأحكام في شريعة رسولنا خاتم النبيين محمد ﷺ في فترة نزول القرآن السابقة، خصوصاً ونحن ما نزال نتلو هذه الآيات المنسوخة إلى جانب أننا مطالبون بعد عصر التنزيل بالأحكام النهائية التي آلت إليها الشريعة وثبتت عليها بانتهاء الوحي ووفاة النبي ﷺ، فوق ما هو مقرر ومعلوم بالبداهة عند جميع المسلمين من

(١) النسخ في القرآن ٢/ ٢٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

امتناع وقوع النسخ بعد انقطاع الوحي.

لقد تم النسخ، - كما هو معلوم- في ظل مبدأ تنجيم القرآن الكريم، أي: نزوله مفرقاً على نجوم؛ أي دفعات ومراحل مختلفة بلغت في مجموعها نحواً من ثلاث وعشرين سنة كما أشرنا إلى ذلك، وكان لهذا التنجيم فوائده الكثيرة المعروفة ولكن الفائدة الرئيسية أو الغرض الأساسي من هذا التنجييم تكمن في أنه كان هو الوسيلة الربانية لإعداد الفرد المسلم والأمة المسلمة بوصف هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس لأول مرة في التاريخ من خلال نصوص كتاب.. فإذا كان القرآن الكريم هو الذي صنعها وأخرجها للناس خير أمة فقد تنزلت آياته الكريمة على مراحل وأوقات وفي مناسبات لأحكام بناء هذه الأمة الخيرة، أو الأمة الوسط لَبِنَةً لَبِنَةً، وآية آية، وموقفاً في أثر موقف على اختلاف الظروف والأحوال، ويختص الجيل القرآني الأول – أو جيل التنزيل – إن صح التعبير – فوق ذلك بأنه الجيل الوحيد أو الجيل الأول في تاريخ هذه الأمة الخيرة الذي عبر به القرآن الكريم من أوضاع الجاهلية إلى أحكام الإسلام، وانتقل به من جميع ملابسات الشرك إلى آفاق التوحيد. حتى حقق به القرآن الكريم ذلك (الجيل النموذج) أو (الجيل المثال) الذي يُحتذى به إلى يوم الدين.

هذا الجيل القرآني الفريد الذي ليس له نظير في تاريخ الإسلام وفي تاريخ بني الإنسان كان النسخ بالنسبة إليه واحداً من أعمق وأهم وسائل التربية والإعداد في بناء شخصياته على الصعيد الفردي، وفي مواجهته على الصعيد الجماعي – كأمة ومجتمع – مع الجاهلية العربية وسائر الجاهليات الأخرى في الأمم والشعوب، بل قد يمكننا القول: إن النسخ كان ضرورة لابد منها لنقل أبناء عصر التنزيل من الجاهلية إلى الإسلام بدليل أنه جاء مرة نسخاً مباشراً وجاء مرة أخرى على مراحل ولكن الذي يهمنا تأكيده هنا هو أن النسخ الذي عمل عمله في إعداد ذلك الجيل الفريد لا معنى لاستمراره بل لا يمكن له من

أي وجه أن يوجد بعد ذلك العصر، ونحن نتربى الآن بالاقتداء والتأسي بذلك الجيل لا بالنسخ الذي ساهم في صنعه هو بالتربية بالنسخ – إن صح الشعار أو التعبير – بالنسبة لجيل التنزيل، يقابله بالنسبة لسائر الأجيال الأخرى بعده: التربية بالقدوة أو الاحتذاء بذلك الجيل الذي تمثلت فيه حجة الله على عباده يوم الدين.

وقد نجح جيل الصحابة رضي الله عنهم في تقديم أرفع النماذج الإنسانية في كل مجال أما رسول الله ﷺ الذي قدمت لنا سيرته الشريفة أهم وسائل ذلك الإعداد التاريخي، وألقت ضوءاً على فهم مراحله، فقد تجمع في شخصه الكريم كل تلك الصفات والمجاملات الرفيعة، وبلغ في كل واحد منها شَأْواً لم يبلغه أحد ممن فرغ له نفسه، سواء أكان من الصحابة أم من غيرهم، فكان بذلك رسول الإنسانية الكامل وملاذها الأخير ﷺ.

كان تشريع النسخ إذاً جزءاً من ذلك الإعداد التاريخي المرحلي أو وسيلة من وسائله البارزة وبعد أن تم هذا الإعداد الذي قدم لنا النموذج أو المثال الأخير كما قلنا أصبحت الأمة الإسلامية مطالبة بالأحكام الأخيرة في البناء والإعداد، وأصبح النسخ (واقعة تاريخية) لا يمكن ولا يعقل تكرارها مرة أخرى بعد قيام الجيل الأول، وبعد أن تمت عملية الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام بصورة تطبيقية عملية أعطت أروع الأمثلة وأعمقها على أن أحكام الإسلام ليست رؤيا مثالية في عالم الخيال ولكنها حقيقة حية في دنيا الواقع.

وبذلك البعد الهائل الذي ليس له نظير حتى كان مثلاً يحتذى، نقول أصبح النسخ واقعة تاريخية لا يعقل تكرارها، كما لم تعد هناك ضرورة لتكرار الجزئيات المرحلية في تربية الشخصية المسلمة والأمة المسلمة.

طريق معرفته:

لا يصح القول في النسخ جزافاً، فلا يعتمد في النسخ على قول المفسرين، ولا اجتهاد المجتهدين، من غير نقل صريح ولا معارضة بينة، لأن النسخ يتضمن رفع حكم، وإثبات حكم تقرر في عهده ﷺ، والمعتمد فيه النقل والتاريخ دون الرأي والاجتهاد كما قال ابن الحصار.

هذا ما أوقع الكثير من العلماء في الخطأ فبمجرد ظهور شبهة التعارض يلجأون إلى القول بالنسخ في حين أن الجَمْعَ بينهما ممكن، ولا شك أن الجمع هو الأول من إهمال أحدهما بل الجمع ولو من وجه الوجوه أولى من إهمالها من كل الوجوه وادعاء النسخ فيهما، لأن النسخ على خلاف الأصل وما كان خلاف الأصل لا بد من بينة عليه ولا لم تقم به حجة، وهذه الحجة: إما أن ينص اللاحق على أنه ناسخ للسابق لفظاً أو دلالة، كما سيأتي ذكره في آيات المناجاة، أو آيات الزنا، أو ما ورد في الحديث الشريف: "كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها".

وإما أن يكون بين النصين تعارض بحيث لا يمكن التوفيق بينهما، فينظر في النصين المتعارضين، فإن كان أحدهما معلوماً وقطعياً والآخر مظنوناً فالعمل بالمقطوع واجب.

وإن كانا معلومين مقطوعاً بهما، أو ظنيين في درجة واحدة من القوة ينظر إلى القرائن، كأن يكون أحدهما متأخراً عن الآخر فيكون المتأخر ناسخاً والمتقدم منسوخاً.

وقد يعرف التاريخ (مثلاً) من إسناد الراوي كأن يقول هذا الحديث في غزوة كذا أو سنة كذا أو يقول نزلت هذه الآية في مكة والأخرى في المدينة أو نحو ذلك.

أما إذا جهل التاريخ فلا نسخ، وأحدهما ليس بأولى من الآخر بالنسخ، وكل من ادعى غير ذلك فقوله مردود لعدم معرفته التاريخ.

أقول: لم أطلع على دليلين قطعيين (أعني قطعي الثبوت وقطعي الدلالة) قد تعارضا من كل الوجوه.

أما في الأدلة الظنية التي وقع فيها التعارض، فالقرائن لا تحصى في إعمالها فنلجأ إليها وإن تعذرت فالقرائن كثيرة كذلك في تقديم أحد الدليلين ونسخ أحدهما.

أنواع النسخ:

جرت عادة علماء التفسير والأصول أن يذكروا للنسخ أنواعاً ثلاثة: نسخ الحكم دون التلاوة، ونسخ التلاوة دون الحكم، ونسخ الحكم والتلاوة معاً، وقد يكون وَلَعَّهم بالتقسيم والتبويب هو الذي شجعهم على اعتماد مثل هذه الأقوال، وذكرها في بطون الكتب، على ما فيها من مخالفة واضحة ونبو صريح عن نظم القرآن وأناقة أسلوبه المعجز، ومخالفة أخرى لا مجال هنا للإشارة إليها[1].

وهناك الأنواع الثلاثة:

١-منسوخ الحكم دون التلاوة:

هذا النوع الوحيد الجدير بالقبول؛ لذا فقد اتفق العلماء على وقوعه وجوازه ولم يشذ عن إجماعهم إلا من ذكرناه سابقاً، ولكن الذين اتفقوا على وقوعه وجوازه قد اختلفوا في عدد الآيات المنسوخة؛ فمنهم المكثر، ومنهم المقتصد، ومنهم المقل، ونحن نرفض قول المفرطين في كثرة دعاوي النسخ التي

(١) علوم القرآن ص٢٠٤.

تجاوزت المئات، وهي أقوال لا تدل عليها فطرة من عقل، ولقد حصر الإمام السيوطي قضايا النسخ في عشرين موضعاً واختصرها مصطفى زيد بما لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة وهاك من الأمثلة المتفق عليها [١].

كان قيام الليل – قبل فرض الصلوات – فرضاً على رسول الله ﷺ وعلى أمته لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾[٢].

فمكث يجتهد بقراءة القرآن حتى نزول قوله تعالى في آخر السورة: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَ اللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهَّ وَآَخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهَّ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللهَّ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهَّ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[٣].

وبهذا صار التهجد تطوعاً من الرسول بعد أن كان واجباً عليه وفي هذا تقول عائشة فيما رواه مسلم عنها: (فإن الله عز وجل افترض قيام الليل في أول السورة – تقصد سورة المزمل – فقام النبي ﷺ وأصحابه حولاً وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف

(١) انظر: التشريع الإسلامي فقد ذكر أن في حصر السيوطي نظر، وانظر: كتاب النسخ في القرآن الكريم، ومباحث في علوم القرآن للقصبي زلط.

(٢) سورة المزمل، الآيات: ١-٤.

(٣) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

فصار قيام الليل تطوعاً بعد فريضة)[١].

ومثال آخر على منسوخ الحكم دون التلاوة:

ما ذكره المفسرون في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[٢].

فقد نسخ بقوله تعالى: ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَّ وَرَسُولَهُ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٣].

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾[٤].

فهذه الآية قد حرمت شرب الخمر في أوقات الصلاة؛ لذا شربها بعض الصحابة في غير وقت الصلاة وكان عمر يقول: (اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً)[٥]. ثم نزل تحريم الخمر قاطعاً وناسخاً لما تقدم فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٦]. فأصبح شربها حراماً في كل وقت وفي كل حين.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ١/ ٥١٢ مختصراً.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٢.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٥) سنن النسائي (٨/ ٢٨٦ ٥٥٤٠). وهو صحيح.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٩٠.

هذا النوع – منسوخ الحكم دون التلاوة – هو المتفق عليه، ووجوده في القرآن شاهد عيان، فآياته ما زالت تتلى في كل وقت وكل حين.

وفي وجود الآيات وانتفاء التكليف بها فائدة عظيمة وهذا من تمام الحكمة الربانية أن تبقى الآيات القرآنية التي نسخ حكمها تقرأ بألفاظها إلى يوم الدين، لترى فيها سائر أجيال هذه الأمة كيف تم إعداد جيلها المثالي الأول، وما هي الأحكام المرحلية التي احتاجت إليها الجماعة الإسلامية النموذج في أطوار نشأتها وتدرجها، وكيف تم قطع علاقتها بالجاهلية، وربطت بأسباب الحياة الإسلامية والدين الجديد الأخير الخالد، وربما أمكننا إيراد كلمة سيدنا عمر رضي الله عنه عندما قال: (إنه يخشى أن ينتقض عرى الإسلام عروة عروة من لم يعرف الجاهلية وأحكامها).

وليس من شك في أن استعراض هذه الآيات الكريمة التي نسخ حكمها يقفنا على طريقة القرآن الكريم في تربية هذه الأمة – بوجه عام – تربية عملية واقعية متحركة لا تقف عند بعض الوسائل لا تتخطاها أو بعبارة أخرى: نحن نأخذ الآن فلسفة هذا الموقف من خلال الحكمة العملية التربوية فيما رواه الحكم المنسوخ لتفيد منه في مخاطبة الناس، وفي محاولة التغيير وفي الوقوف على الكثير الكثير من سنن الله عز وجل في النفس والمجتمع، وفي وسائل الدعوة وطرق الإصلاح، وتقف الآيات المنسوخة في هذا الباب هدى ومعالم بارزة كأعمق ما يكون الهدى، وأوضح ما تكون المعالم [1].

٢-منسوخ التلاوة دون الحكم:

استدل القائلون بنسخ التلاوة مع بقاء الحكم بما روي عن عمر بن

(١) علوم القرآن، ص٢٠٤.

الخطاب أنه قال: (كان فيما أنزل في آية الرجم يعني: (الشّيْخُ والـشَيْخَةُ إذا زَنَنيا فارجموهما ألبتة قرأناها ووعيناها وعقلناها فرجم رسول الله فرجمنا بعده)[1].

(١) قال أستاذنا الشيخ محمد الصادق عرجون في كتابه محمد رسول الله: (وقد بينا بياناً شافياً أن ألفاظ ما زعموه آية قرآنية نزلت في وجوب حد الرجم لمن زنى بعد إحصان في رواياتهم (الشيخ والشيخ إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالاً من الله) لم تكن قط من ألفاظ القرآن ولا ألفاظ الحديث الشريف، فلم يستعملا كلمة (الشيخة) في معنى الإصان ولا كلمة (الشيخ) في هذا المعنى، وكذلك كلمة (ألبتة) لم ترد في القرآن الحكيم ألبتة، لا فيما ثبتت قرآنيته بالتواتر ثم نسخ، ولا فيما أحكم فلم ينسخ منه شيء. هذا وجه إن لم يدل صراحة على بطلان الرواية فهو دال على استبعاد نزول آية قرآنية في زعم من رواها قرآناً بألفاظ طرحها القرآن والحديث فيم يستعملاها في المعنى المقصود للرواية وهذه وجهة نظرية ترجع إلى خصائص القرآن في ألفاظه وملاءمتها في الفصاحة ولطف الأداء، وهي كافية في إلقاء الشك في قرآنية هذا الكلام. ويؤيد ذلك تأييداً واضحاً أن الإمام البخاري وهو سيد المحدثين في صحة سنده ترك هذين اللفظين (الشيخ والشيخة) وطرحهما من روايته عمداً كما قال شارحه الحافظ ابن حجر، وهذا يدل دلالة بينة على أن الإمام البخاري رحمه الله لم ير أن هذين اللفظين (الشيخ والشيخة) من الحديث، ولا أن النبي صلى الله عليه وسلم قالهما، لا على أنهما قرآن نزل ثم نسخ، ولا على أنهما غير قرآن. قال البخاري: حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا سفيان عن الزهري، عن عبيد الله بن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال عمر: لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا تجد آية الرجم في كتاب لله فيضلوا ترك فريضة أنزلها الله، ألا وإن الرجم على من زنى وقد أحصن إذا قامت البينة، أو كان الحمل أو الاعتراف. قال سفيان: كذا حفظت، ألا وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده. فهذا الحديث وهو من أعلى وأرفع الأسانيد لم يذكر فيه (الشيخ والشيخة) ومعناه كله منصب على إ ثبات حد الرجم للمحصن، وهو أمر مجمع عليه من الأمة سلفها وخلفها، ولم يشد عن هذا الإجماع إلا طوائف من الخوارج والمعتزلة، فإنهم أنكروا حد الرجم، وقالوا لم يكن الرجم في كتاب الله، وقول عمر: (فيضل من فريضة أنزلها الله)، يحتمل أن المراد من إنزال الله إياها وحيه بها إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وحياً غير قرآني، فتكون فريضة الرجم ثابتة بوحي السنة، ويدل لذلك قول عمر رضي الله عنه: (ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن)، بل يجب حمل كلام عمر على هذا الوجه السديد. وهذه الحقيقة للرجم لا يلزم أن تكون ثابتة بنص قرآني، بل يكفي فيها أن تكون ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث صحيح، كما يستفاد ذلك من قوله: "ألا وأني آوتيت الكتاب ومثله معه". فالبخاري رحمه الله لم يذكر في روايته الثابتة الصحيحة (الشيخ والشيخة) لأنها لم تثبتنا عنده، لا لأنهما سقطتا من روايته، كما تقوله عليه بعض من يجري وراء السراب. وإخراج الإسماعيلي لهذا الحديث من طريق الفريابي عن شيخ البخاري علي بن عبدالله وفيه: وقد قرآناها: (الشيخ والشيخة إذا زنينا فارجموهما ألبتة) لا يلزم البخاري صحة هذه الرواية، ولهذا قال ابن حجر: ولعل البخاري هو الذي حذف ذلك=

=عمداً، ولكن ابن حجر لم يعلل لترك البخاري بهذه اللفظين، ولم يوجد تعمد البخاري حذفه لهذه الزيادة التي جاء بها من رواية الإسماعيلي من رواية جعفر الفرياني، والظاهر أنها لم تصح عند البخاري، ولذلك تعمد حذف هذين اللفظين. ويؤيد صنيع البخاري في تعمده حذف هذه الزيادة لعدم صحتها عنده أن النسائي أخرج هذا الحديث عن محمد بن منصور، عن سفيان كرواية أبي جعفر الفرياني، أي بزيادة (الشيخ والشيخة) وقد عقب النسائي على ذلك فقال: ما أعلم أحداً ذكر في هذا الحديث (الشيخ والشيخة)، غير سفيان، وينبغي أن يكون وهم في ذلك، ويؤيد توهيم النسائي لسفيان في ذكر هذه الزيادة قول الحافظ ابن حجر: وقد روى الأئمة هذا الحديث من رواية مالك، ويونس، ومعمر، وصالح بن كيسان وعقيل وغيرهم من الحفاظ عن الزهري فلم يذكروها – أي الزيادة (الشيخ والشيخة)، ووقوع الزيادة في الموطأ من رواية يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب لا يقاوم عدم ذكرها من رواية الجماعة وفي طليعتهم الإمام مالك رحمه الله. وقول عمر رضي الله عنه: لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها في آخر القرآن معارض لما جاء حديث أبي بن كعب عند النسائي والحاكم من قوله: ولقد كان فيها – أي في سورة الأحزاب – آية الرجم (الشيخ والشيخة) ولو كانت موجودة في سورة الأحزاب فكيف لم يعرفها عمر مكتوبة فيها؟ ويقول: (لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها في آخر القرآن). وفي وراية عنه قرأناها: الشيخ والشيخة، وهذا يدل على أن الذين قرأوها جماعة فأنى ذهبت؟ وكيف يخشى عمر بن الخطاب قالة الناس وهو من هو في قوة الدين، وشدة الشكيمة وصلابة الشوكة ومضاء العزيمة، وشدة البأس في أمر يجب عليه أن يقوم به ولو كان في ذلك حتفه، وجميع مواقف عمر في الإسلام تشهد بأن هذا يعيد جداً عن خلائقه وأخلاقه. وليس في حديث زيد بن ثابت أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الشيخ والشيخة، ما يشعر قط أن هذا قرآن منزل من عند الله، وزيد بن ثابت أكثر كتّاب الوحي لزوماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأعظمهم حظاً في كتابة وحي القرآن، فلو كان الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآناً لأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتبه في المصحف. وفي حديث خالة أمامة بن سهل أنها قالت: لقد أقرأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الرجم، ولم يبين هذا الحديث نص الآية المزعومة، وقد جاء في هذه الرواية زيادة (بما قضيا من اللذة) وهذه زيادة لا وجه لذكرها، لأن قضاء المدة ليس خاصاً بالشيخ والشيخة، فهي زيادة تشير إلى ضعف الرواية، كما أن هذا الزيادة (بما قضيا من اللذة) إلى جانب أنها لفظة لم تعهد في ألفاظ القرآن واستعمالاته، فسبيلها سبيل لفظي (الشيخ والشيخة)، كما أنها بعيدة عن مواقعة الأدب اللفظي والمعنوي. وقد روى أبو عبيد القاسم بن سلام حديث خالة أمامة بن سهل فقال بعد سرد سنده: عن أبي أمامة بن سهل أن خالته قالت: لقد أقرأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الرجم: الشيخ والشيخة فارجموهما ألبتة بما قضيا من اللذة. وأبو عبيدة صاحب طامات في هذا الموضوع: رواها عنه السيوطي في الإتقان. وفي حديث مروان بن الحكم عند النسائي أنه قال لزيد بن ثابت: ألا نكتبها في المصحف؟ قال زيد رضي الله عنه: لا، ألا ترى أن الشابين الثيبين يرجمان، وهذا يفيد أن زيد بن ثابت لم يتحقق عنده أن ما سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول (الشيخ والشيخة) قرآن تجب كتابته في المصحف.

وهذه الرواية إسنادها صحيح، وفي متنها نظر، فقد روي عن عمر قوله: (لولا أن يقول الناس زاد عمر في المصحف لكتبتها)، وهو كلام يوهم أنه لم ينسخ لفظها أيضاً، مع أنهم يقولون إنها منسوخة اللفظ باقية الحكم، ورواية تذكر فيه الزنى بعد ذكر الشيخ والشيخة، ورواية أخرى لا تذكره، ورواية تذكر عبارة (نكالاً من الله)، ورواية لا تذكرها، بل رواية البخاري لا تذكر الشيخ والشيخة، وما هكذا تكون نصوص الآيات القرآنية ولو نسخ لفظها.

لذا فقد جزم الكمال بعدم الأخذ بالروايات قائلاً: (وأما ما نظر به من الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما، فلولا ما علم بالسنة والإجماع لم يثبت به). إن هذا الحديث المروي عن عمر لا يمكن اعتباره قرآناً بحال من الأحوال، لأن القرآن لا يثبت برواية الآحاد وإن صحت، ذلك لأن القراءات القرآنية لا تثبت قرآنيتها إلا بالتواتر، وإلا ردت وحكم عليها بالشذوذ ولو صحت روايتها آحاداً، قال أبو جعفر النحاس: (وإسناد الحديث صحيح، إلا أنه ليس له حكم القرآن الذي نقله الجماعة، ولكنه سنة ثابتة).

ونختم الحديث عن هذا النوع بما قاله الدكتور مصطفى زيد: (ومن ثم يبقى منسوخ التلاوة باقي الحكم مجرد فَرْضَ، لم يتحقق في واقعة واحدة، ولهذا نرفضه ونرى أنه غير معقول ولا مقبول، فإن القول بأنه سقط شيء من القرآن، أو أنه لم يتواتر فلم يثبت في القرآن قول لا يسنده دليل ويجعل للمغرضين صيداً ثميناً للنيل من القرآن، فرد الروايات أهون من الدخول في المتاهات [1].

٣-منسوخ التلاوة والحكم معاً:

استدل القائلون بما روي عن عائشة: (كان فيما أنزل الله عَشْرُ رَضْعاتٍ

(١) علوم القرآن، ص٢٠٤.

معلومات يُحَرِّمَن، فَنُسِخْنَ بَخَمْسٍ مَعْلوماتٍ، فتوفّي رسول ﷺ وَهُنَّ فيما يُقْرأ من القرآن)[١].

وفي هذا النوع من النسخ كلام مثل ما سبق وقلناه عن النوع السابق قال الزركشي: (الأخبار فيه أخبار الآحاد، ولا يجوز القطع على إنزال القرآن ونسخه بأخبار آحادٍ لا حجة فيها)[٢].

أما الشيخ محمد علي السايس فقد نقل قول بعض العلماء بأن حديث عائشة الذي رواه مالك وغيره لا يصح الاستدلال به، لاتفاق الجميع على أنه لا يجوز نسخ تلاوة شيء من القرآن بعد وفاة رسول الله ﷺ، ولا إسقاط شيء منه، وهذا الحديث يفيد أنه سقط شيء من القرآن بعد وفاته .. وهذا هو الخطأ الصراح [٣].

النسخ بين مصادر التشريع الإسلامي:

وأعني بالمصادر الكتاب والسنة والإجماع والقياس:

أولاً: نسخ القرآن بالقرآن قد بينا القول فيه وفي أنواعه.

ثانياً: نسخ السنةِ بالسنةِ اتفق العلماء على جوازه كذلك، حتى نفاة وقوع النسخ في القرآن ذهبوا إلى القول بهذا النوع، والمثال عليه واضح مثل: "كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فَزوروها".

ثالثاً: نسخ السنة بالقرآن وحوادثه كثيرة، منها: ما ورد في الصحاح أن النبي ﷺ كان يتوجه في الصلاة إلى بيت المقدس ثم نسخ ذلك بقوله تعالى:

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الضراع، باب التحريم بخمس رضعات ٢/ ١٠٧٥ ح ١٤٥٢.

(٢) البرهان ٢/ ٣٩.

(٣) تفسير آيات الأحكام ٢/ ٦٩.

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[١].

وقد جعل الإمام مسلم في صحيحه باباً سماه (تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة).

شبهة مردودة هذا النوع من النسخ:

لقد ورد في تفسير ابن كثير مثال على هذه الحالة في شروط صلح الحديبية إذ كان من شروطها "على ألا يأتيك أحدٌ منا إلا رددته إلينا" وفي رواية "مَنْ جاءك منا"[٢].

ثم قالوا إن آية الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾[٣].

فأمرت الآية بعدم رد النساء، أو على حد تعبير بعض المفسرين فنسخ الله في حق النساء، ولكن كما يقولون يلزم منه القول بنقض العهد، هكذا قالوا، وزعم المستشرقون ومن في قلبه مرض أن رسول الله ﷺ هو الذي بدأ بنقض العهد حين نزلت عليه آية الممتحنة المذكورة.

والحق أنه لا نسخ للسنة بالقرآن في هذه الحادثة؛ لأن أكثر ما يقال في هذا الأمر وحسب الروايات المذكورة أنها من باب تخصيص القرآن للسنة، وقد خلت كتب الأصول من التمثيل عليه، ويعتبر هذا من أحسن الأمثلة على

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢١٤، ٣٧٢.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

تخصيص القرآن للسنة كما ذكره ابن كثير هو المثال الوحيد.

أما قول بعض المفسرين أن هذا نسخ فإن هذا على رأي من يقول إن التخصيص بالمنفصل هو نسخ جزئي في رأي لأحد المجتهدين.

والحق أن هذه الآية لم تنسخ، ولم تخصص الروايات المذكورة؛ إذ ثبت في صحيح البخاري "على ألا يأتيك رجل منا إلا رددته إلينا"(١) وفي هذه الرواية تفسير لكلمة أحد الواردة في إحدى الروايات الصحيحة برجل الواردة في الروايات الأخرى، وعندها لن تكون الآية في حق النساء ناسخة ولا مخصصة والله أعلم.

رابعاً: نسخ القرآن بالسنة، أما هذا النوع فقد ذهب الشافعي إلى منعه وعدم جوازه، وذهب جمهور العلماء إلى جواز نسخ القرآن بالسنة.

وندع المناقشة بين الفريقين والتي لا يترتب عليها أثر؛ إذ لم نجد فيه واقعة واحدة من وقائع النسخ على هذا النوع، ومن هنا نرى أن الخلاف الذي قام حول جوازه خلاف نظري، يحسمه عدم وقوعه وعدم وجوده.

خامساً: أما نسخ الإجماع فإن الإجماع كما قال الأصوليون لا يُنْسَخ ولا يُنْسَخُ به، إذ لا يتصور أن يحصل إجماع على نسخ نص، إذ لا يصح الإجماع مع وجود النص، كما لا يصح أن ينسخ إجماع إجماعاً لعدم صحة أحدهما والكلام يطول في هذا النوع وفي النسخ بالقياس وفي كتب الأصول المزيد لمن أراده.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

الفرق بين النسخ والتخصيص

١-إن الناسخ يأتي على حكم المنسوخ فيزيله بالكلية، وبعبارة أخرى يبطله ويلغيه ويخرجه عن اعتباره دليلاً، أما التخصيص فلا يلغي العام بالكلية، بل يبقى حكم العام معمولاً به ولكنه لا يستغرق جميع أفراده بل جزءاً منهم، ويبقى العام بعد تخصيصه دليلاً ثابتاً للحكم فيما أبقاه المخصص.

٢-إن الناسخ لا يأتي إلا متأخراً عن المنسوخ، أما التخصيص فيكون مقارناً للعام أو متأخراً عنه بل قد يتقدم عليه في رأي.

٣-النسخ لا يقع في مجال العقائد والأخبار والقصص القرآني بل يقع في مجال الأحكام، أما التخصيص فمجاله جميع ما تقدم دون استثناء.

وفروق أخرى مختلف فيها فلا نذكرها لنمضي إلى المفارقة بين النسخ والتقييد فنجملها بما يلي:

١-إن العامل بالناسخ لا يكون عاملاً بالمنسوخ قطعاً، بينما العامل بالمقيد هو عامل بالمطلق حتماً.

٢-من شروط النسخ تأخر الناسخ عن المنسوخ وليس هذا بلازم في المطلق والمقيد إذ قد يتأخر المقيد عن المطلق أو يلازمه أو يتقدم عليه، وفروق أخرى.

هذه الشروط التي نرى من الضرورة معرفتها، ولا يفوتنا أخيراً ذكر قاعدة صلبة في التفريق بين التخصيص والتقييد، وهي أن العامل بالمقيد هو عامل بالمطلق بينما العامل بالمخصص لا يكون عاملاً بالعام، فمن صام شهرين متتابعين فقد صام شهرين قطعاً، كما بينا في الأمثلة السابقة، أما فيما يتعلق بالعام والخاص فلا يكون من رجم الزاني المحصن قد عمل بالعام بوجه من الوجوه لعدم وروده أصلاً في النص العام.

الفصل السادس
مباحث في علوم القرآن والأصول

المبحث الأول: المُحْكَمُ والمُتشابه

المبحث الثاني: المنطوق والمفهوم

المبحث الثالث: المجمل، والمبيَّن

المبحث الرابع: أسلوب القرآن

المبحث الخامس: الوجوه والنظائر

المبحث السادس: أمثال القرآن

المبحث السابع: القسم في القرآن

المبحث الثامن: الجدل في القرآن الكريم

المبحث الأول
المُحْكَمُ والمُتشابه

مدلولهما اللغوي:

أ-المُحْكَم: تقول العرب: حاكمت وحكمت وأحكمت بمعنى: رددت ومنعت، والحكم يمنع الظالم عن الظلم، وحَكِمَة اللجام هي التي تمنع الفرس عن الاضطراب، وفي حديث النخعي: أحكم اليتيم كما تحكم ولدك أي امنعه عن الفساد.

قال جرير:

أبني حنيفة احكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا

أي امنعوا سفهاءكم.

وبناء محكم أي وثيق يمنع من تعرض له، وسميت الحكمة حكمة لأنها تمنع عما لا ينبغي[١]، وقيل إن إحكام الشيء إصلاحه وإتقانه، وإحكام آيات القرآن إحكامها من خلل يكون فيها أو بقدر ذو زيغ أن يطعن فيها من قبله[٢].

ب-المتشابه: أما المتشابه فهو أن يكون أحد الشيئين مشابهاً للآخر بحيث يعجز الذهن عن التمييز بينهما.

قال الله تعالى: ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾[٣] أي متفق المنظر مختلف الطعوم،

---

(١) التفسير الكبير للرازي، ٧/ ٢٢٥، وانظر: القاموس المحيط في مادة (حكم) وكذلك جامع البيان للطبري بتحقيق محمود شاكر ٥/ ٢٢٥ وما بعدها، وتفسر أبي حيان ٥/ ٢٠٠، ط بيروت.

(٢) انظر: القاموس المحيط ومناهل العرفان ٢/ ١٦٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

وقال تعالى: ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[١]. ومنه يقول (اشْتَبَهَ عليه الأمران) إذا لم يفرق بينهما. قال عليه السلام: "الحلالُ بيِّن والحرامُ بيِّن وبينهما أمور مُشْتَبِهات"[٢].

ثم لما كان من شأن المتشابهين عجز الإنسان عن التمييز بينهما، سمي كل ما لا يهتدي الإنسان إليه بالمتشابه إطلاقاً لاسم السبب على المسبب.

مدلولها الاصطلاحي:

يجدر بنا قبل الحديث عن مدلول المحكم الاصطلاحي أن نسوق الآيات القرآنية الواردة في هذا الموضوع، فآية تصف القرآن كل القرآن بأنه مُحْكَم، وآية تصف القرآن كل القرآن بأنه مُشابه، وآية تصف القرآن بأن منه المحكم والمتشابه. وحيث إننا نعلم أن القرآن منزه عن التناقض فإننا نجزم أن هذه الآيات لا تناقض فيها، بل لكل آية معنى سديد ودقيق يُلحظ بالتأمل والتمحيص والتحقيق: فالآية القرآنية: ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾[٣]. تُفيد إحكام القرآن كله آية آية، وسورة سورة، وتكاد كلمة المفسرين – قديماً وحديثاً – تجمع على معنى واحد لهذه الآية، وإن اختلفت تعابيرهم، فالطبري والرازي وأبو حيان يقولون: إن معنى أحكمت آياته: نظمت تنظيماً رصيناً لا نقص فيه ولا خلل فيها كالبناء المحكم، فمعنى أن القرآن كله محكم كونه كلاماً حقاً، فصيح الألفاظ، صحيح المعاني، وكل قول

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشتبهات.

(٣) سورة هود، الآية: ١.

وكلام كان القرآن أفضل منه في فصاحة اللفظ وقوة المعنى [١].

قال الطبري: أحكم الله آياته من الدخل والخلل والباطل.

وكذلك نجد المعنى نفسه، بل الألفاظ نفسها عند المفسرين المتأخرين، يقول الجمل في تفسيره الفتوحات الإلهية: (كتاب أحكمت آياته: أي نظمت نظماً متقناً لا يعتريه الخلل بوجه من الوجوه)[٢].

أما القاسمي فقال: (أحكمت آياته نظمت نظماً رصيناً مُحكماً معجزاً لا يَعْتَريه نقصٌ ولا خلل لفظاً ومعنى)[٣].

أما الآية: ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾[٤]. فتفيد أن آيات القرآن يشبه بعضها بعضاً في الإحكام والإتقان فلا يستطيع أحدٌ المفاضلة والتمييز بين آية وأخرى مماثلة في البلاغة والهداية.

قال قتادة: (الآية تشبه الآية والحرف يشبه الحرف)[٥].

أما الآية الثالثة: فقول الله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾[٦].

فقد تقابل فيها الإحكام والتشابه وجعل كلٌّ منها وصفاً لبعض الآيات

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير وبحاشيته تفسير البغوي ٧/ ٢٣٦-٢٣٧، ط المنار.

(٢) ٢/ ٣٨٧ طبعة دار الاستقامة بالقاهرة.

(٣) محاسن التأويل ٩/ ٣٤٠٨.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

(٥) التفسير الكبير ٧/ ١٦٧، ط٢، دار الكتب العلمية طهران، وكذلك جامع البيان والبحر المحيط في تفسير الآية نفسها.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٧.

دون بعض.

هذه الآية هي موضوع حديثنا، وهي تفيد أن القرآن الكريم يشتمل على المحكم والمتشابه معاً، وقد اختلف العلماء في تحديد معناهما الاصطلاحي، وسأذكرها دون تعرض للأقوال التي لا تستند إلى دليل، ولا إلى المناقشات التي يطول استقصاؤها فقد بلغت عند بعض العلماء مئات من الصفحات ومن أراد معرفتها فليرجع إلى ما كتب فيها من المطولات [١].

القول الراجح أن المحكم ما ظهر معناه وانكشف انكشافاً يرفع الاحتمال ومثاله قول الله تعالى: ﴿ وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾[٢] وقوله: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾[٣]، وقوله:﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[٤].

وأما المتشابه المقابل للمحكم في هذه الآية فهو:(ما احتمل أكثر من معنى)، فمعرفة المعنى يحتاج فيه إلى التدبر والتأمل، ومن العلماء من يرى أن المتشابه مما استأثر الله بعلمه ولا سبيل لأحد إلى معرفته.

ويرجع سبب الخلاف بين العلماء إلى تغاير أفهامهم لمعنى الآية: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا

(١) متشابه القرآن للقاضي عبدالجبار، تحقيق: عدنان زرزور، وانظر: المحكم والمتشابه رسالة دكتوراه للأستاذ إبراهيم خليفة.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

(٣) سورة الإخلاص، الآية: ٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٣٨.

يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾[1].

يرى بعض العلماء الوقف على قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ﴾[2]، والواو في قوله: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ هي واو الاستئناف، والراسخون مبتدأ، وخبره يقولون آمنا به، وعلى هذا القول ينحصر دور الراسخين في القول آمنا به، وردّوا احتمال كون الواو للعطف إذ يقتضي ذلك أن نعرب: ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ حالاً، مع أنه يستحيل أن تكون حالاً من المعطوف عليه، وهو (الله)، والمعطوف (الراسخون) إذ كيف يقول الله معهم آمنا به؟

وقد ذهب إلى هذا المعنى أبي بن كعب وابن مسعود، بل نسبه الحاكم في مستدركه إلى ابن عباس وقال إنه كان يقرأ هذه الآية: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾.

قال الخطابي: وما يعلم تأويل المتشابه إلا الله وحده منفرداً بعلمه.

وقد ذهب بعض العلماء إلى عدم الوقف على كلمة الله، فالواو في كلمة (والراسخون) واو العطف واستدلوا على ذلك:

١-أن الأصل في الواو هو العطف، أما الاستئناف فذلك لا يكون إلا إذا انتهى الكلام الأول وانتهى معناه، ثم يُستأنف بكلام جديد ومعنى جديد، والكلام هنا لم ينته لفظاً ولا معنى، فلا تكون الواو للاستئناف، وما يؤيد ذلك تواتر القراءة، وبها قرأ حفص بعدم الوقوف على لفظ الجلالة.

٢-أما الاعتراض بأن قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ يكون حالاً للمعطوف والمعطوف عليه، وإن ذلك غير جائز في حق الله، فقد أجابوا على

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

ذلك بأن قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ ﴾ هو حال للمعطوف دون المعطوف عليه، خصوصاً إذا وجدت قرينة تدل على ذلك فإنها تنصرف إلى المعطوف فقط دون المعطوف عليه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[١].

فكلمة صفاً حال تخص المعطوف (والمَلَكُ) دون المعطوف عليه (ربُّك)، وكما في قوله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾[٢]. فإن نافلة حال من يعقوب أي من المعطوف دون المعطوف عليه.

٣-وأوضح دليل على أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل القرآن ما روي عن ابن عباس في هذه الآية كان يقول: (أنا ممن يعلم تأويله) وهو يصدق دعاء النبي ﷺ له: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"[٣]. ونسبة هذا القول لابن عباس أي العلم بالمتشابه أصح سنداً من نسبة القول السابق إليه، أي عدم العلم بالمتشابه.

كما روي عن مجاهد أنه كان يقول بمثل أستاذه ابن عباس في العلم بالمتشابه.

٤-إن ذكر الراسخين في العلم في هذه الآية كان لمزية عن سائل الناس، وهذه الميزة لا تكون إلا إذا كان لهم علم بالمتشابه.

على أن جملة (يقولون آمنا به) مع ذلك لا يتعين أن تكون حالاً بل يجوز أن تكون مستأنفة استئنافاً بيانياً أي واقعة في جواب سؤال مقدر كأن قائلاً قال: ما

---

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٢.

(٣) رواه أحمد في مسنده ٤/ ١٢٧ ح ٢٣٩٧ ولفظه: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل" وإسناده صحيح. والحديث في مجمع الزوائد ٩/ ٢٦٧، وعزاه لأحمد والطبراني.

حال أولئك الراسخين الذين شرفوا من دون سواهم من الخلق بعلم تأويل المتشابه، هل غرهم علمهم هذا أو لم يعطوا هذا العلم حقه فأنكروا مقتضاه أم ماذا؟

فكان الجواب: يقولون آمنا به .. إلخ، وعلى هذا التأويل فهم يعلمون كذلك تأويل المتشابه، هذا كله على كون الواو للعطف.

ولبعض الباحثين القائلين بعلم الراسخين بتأويل المتشابه رؤية أخرى، تتمثل في أنه حتى على فرض لزوم الوقف على لفظ الجلالة وكون الواو للاستئناف، فإن الآية لا تقتضي جهل الراسخين بالتأويل، من منطلق أن المعنى حينئذ يكون في هذه الجملة (وما يعلم تأويله) علماً شاملاً محيطاً غير مكتسب إلا الله فلا ينافي ذلك علم غيره بالتأويل لكن على هذا الوجه التام المحيط غير المكتسب.

فعلى هذا، فالآية تخبر عن الراسخين في العلم بأنهم يقولون آمنا به، ولم تتعرض إلى علمهم، ولا إلى عدم علمهم، فهذه قضية مسكوت عنها في الآية، فكونهم يعلمون أو لا يعلمون مما يحتاج إلى دليل مستقل، وقد وجد من الأحاديث ما يدل على علمهم.

مما تقدم يتضح أنه ليس في القرآن متشابه بمعنى الذي لا يفهم معناه، لأن اشتمال القرآن على شيء غير مفهوم يخرجه عن كونه بياناً للناس وهو خلاف ما أخبر الله به.

أما تفسير بعض العلماء للمتشابه بأنه لا يعلم، وأنه مما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة وعلم الغيب وغير ذلك فإننا نقول لهم: إننا معكم أن هذا مما لا يعلمه إلا الله، ونحن نسلم بذلك، ولكن تفسير المتشابه بذلك مما لا نسلّمه.

وبعد: فإن هذا هو الرأي الذي تستريح إليه النفس لقوة حجته، ونُصُوع

برهانه، أما نسبة القول إلى ابن مسعود وأبيّ فإنها لم تصح في مستدرك الحاكم.

كذلك الزعم بأن ابن عباس قال مثل قولهم غير صحيح، بل الأصح أن ابن عباس على خلاف قولهم، وقد تبنى رأيه تلميذه ابن مجاهد الذي قال بقول أستاذه: (أنا ممن يعلم تأويله).

ولقد أيد هذا الرأي علماء أفذاذ كالإمام النووي الذي قال بأنه الأصح، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته.

كما اختاره ابن قتيبة وقال: (ولسنا ممن يزعم أن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم، وهذا غلط من متأوّليه على اللغة والمعنى، ولم ينزل الله شيئاً من القرآن إلا لينفع عباده ويدل على معنى أراده).

ثم قال: (وهل لأحد أن يقول أن رسول الله ﷺ لم يكن يعرف المتشابه، وإذا جاز أن يعرفه مع قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ﴾، جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته فقد علم عليّاً التفسير، ودعا لابن عباس فقال: "اللهم علمه التأويل وفقهه في الدين"، وذكر بعد ذلك أنه لم ير المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن وقالوا هذا متشابه لا يعلمه إلا الله بل أمرّوه على التفسير حتى فسروا الحروف المقطعة في أوائل السور.

منشأ التشابه

قلنا إن المتشابه إنما سمي متشابهاً معناه على السامع الذي قد يكون منشؤه خفاء في اللفظ أو المعنى، وقد يكون ناشئاً عن تركيب الجملة.

والخفاء في اللفظ أو المعنى أو التركيب يحدث الاشتباه والالتباس الذي قد يكون منشؤه اللغة لتردد اللفظ بين الحقيقة والمجاز والوضوح والإبهام ونحو ذلك.

وقد يكون منشأ التشابه عائداً إلى العقل والسمع، وكل ما من شأنه أن يقطع بأن المراد من هذا التشابه أمر غير ظاهر، ولهذا فإن المراد من المتشابهات يجب أن يرجع فيه إلى المحكمات التي جعلها الله بمنزلة (الأم) أي الأصل الواحد الجامع الذي ترد إليه المتشابهات فقوله: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[١]. يرجع في فهمه وتفسيره إلى قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾[٣]. يرجع فيه إلى قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٤].

هذا هو منشأ التشابه وهذه تطبيقات عليه:

قلنا إن التشابه يكون منشؤه خفاء المعنى في اللفظ وهذا قد يكون على جهة التساوي كقوله تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾[٥].

فإن لفظ قرء يحتمل أن يراد به أحد المعنيين المتضادين: إما الحيض أو الطهر.

وقد يكون خفاء المعنى من جهة تركيب الجملة كقوله تعالى: ﴿ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾[٦]. يحتمل أن يراد به الزوج أو الولي وقوله: ﴿ فَإِنْ

---

(١) سورة طه، الآية: ٥.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾[١] يحتمل الزوج أو الولي أيضاً.

وقد يكون خفاء المعنى للفظ لا على جهة التساوي، مثل أن يكون أحد المعاني مرجوحاً والآخر راجحاً، مثل الآيات المتعلقة بالصفات، وكالحروف التي افتتح الله بها بعض سور القرآن: ق، ن، ص، حم وغيرها.

فمن العلماء من قال: إنها سر استأثر الله بعلمه، ومنهم من فسرها، ولكنهم اختلفوا في معانيها اختلافاً كثيراً، فمنهم من رجح أن فواتح السور أسماء للقرآن الكريم ذكره السيوطي وقال: أخرجه عبدالرزاق عن قتادة.

ومنهم من قال: هي أسماء الله وقد أقسم الله بها.

وذهب الزمخشري إلى استنباط معنى مبناه العقل، وقد استحسنه كثير من العلماء فقالوا في معنى هذه الحروف: إن هذه الحروف المفتتح بها بعض السور، منها تتكون الكلمة، ومن الكلمات تتألف الجمل، ومن الجمل يتألف الكتاب، والقرآن مؤلف من مثلها ولا يخرج عنها، فإن كان باستطاعتكم الإتيان بمثله، فأتوا بذلك، وإن عجزتم فاعلموا أن هذا القرآن من عند الله، ولذلك فقد غلب على السور المفتتحة بالحروف أن يعقب ذلك بيان أن القرآن من عند الله: ﴿ الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[٢]. ﴿ حم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾[٣]. ﴿ يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾[٤]. ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾[٥]. ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي

(١) سورة النساء، الآية: ٤.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١-٢.

(٣) سورة غافر، الآيات: ١-٢، وسورة الجاثية، الآيات: ١-٢، وسورة الأحقاف، الآيات: ١-٢.

(٤) سورة يس، الآيات: ١-٢.

(٥) سورة ق، الآية: ١.

الذِّكْرِ﴾[1].

وللزمخشري كلام طويل استوفاه في مطلع سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[2].

وهناك مزاعم لا يعتد بها كالذي تكلم في معنى الحروف واستنبط منها أعمار الأمم وآجالها. ومنهم من استخرج فتوح بيت المقدس في سنة معينة وقد فندها أبو بكر بن العربي وقال: وقد تحصل لي فيها عشرون قولاً وأكثر ولا أعرف أحداً يحكم عليها بعلم ولا يصل منها إلى فهم.

وأخيراً نختتم الكلام عن المتشابه بكلمة موجزة قالها الراغب في المفردات: إن المتشابه بالجملة ثلاثة أضرب:

متشابه من جهة اللفظ فقط.

ومن جهة المعنى فقط.

ومن جهتهما.

فالأول ضربان:

أحدهما: يرجع إلى الألفاظ المفردة، إما من جهة الغرابة نحو الأَبّ وَيَزِفّون، أو الاشتراك كاليَد واليمين.

وثانيهما: يرجع إلى جملة الكلام المركب، وذلك ثلاثة أضرب، ضرب لاختصار الكلام نحو: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ

(١) سورة ص، الآية: ١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١-٢.

لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾[١].

وضرب لبسطه نحو: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[٢]، لأنه قيل ليس مثله شيء كان أظهر للسامع.

وضرب لنظم الكلام نحو: ﴿ أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾[٣].

والمتشابه من جهة المعنى: أوصاف الله تعالى وأوصاف القيامة.

والمتشابه من جهتهما خمسة أضرب:

الأول: من جهة الكمية وكالعموم والخصوص نحو: ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾[٤].

الثاني: من جهة الكيفية كالوجوب والندب نحو: ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾[٥].

والثالث: من جهة الزمان كالناسخ والمنسوخ نحو: ﴿ اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾[٦].

والرابع: من جهة المكان والأمور التي نزلت فيها نحو: ﴿ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٥.

(٥) سورة النساء، الآية: ٣.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾[١].

ونحو: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾[٢].

فإن مَنْ لا يعرف عاداتهم في الجاهلية يتعذر عليه تفسير هذه الآية.

الخامس: من جهة الشروط التي يصح بها الفعل ويفسد كشروط الصلاة والنكاح.

ثم قال: (وهذه الجملة إذا تصورت عُلِم أن كل ما ذكره المفسرون في تفسير المتشابه لا يخرج عن هذه التقاسيم).

وقد علق الزرقاني على هذا التقسيم فقال: وهو كلام جيد غير أن في بعضه شيئاً[٣].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٧.

(٣) مناهل العرفان ٢/ ١٧٦-١٧٧.

المبحث الثاني

المنطوق والمفهوم

لا يتأتى لمفسر أو مجتهد أن يفسر أو يفقه شيئاً من القرآن إلا إذا أحاط بآيات القرآن الكريم، وكيفية دلالتها على المعاني، فلا بد من معرفة منطوق القرآن ومفهومه، وسنتحدث عن المنطوق والمفهوم بإيجاز تاركين التفصيل لأمهات كتب الأصول.

١-المنطوق:

عرفه العلماء: (بأنه ما دل عليه اللفظ في محل النطق) كوجوب غسل الوجه واليدين إلى المرافق، الذي دلت عليه الآية بمنطوقها في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾[١].

والمنطوق إذا دل لفظه على تمام معناه، فالدلالة مطابقة كقوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾[٢].

وإن دل اللفظ على جزء المعنى فهو التضمن، وإن دل اللفظ على الحكم بطريق الالتزام فهو دلالة التزام، كقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾[٣]. فإن من كلف بالنفقة يجب أن يثبت له نسب المولود.

ويجب أن يراعى في دلالة المنطوق بالقرآن حمل دلالة ألفاظه على المعاني الشرعية والتي تكفّل الشارع الحكيم بيانها، فإذا ما ورد في القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾[١].

وجب تفسير الصوم بمدلوله الشرعي لا اللغوي.

فإذا لم يكن للفظ مدلول شرعي وجب أخذ معناه من الحقيقة العرفية في عهده ﷺ فإن تعذر ذلك حمل على المدلول اللغوي.

٢-المفهوم:

عرفه العلماء بأنه: (ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق). فالمعنى المدلول عليه لم يؤخذ من اللفظ المنطوق مباشرة، بل هو مسكوت عنه، وهذا المعنى المستفاد المسكوت عنه إن كان موافقاً في الحكم للمعنى المستفاد من المنطوق، فهو مفهوم الموافقة، وإن كان مخالفاً للمنطوق فهو مفهوم المخالفة، وعلى هذا فالمفهوم قسمان:

القسم الأول: مفهوم الموافقة، أو ما يسمى بفحوى الخطاب أو لحن الخطاب، مثاله قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾[٢].

فالآية تحرم التأفف والنَهْر للوالدين هذا هو منطوقها، وهي تحرّم كذلك الضرب والإيذاء لهما، وإن لم ينطق بهما، إلا أن هذا المسكوت عنه أولى بالتحريم، وهو مفهوم موافقة، لأن حكم ضرب الوالدين موافق لحكم التأفف والنهر لهما في التحريم، وهذا ما يسميه بعض الفقهاء فحوى الخطاب، وقد يكون مفهوم الموافقة المسكوت عنه مساوياً لحكم المنطوق، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾[٣].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٠.

فالآية بمنطوقها قد حرمت أكل أموال اليتامى ظلماً، ويفهم منها تحريم إحراق أموال اليتامى إذا كان مما يحرق، وتحريم الركوب إذا كانت مما يركب فتحريم الحرق أو الركوب وغير ذلك مساو لحكم أكل مال اليتيم.

القسم الثاني: مفهوم المخالفة، أو كما يسميه ابن فورك دليل الخطاب: وهو كما عرفه العلماء دلالة اللفظ على ثبوت حكم للمسكوت عنه مخالف لما دل عليه المنطوق لانتفاء قيد من القيود المعتبرة في الحكم [١].

وقد اختلف في أنواع مفهوم المخالفة تبعاً للقيود المعتبرة وأصح الأقوال أنها أربعة أنواع:

١-مفهوم الصفة: وهو تعليق الحكم بالصفة المفهمة التي تشعر بالعلية فإذا انتفى الوصف انتفى الحكم، مثاله قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾[٢].

فالآية بمنطوقها تدل على وجوب التَبيّن إذا كان المُخْبِر فاسقاً، ومفهوم المخالفة إذا كان المخبر عدلاً وثقة فلا يجب التبيّن والتثّبت بل يقبل قوله وخبره.

٢-مفهوم الشرط: وهو تعليق الحكم على الشيء بكلمة (إنْ) أو غيرها من أدوات الشرط.

فلا خلاف أن المشروط لا يثبت إلا بثبوت الشرط فإذا انتفى الشرط انتفى المشروط فقول تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾[٣] يدل على وجوب النفقة إذا كانت المرأة حاملاً فإذا لم يتحقق الحمل

---

(١) ابن الحاجب مع العضد والسعدن ٢/ ١٧٢.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ٦.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ٦.

فلا تجب النفقة لعدم تحقيق الشرط.

٣-مفهوم الغاية: وهو تعليق الحكم بغاية فيكون ما بعدها مخالفاً لما قبلها مثاله قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾[١].

فمنطوق الآية يفيد وجوب الصيام في النهار إلى ابتداء الليل أي المغرب، وهي تدل بمفهومها على عدم وجوب الصوم بعد دخول الليل.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾[٢] فمنطوقها النهي عن قرب النساء أيام الحيض إلى أن تطهر، ومفهومه إباحة قربهن بعد طهارتهن.

٤-مفهوم العدد: وهو تعليق الحكم بعدد مخصوص يدل على أن ما عدا ذلك العدد بخلافه ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾[٣].

ومفهوم المخالفة أنهم إذا أتوا بأربعة شهداء عدول فإنهم لا يجلدون ثمانين جلدة.

ما لا يعمل به مفهوم المخالفة:

١-لا يعمل بمفهوم المخالفة للاسم واللقب، فإذا حكمنا على زيد بالقيام فلا يعني الحكم على غيره بالقعود وعدم القيام لأن زيداً عَلَمٌ.

ولا يعمل بمفهوم المخالفة لاسم الجنس، فقول النبي ﷺ: "في الغنم زكاة" لا ينفي وجوب الزكاة في غير الغنم لأن الغنم اسم جنس وقد ذكر علماء الأصول أنواعاً أخرى وفيها خلاف طويل.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٣) سورة النور، الآية: ٤.

٢-إذا ورد الشرع بإبطال المفهوم في الأنواع التي يعمل بها والتي سبق ذكرها، كمفهوم الشرط مثلاً في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾[١].

مفهوم الآية أنه يجوز البغاء منهن إذا لم يكرههن أحد، وهذا المفهوم باطل لقوله تعالى: ﴿ لَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾[٢].

وقد يقال: فلماذا ذكر هذا الشرط وهو غير مراد بالآية؟ وهل هذا إلا إهمال لذكره أو تفريغ لمحتواه، وهو عبث محض، نقول إن ذكر هذا فيه فائدة إذ فيه تقريع وتوبيخ وتقبيح لهذا الفعل بهذه الصورة، حالة الإكراه على الزنا لمن تريد العفاف، فالنهي عن هذه الصورة لا يدل على إباحة ما عداها كالزنا مزاجاً، وإنما حرمت الآية هذه الصورة لما ورد في سبب نزول الآية من إكراه أمية بن خلف لجواريه على الزنا، فَشَكَوْنَ ذلك لرسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى: ﴿ولا تكرهوا ...﴾ الآية.

وقد أراد بعض ضعاف النفوس أن يثبت الاعتزاز بالقومية العربية، وقال إن هذه الآية تدل على إباء وشمم الفتاة العربية إذ لم تكن تقبل على البغاء إقبالاً وإنما كانت تكره عليه إكراهاً، وما علم هذا المدعي أن هذه الآية إن دلت على إباء الفتاة العربية إذ لم تأت الزنا إلا بالإكراه فهي تدل أيضاً على خنوع من يكرههن وهو من العرب أيضاً.

ومثال آخر: قوله تعالى: ﴿ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾[٣].

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠.

فهذه الآية تدل بمنطوقها وظاهرها على تحريم الربا المضاعف، ويدل مفهومها إباحة الربا فيما سوى المضاعف، وهو معطل بقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾[1].

هكذا رأس المال دون زيادة أو نقصان، فلماذا نص الشرع على تحريم الربا المضاعف ما دام المراد تحريم الربا المضاعف وغيره. نقول في تحريم الربا المضاعف نهي وزجر وردع لتلك الصورة الشائنة والشائهة والاستغلال البشع الذي كان عليه العرب في جاهليتهم، وتصوير لحالهم القبيح، وفيه ما فيه من التقريع والتوبيخ ما لا يعلمه الجهال الذين يفتون عن جهل بجواز قليل الربا، أو على علم، ولكنهم ركبوا الهوى وركنوا إلى مكافآت المرابين وأعوانهم من مردة الحكام المجرمين.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٩.

المبحث الثالث
المجمل، والمبيَّن

في القرآن والسُّنَّة نصوص لا تحتمل إلّا وجهًا واحدًا من المعاني، وفيه نصوص تحتمل أكثر من معنى، إلّا أن هناك دليلًا يرجِّح معنًى منها، وهو ما يُسَمَّى في عُرْفِ الأصوليين بالظاهر، كما يُسَمَّى الأول بالنص.

وفي القرآن والسُّنَّة نصوص مجمَلَة بيَّنَتْها نصوص أخرى، فأزالت إبهامها، ووضَّحت المراد منها.

وهنا نبيِّنُ -بعون الله تعالى- تعريف المجمَل بشيء من البَسْطِ، ثم نذكر أقسامه، وما يتعلَّق بهذه الأقسام من المسائل الأصولية.

١ - المجمل:

تعريف المجمل في اللغة:

المجمل هو: ما لم تتضح دلالته على معناه بمفرده.

وفي الاصطلاح: المجمَل هو المبهَم الذي لا يتَّضِحُ المراد منه إلّا بقرينة شرعية تزيل إبهامه وتوضِّحُ المراد منه[١].

وعرفه الفقهاء: بأنه ما أفاد شيئًا من جملة أشياء، هو متعيِّنٌ في نفسه، واللفظ لا يعينه[٢].

فالمجمَل هو: المبهَم الذي لا يتَّضِحُ المراد منه إلّا بقرينة شرعية تزيل إبهامه وتوضِّحُ المراد منه.

---

(١) الإتقان(٤: ١٤٣٤).

(٢) المحصول(١: ٢٣١).

٢- المبيِّن.

تعريف المبيَّن في اللغة:

المبين هو خلاف، المجمل، وهو الذي اتضحت دلالته[١].

وفي الاصطلاح: هو: ما يفرِّق بين الشيء وما يشاكله، فهو دلالة على المعنى المراد على سبيل البَسْطِ والتفصيل.

ويعرفه الفقهاء: بأنه الذي دلَّ على المراد بخطاب لا يستقلّ -بنفسه- في الدلالة على المراد[٢].

أمثلة المجمل

نحو: قوله تعالى:﴿والليل إذا عسعس﴾[سورة التكوير: ١٧]فإنه لفظ مشترك موضوع لأقبل وأدبر: وقوله تعالى:﴿ثلاثة قروء﴾[سورة البقرة الآية:٢٢٨]فإن القرء موضوع للحيض والطهر، قوله تعالى: ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾[سورة البقرة: ٢٣٧] يحتمل الزوج والولي فإن كلا منهما بيده عقدة النكاح، وهناك أمثلة كثيرة، أعرضنا عنها تحاشيا للأطالة.

أمثلة المبين:

قد يقع التبيين متصلا نحو: قوله تعلى ﴿من الفجر﴾ بعد قوله: ﴿الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ [سورة البقرة: ١٨]، ومنفصلا في آية أخرى نحو: ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره﴾ ﴾[البقرة : ٢٣٠]بعد قوله: ﴿الطلاق مرتان﴾[البقرة : ٢٢٩] فإنها بينت أن المراد به الطلاق الذي يملك الرجعة بعده، ولولاها لكان الكل منحصرا في الطلقتين، وقد أخرج أبو

---

(١) المرجع السابق.

(٢) أصول السرخسي(١: ١٦٨).

داود في مراسله، وسعيد بن منصور في سننه، وعبد الرزاق في مصنفه، وغيرهم عن أبي رزين الأسدي قال رجل: يا رسول الله أرأيت قول الله: ﴿الطلاق مرتان﴾ فأين الثالثة قال: التسريح بإحسان وأخرج ابن مردويه عن أنس قال: قال: رجل يا رسول الله ذكر الله الطلاق مرتين فأين الثالثة قال: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾[1].

اختلف العلماء في وقوع المجمل في القرآن:

فالجمهور على أنه واقع في القرآن الكريم، خلافاً لداوود الظاهري، والواقع يَرُد قول داوود؛ فالآيات والنصوص المُجملة جاء بيانها، وقد يتأخر بيانها، يأتي النص المجمل ويتأخر البيان إلى وقت الحاجة، أما تأخير البيان عن وقت الحاجة فهذا لا يجوز عند أهل العلم، ولا يُظن أنما يتأخر البيان إلى وقت الحاجة.

أقسام المجمَل:

ينقسم المجمَل إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما كان اللفظ فيه محتمِلًا لمعانٍ كثيرة، ولم يكن حمله على بعضها أَوْلَى من الباقي.

الثاني: ما يُحْكَمُ عليه بالإجمال -حال كونه مستعملًا في بعض موضوعه- فهو: كالعام المخصوص بصفة مجمَلة، أو استثناء مجمَل، أو بدليل منفصَل مجهول.

مثال الصفة قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ .

---

(١) سنن سعيد بن منصور (١/ ٣٨٤ رقم ١٤٥٦) ومصنف عبد الرزاق الصنعاني (٦/ ٣٣٧ رقم ١١٠٩١) والمراسيل لأبي داود (ص: ١٨٩ رقم ٢٢٠)

فإنه تعالى لو اقتصر على ذلك لم يفتقر فيه إلى بيان، فلمَّا قيَّدَه بقوله: ﴿مُحْصِنِين﴾ ، ولم ندر ما الإحصان، لم نعرف ما أبيح لنا.

ومثال الاستثناء قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾.

ومثال الدليل المنفصل المجهول: كما إذا قال الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِين﴾ -المراد بعضهم لا كلهم.

الثالث: "ما يُحْكَمُ عليه بالإجمال، حال كونه مستعمَلًا لا في موضوعه، ولا في بعض موضوعه، فهو ضربان:

أحدهما: الأسماء الشرعية.

والآخر: غيرها.

مثال الأول: كما إذا أمرنا الشرع بالصلاة -ونحن لا نعلم انتقال هذا الاسم إلى هذه الأفعال- احتجنا فيه إلى بيان.

والثاني: الأسماء التي دلَّت الأدلة على أنه لا يجوز حملها على حقائقها، وليس بعض مجازاتها أولى من بعض -بحسب اللفظ- فلا بُدَّ من البيان". أ.هـ.

أسباب وقوعه المجمل في القرآن الكريم:

فمن الأسباب التي تسبب الإجمال:

منها: الاشتراك نحو ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ فإنه موضوع لأقبل وأدبر ﴿ثلاثة قروء ﴾ فإن القرء موضوع للحيض والطهر ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ﴾ يحتمل الزوج والولي فإن كلا منهما بيده عقدة النكاح.

ومنها: الحذف نحو ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾يحتمل(في)و (عن)، أي أن تنكحوهن، أو عن نكاحهن.

ومنها: اختلاف مرجع الضمير نحو ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾ يحتمل عود ضمير الفاعل في (يرفعه) إلى ما عاد عليه ضمير (إليه) وهو الله[1].

(١) الإتقان(٤: ١٤٢٦-١٤٢٨).

المبحث الرابع
أسلوب القرآن

تعريفه في اللغة:

يطلق الأسلوب في اللغة ويراد به: الطريق الممتد، ويقال للسطر من النخيل أسلوب، والأسلوب الطريق والوجه والمذهب، والأسلوب الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول، أي أفانين منه، وكل شيء امتد على غير امتناع فهو أسلوب[١].

وقد وردت تعريفات عدة في حد الأسلوب في اللغة؛ ومن ذلك:

الأول: الأساليب: أجناس الكلام وطرقه[٢].

ثانيا: الأسلوب: الضرب من النظم والطريقة فيه[٣].

ثالثا: الأسلوب صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص[٤].

رابعا: الأسلوب: الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه[٥].

يتبين مما سبق أن الأسلوب في الكلام ثلاثة أقسام:

الأول: الأسلوب اللفظي، وهو العنصر اللفظي الذي يتألف منه الكلام.

---

(١) مجمل اللغة لابن فارس (ص: ٤٧٠).

(٢) الصحاح للجوهري(٦: ٢١٧٧).

(٣) دلائل الإعجاز (ص: ٤٦٩).

(٤) مقدمة بن خلدون (١: ٧٨٦) بتصرف.

(٥) مناهل العرفان (٢: ٣٠٣).

الثاني: الأسلوب التركيبي، وهو تأليف الكلام، وانتقاء التراكيب.

الثالث: الأسلوب البياني، وهو ما يتخذه المتكلم من طرق عرض الكلام؛ للإقناع والتأثير حسب أغراض الكلام؛ كاختيار المتكلم للأسلوب العلمي، أو الأدبي، وما شابه ذلك[١].

وفي اصطلاح البلاغيين:هو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير، أو هو العبارات اللفظية المنسّقة لأداء المعاني.

فالأسلوب القرآني:هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه، ولقد اتفقت كلمة العلماء قديماً وحديثاً على أن للقرآن أسلوباً خاصاً به مغايراً لأساليب العرب في الكتابة والخطابة والتأليف. وكان العرب الفصحاء يدركون هذا التمايز في الأسلوب القرآني عن غيره من الأساليب[٢].

روى مسلم في صحيحه (أن أُنَيساً أخا أبي ذر قال لأبي ذر: لقيتُ رجلاً بمكة على دينك، يزعُمُ أن الله أرسله، قلتُ: فما يقول الناس، قال : يقولون شاعر، كاهن، ساحر ـ وكان أنيس أحد الشعراء ـ قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون

قال قلت فاكفنى حتى أذهب فأنظر، فقال أنيس: إن لى حاجة بمكة فاكفنى. فانطلق أنيس حتى أتى مكة فراث على ثم جاء فقلت: ما صنعت؟ قال: لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله. قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر كاهن ساحر. وكان أنيس أحد الشعراء. قال أنيس: لقد

---

(١) الأسلوب لأحمد الشايب (ص: ٤٠-٤٥).

(٢)الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم (١ / ٢٥٠).

سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون. [١].

قال الزركشي: اعلم أن هذا علم شريف المحل عظيم المكان قليل الطلاب ضعيف الأصحاب ليست له عشيرة تحميه ولا ذوو بصيرة تستقصيه وهو أرق من الشعر وأهول من البحر وأعجب من السحر وكيف لا يكون وهو المطلع على أسرار القرآن العظيم الكافل بإبراز إعجاز النظم المبين ما أودع من حسن التأليف وبراعة التركيب وما تضمنه في الحلاوة وجلله في رونق الطلاوة مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها ولا فرق بين ما يرجع الحسن إلى اللفظ أو المعنى

وشذ بعضهم فزعم أن موضع صناعة البلاغة فيه إنما هو المعاني فلم يعد الأساليب البليغة والمحاسن اللفظية

والصحيح أن الموضوع مجموع المعاني والألفاظ؛ إذ اللفظ مادة الكلام الذي منه يتألف ومتى أخرجت الألفاظ عن أن تكون موضوعا خرجت عن جملة الأقسام المعتبرة؛ إذ لا يمكن أن توجد إلا بها[٢].

---

(١) صحيح مسلم (٧/ ١٥٢ رقم ٦٥١٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢: ٣٨٣).

المبحث الخامس
الوجوه والنظائر

إن علم الوجوه والنظائر فرع من علم تفسير القران الكريم، إذ هو علم يبحث في كل لفظ في القرآن الكريم ورد في أكثر من آية، وكانت دلالته على معناه في كل واحدة منها غير معناه في الآيات الأخرى التي ورد فيها أي أن المفسر في هذا النوع من أنواع التفسير يقوم بالنظر في معنى كل لفظ ورد متكررا في آيات القرآن وكانت دلالته في آية أو بعض الآيات التي ورد فيها مبينا لدلالته على معناه في الآية أو الآيات الأخرى ، ثم يقوم بحصر تلك المعاني المتعددة ويجعلها تبدو وجوها للفظ، وهكذا يفعل المفسر بجميع الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم متكررة وقد تعددت معانيها فإذا عرفنا ذلك كان علينا تبيين المعنى اللغوي والاصطلاحي لهذا العلم

-الوجوه والنظائر لغة: الوجوه جمع وجه ويطلق على معان متعددة:

قال ابن دريد[١]:"وجه الكلام: السبيل التي تقصدها به، وصرفت الشيء عن وجهه أي سنته". وكساء موجه: له وجهان، ويجمع وجه على أوجه ووجوه وأجوه.[٢]

وفي لسان العرب.....وفي الحديث أنه ذكر فتنا كوجوه البقر، أي: يشبه بعضها بعضا[٣].

وقال ابن فارس: "وجه" الواو والجيم والهاء أصل واحد يدل على مقابلة

(١) هو: محمد بن الحسن، أبو بكر بن دريد، توفي سنة (٣٢١هـ).نزهة الألباب(ص: ١٩١).

(٢) جمهرة اللغة مادة (الوجه).

(٣) لسان العرب(١٣: ٥٥٥).

الشيء، والوجه مستقبل لكل شيء[١].

والنظائر: جمع نظير، وهو المماثل والشبيه، يقال: فلان نظير فلان، إذا كان مثله وشبيهه، والجمع نظراء.؟ ومن ذلك قول ابن مسعود: (عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ بها عشرين سورة من المفصل[٢]. يريد السور المماثلة في في المعاني كالمواعظ والحكم، أو القصص.

الوجوه والنظائر اصطلاحا:

حينما تعرضنا للمدلول اللغوي وجدنا أن علماء الوجوه والنظائر قد جعلوا لهذه الألفاظ معاني اصطلاحية فيما بينهم وجعلوها أسماء لكتبهم وكان أول من عرف الوجوه والنظائر ابن الجوزي في كتابه(نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر في القرآن الكريم) حيث قال:

«واعلم أن معنى الوجوه والنظائر : أن تكون الكلمة الواحدة قد ذكرت في مواضع من القرآن الكريم على لفظ واحد وحركة واحدة، وأريد بكل مكان معنى للكلمة غير معناها في المكان الأخر، وتفسير كل كلمة بمعنى يناسبها غير معنى الكلمة الأخرى، هذا ما يسمى (الوجوه)، أما النظائر: فهو اسم للألفاظ، وعلى هذا تكون الوجوه اسما للمعاني، ومن هنا كان الأصل في وضع كتب الوجوه والنظائر»[٣].

وهذا التعريف لم يسلم من نقد (الزركشي) (والسيوطي)، وهما من أبرز من كتب في الدراسات القرآنية،أما الزركشي فبعد أن عرف الوجوه والنظائر

---

(١) معجم مقاييس اللغة(٦: ٨٨).

(٢) فتح الباري (٢: ٢٥٩).

(٣) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر(١: ٢).

بقوله: فالوجوه: اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معاني كلفظ (الأمة)، والنظائر كالألفاظ المتواطئة قال: وقيل: النظائر في اللفظ والوجوه في المعاني وضعف لأنه لو أريد هذا لكان الجمع في الألفاظ المشتركة، وهم يذكرون في تلك الكتب اللفظ الذي معناه واحد في مواضع كثيرة فيجعلون الوجوه نوعا لأقسام والنظائر نوعا آخر كالأمثال وكذلك السيوطي اقتفى أثر صاحب (البرهان) في نقده لتعريف(ابن الجوزي)، وانتهى إلى تعريفه بقوله: **فالوجوه اللفظ المشترك الذي ستعمل في عدة معان كلفظ (الأمة)** أما صاحب (كشف الظنون) فلم يتقبل نقد (الزركشي) (والسيوطي) بل أيد ابن الجوزي فيما ذهب إليه فقال: وعناه أن تكون الكلمة واحدة ذكرت في مواضع من القرآن على لفظ واحد، وحركة واحدة، وأريد بها في كل مكان معنى غير الآخر فلفظ كل كلمة ذكرت في موضع غير لفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر هو النظائر وتفسير كل كلمة بمعنى غير معنى الأخرى هو الوجوه، فإذاً النظائر اسم للألفاظ والوجوه اسم للمعاني وأقول إن العلماء في هذا المجال يذكرون الكلمة الواحدة، ثم يذكرون معانيها المتعددة ويستدلون على كل معنى بالآيات القرآنية، مما يدل على أن الوجوه للمعاني، إذ يشيرون إلى الكلمة ويقولون.. وفيها سبعة عشر وجها.. وفيها أربعة وجوه.. وهكذا نجد أنهم يريدون بهذا الوجه معنى يختلف قربا وبعدا عن معنى آخر مراد من آية أخرى.. والله أعلم[1].

المؤلفات في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم.

شغلت الدراسات القرآنية قدرا كبيرا من اهتمام الباحثين المتقدمين

(١) ينظر: الموسوعة القرآنية في الوجوه والنظائر(١: ١٨ - ٢٠).

والمتأخرين،وقد تناولها عدد كبير من علماء اللغة والتفسير والحديث وغيرهم،وأخذت منهم اهتماما كبيرا وبحثا متواصلا دقيقا وذلك من اجل خدمة كتاب الله العزيز وإيضاح ما غمض منه وأشكل فيه.

وإن من تلك الدراسات القرآنية دراسة معاني ألفاظ الكلمات القرآنية وقد اهتم كثير من العلماء والباحثين بمعاني الألفاظ القرآنية واللغوية، وبرز في هذا المجال علماء أجلاء يحق لنا أن نتحدث عنهم وعن مؤلفاتهم مراعين الترتيب الزمني لحياتهم، كما أنني أفردت المؤلفات عن المؤلفين تيسيراً على القارئين والمطلعين والمهتمين بهذا العلم .

١- **الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**.لمقاتل بن سليمان أبي الحسن كبير المفسرين البلخي، الأزدي بالولاء الخرساني المروزي توفي رحمه الله تعالى سنة ١٥٠هـ.

٢- **الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**.لهارون بن موسى أبي عبدالله، وقيل أبي إسحاق النحوي القارئ الأزدي بالولاء البصري، ويقال له هارون الأعور، توفي رحمه الله تعالى سنة ١٧٠هـ.

٣- **التصاريف**. ليحيى بن سلام ، وهو يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة أبو زكريا البصري. توفي رحمه الله تعالى سنة ٢٠٠ هـ.

٤- **ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد**، للمبرد، وهو: محمد بن يزيد، أبو العباس الأزدي البصري. توفي سنة ٣٥٠هـ.

٥- **الأفراد**. لأحمد بن فارس الرازي، أبي الحسن القزويني الهمداني اللغوي. توفي رحمه الله سنة ٣٩٥هـ.

٦- **وجوه القرآن**.لإسماعيل بن أحمد الحيري، أبي عبد الرحمن الضرير، توفي رحمه الله سنة ٤٣١هـ.

٧- **الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**. للحسين بن أحمد الدامغاني، أبي عبد الله، الفقيه الحنفي. توفي رحمه الله سنة ٤٧٨هـ.

٨- **المفردات**. للراغب الأصبهاني، وهو الحسن بن محمد أبو القاسم، المعروف بالراغب الأصبهاني، توفي رحمه الله سنة ٥٠٢هـ.

٩- **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**. لابن الجوزي، وهو عبد الرحمن بن علي، أبي الفرج، جمال الدين، المعروف بابن الجوزي. توفي رحمه الله ٥٩٧هـ.

١٠- **عمدة الحفاظ**. للسمين الحلبي، وهو: شهاب الدين أحمد بن يوسف المصري الشافعي، توفي رحمه الله سنة ٧٥٦هـ.

١١- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**. للفيروز آبادي، وهو محمد بن يعقوب بن محمد أبو طاهر الشيرازي، الفيروز آبادي، توفي رحمه الله سنة ٨١٧هـ.

١٢- **كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه، والنظائر**. لمحمد بن محمد بن العماد، الحلبي، المعروف بابن العماد، توفي رحمه الله سنة ٨٨٧هـ[1].

---

(١) الموسوعة القرآنية في الوجوه والنظائر (١: ٣٧-٥٣).

المبحث السادس
أمثال القرآن

تعريفه في اللغة:

قال ابن منظور: (مثل) كلمة تسوية، يقال: هذا مثله ومثله كما يقال شبهه وشبهه بمعنى[١].

والمثل يستعمل على ثلاثة أوجه؛ بمعنى الشبيه، وبمعنى نفس الشيء وذاته، والجمع أمثال ويوصف به المذكر والمؤنث والجمع، فيقال: هو وهي وهما وهم وهن مثله[٢].

والمثل في الاصطلاح: جملة من القول مقتطعة من كلام أو مرسلة بذاتها تنقل ممن وردت فيه إلى مشابهة بدون تغيير مثل (الصيف ضيعت اللبن) و(الرائد لا يكذب أهله).

أقسامها:

تنقسم الأمثال أربعة أوجه:

أحدها: إخراج ما لا يقع عليه الحس إلى ما يقع عليه.

ثانيها: إخراج ما لا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة.

ثالثها: إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة.

رابعها: إخراج مالا قوة له من الصفة إلى ما له قوة[٣].

---

(١) لسان العرب(١١: ٦١٠).

(٢) المصباح المنير(٨: ٣٧٣).

(٣) البرهان في علوم القرآن(١: ٤٨٦).

أهمية أمثال القرآن:

وعلم أمثال القرآن من أعظم العلوم وأنفعها، قال الماوردي عليه رحمة الله: من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه.

وأمثال القرآن كثيرة وقد صنف فيها العلماء مصنفات منها: أمثال القرآن لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ، وكذلك الأمثال في القرآن الكريم لابن قيم الجوزية فلتراجع، ففيها غنية في الموضوع[١].

ولقد اعتنى العلماء والأدباء والبلاغيون بالأمثال والتشبيه، وأكثروا من الثناء عليها والإشادة بأثرها في إيضاح المعاني وتقريبها من ذهن السامع، مما يؤدي إلى سرعة الفهم، ويعين على التفكر والاعتبار، إلا أن الملاحظ أن جُلَّ أقوالهم تدور حول "الأمثال السائرة".

"ويجتمع في الأمثال أربعة لا تجتمع في غيرها من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية"[٢].

وقد عدّه الشافعي مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن فقال : ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدال على طاعته المبينة لاجتناب ناهيه[٣].

من أهم من ألف في أمثال القرآن :

١ - الأمثال من الكتاب والسنة، تأليف أبي عبد الله محمد بن علي ابن الحسن المعروف بالحكيم الترمذي المتوفى سنة ٣٢٠ هـ .

٢ - أمثال القرآن تأليف إبراهيم بن محمد بن نفطويه المتوفى سنة ٣٢٣ هـ.

---

(١) المعجم الوسيط (٢: ٨٥٤).

(٢) الأمثال القرآنية القياسية (ص: ٧٣).

(٣) البرهان في علوم القرآن(١: ٤٨٦).

٣- الأمثال الكامنة في القرآن تأليف الحسن بن الفضل .

٤- الأمثال الكامنة في القرآن تأليف أبي محمد الحسن بن عبدالرحمن بن إسحاق القضاعي .

٥- أمثال القرآن تأليف أبي علي محمد بن أحمد بن الجنيد الإسكافي المتوفى سنة ٣٨١ هـ.

٦- أمثال القرآن لأبي عبد الرحمن بن حسين السلمي النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٦ هـ .

٧- أمثال القرآن لأبي الحسن علي بن محمد المعروف بالماوردي الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ .

٨- درر الأمثال لابن أبي الأصبع العدواني المتوفى سنة ٦٥٤ هـ.

٩- أمثال القرآن لابن القيم المتوفى سنة ٧٥١ هـ .

المبحث السابع
القسم في القرآن

تعريف القَسَم وصيغته:

أقسم حلف وأصله من (القسامة) وهي: الأيمان تقسم على الأولياء في الدم. و (القسم) بفتحتين اليمين وكذا المقسم و (هو) مصدر كالمخرج. و (المقسم) أيضا موضع القسم. و (قاسمه) حلف له[1].

والأقسام: جمع قَسَم - بفتح السين- بمعنى الحلف واليمين، والصيغة الأصلية للقسم أن يؤتى بالفعل "أقسم" أو "أحلف" متعديًا بالباء إلى المُقسم به. ثم يأتي المُقسم عليه، وهو المسمى بجواب القسم، كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾.

فأجزاء صيغة القسم ثلاثة:

١- الفعل الذي يتعدى بالباء.

٢- والمُقسم به.

٣- والمُقسم عليه..

ولما كان القسم يكثر في الكلام، اختصر فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء ثم عُوِّض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾، وبالتاء في لفظ الجلالة كقوله: ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ ٣، وهذا قليل، أما الواو فكثيرة[2].

---

(١) مختار الصحاح(ص: ٢٥٣).

(٢) مباحث في علوم القرآن(ص: ٣٠١).

تعريف القسم اصطلاحا:

ويعرف القسم اصطلاحا: بأنه: ربط النفس، بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقادًا. وسُمي الحلف يمينًا؛ لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف[1].

أغراض القسم في القرآن:

يأتي القسم في القرآن الكريم لأغراض متعددة، ومنها:

١ - تحقيق الخبر وتوكيده، ليكون أوقع في التلقي وأرجى للقبول، كقوله تعالى: ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين [يونس:٥٣]. وقوله تعالى: فو ربك لنسئلنهم أجمعين [الحجر: ٩٢].

٢ - بيان شرف المقسم به، وعلو قدره، حتى يعرف الناس مكانته عند الله ورفعة منزلته لديه، كالقسم بحياة النبي ﷺ في قوله تعالى: لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون [الحجر: ٧٢]. وكقوله تعالى مبينا شرف القرآن وقدره: والقرآن ذي الذكر [ص: ١].

٣ - توجيه النظر إلى الآيات الكونية، والمشاهد الطبيعية، للتوصل منها إلى خالقها، والتأمل فيها تأملا يبين مبلغ نعمتها، وأنها غير جديرة بالعبادة، وإنما الجدير بالعبادة هو خالقها، وذلك كالقسم بالسماء وبنائها، وبالنفس وخلقها، في قوله تعالى: والسماء وما بناها [الشمس: ٥] ونفس وما سواها [الشمس: ٧] وقال تعالى: والنجم إذا هوى [النجم: ١] منبها بقوله: هوى- أي غاب

(١) الواضح في علوم القرآن(ص: ٢٠٧).

وسقط- إلى أنه لا يجوز أن يعبد، لأنه مخلوق وعرضة للغيبة والزوال.

ونقل السيوطي في كتابه (الإتقان) عن أبي القاسم القشيري أنه قال: القسم بالشيء لا يخرج عن وجهين: إما لفضيلة، أو لمنفعة. فالفضيلة، كقوله تعالى: وطور سينين (٢) وهذا البلد الأمين [التين: ٢ - ٣] والمنفعة كقوله تعالى: والتين والزيتون [التين: ١] «١».

المقسم به في القرآن:

١ - أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في خمسة مواضع:

في قوله: {فو ربك لنحشرنهم والشياطين} [مريم: ٦٨] وقوله: {فو ربك لنسئلنهم أجمعين} [الحجر: ٩٢](١) وقوله: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم} [النساء: ٦٥] {فلا أقسم برب المشارق والمغارب} [المعارج: ٤٠]. {فو رب السماء والأرض إنه لحق} [الذاريات: ٢٣]. وأمر نبيه ﷺ أن يقسم به في ثلاثة مواضع:

في قوله: {قل بلى وربي لتبعثن} [التغابن: ٧] وقوله: {قل بلى وربي لتأتينكم} [سبأ: ٣] وقوله: {قل إي وربي إنه لحق} [يونس: ٣٥].

٢ - وأقسم تعالى فيما بقي من القرآن بمخلوقاته، كقوله: والتين والزيتون والصافات والشمس والليل والضحى.

فإن قيل: كيف أقسم الله بالخلق، وقد ورد النهي عن القسم بغير الله؟

---

(١) الواضح في علوم القرآن (ص: ٢٠٩).

أجيب بأوجه:

أ- أنه على حذف مضاف، أي ورب التين، ورب الشمس ...

ب- إن العرب كانت تعظم هذه الأشياء وتقسم بها فنزل القرآن على ما يعرفون.

ج- إن الأقسام إنما تكون بما يعظم المقسم أو يجله وهو فوقه، والله تعالى ليس شيء فوقه، فأقسم تارة بنفسه وتارة بمصنوعاته لأنها تدل على بارئ وصانع.

المبحث الثامن
الجدل في القرآن الكريم

تعريف الجدل:

اشتقاق الجدل

قال ابن فارس: الجيم والدال واللام أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه[١]. هذا من حيث أصل الكلمة، أما معنى الجدل في اللغة؛ فقد جاء في "اللسان:"الجدل: اللدد في الخصومة والقدرة عليها، وقد جادله مجادلة وجدالا. وجادله أي: خاصمه، والاسم: الجدل، وهو شدة الخصومة[٢].

وقد اختلف في اشتقاق "الجدل"؛ هل هو من "الجدل" أو"الجدالة " وهي الأرض، أو "الجدال " أو"المجدل " أو " الجدول". وقد توسط الطوفي في هذا فقال: "وكأن مادة (ج، د، ل) ترجع في جميع تصاريفها الى معنى القوة والامتناع والشدة والأحكام، فيكون مشتالا من هذا المعنى الجامع الكفي، ومن كل واحد من جزئياته باعتبار ما يشتركان فيه من ذلك المعنى [٣]."

وقد كان لكثير ممن بحث في هذه القضية بعض المؤاخذات على هذه التعاريف؛ إذ رأى أنها غير جامعة أو غير مانعة، إذ المقصود هنا تعريف" الجدل الأصولي " فلابد من إضافة ضابط " الأصول "، وكذلك لابد من التفريق بين كل من الجدل والمناظرة وعلم الخلاف، إذ الجدل اخص منهما[٤].

---

(١) مقاييس اللغة (١: ٣٤٤).

(٢) لسان العرب (١١: ١٠٥).

(٣) علم الجدل في علم الجدل(ص:٣).

(٤) انظر "الكافية: (ص: ٢٠ – ٢١)، ومقدمة العميريني لكتاب الجدل لابن عقيل (ص: ٣٢ – ٤٤ و٩٣ – ١٠٠)، و"الجدل عند الأصوليين ": (ص/ ١٤٣ – ١٥٢) لمسعود فلوسي.

تعريف الجدل اصطلاحا:

والجدل: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم، أصله من جدلت الحبل: أي أحكمت فتله، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه.

وقد ذكره الله في القرآن على أنه من طبيعة الإنسان في قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾(١)، أي خصومة ومنازعة.

وأمر رسول الله ﷺ أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التي تلين عريكتهم في قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٢).

وأباح مناظرة أهل الكتاب بتلك الطريقة في قوله: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٣).

ومثل هذا من قبيل المناظرة التي تهدف إلى إظهار الحق، وإقامة البرهان على صحته، وهي الطريقة التي يشتمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين وإلزام المعاندين، بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة، قال تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾(٤)(٥).

---

(١) سورة الكهف ٥٤

(٢) سورة النحل ١٢٥

(٣) سورة العنكبوت ٤٦

(٤) سورة الكهف ٥٦

(٥) ينظر: مباحث في علوم القرآن(ص: ٣١٠).

طريقة القرآن في المناظرة:

والقرآن الكريم تناول كثيرًا من الأدلة والبراهين التي حاج بها خصومه في صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع في أسلوب واضح النتائج، سليم التركيب، لا يحتاج إلى إعمال عقل أو كثير بحث.

ولم يسلك القرآن في الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية في المقدمات والنتائج التي يعتمدون عليها، من الاستدلال بالكلي على الجزئي في قياس الشمول، أو الاستدلال بأحد الجزأين على الآخر في قياس التمثيل، أو الاستدلال بالجزئي على الكلي في قياس الاستقراء.

أ- لأن القرآن جاء بلسان العرب، وخاطبهم بما يعرفون.

ب- ولأن الاعتماد في الاستدلال على ما فطرت عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكري عميق أقوى أثرًا وأبلغ حجة.

جـ- ولأن ترك الجلي من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفي نوع من الغموض والألغاز لا يفهمه إلا الخاصة، وهو على طريقة المناطقة ليس سليمًا من كل وجه، فأدلة التوحيد والمعاد المذكورة في القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه "الرد على المنطقيين": "وما يذكره النُّظار من الأدلة القياسية التي يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه وتعالى لا يدل شيء منها على عينه، وإنما يدل على أمر مطلق كلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، فإنَّا إذا قلنا: هذا محدث، وكل محدث فلا بد له من محدث، أو ممكن، والممكن لا بد له من واجب، إنما يدل هذا على محدث مطلق، أو واجب مطلق.. لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه".. وقال: "فبرهانهم لا يدل على

شيء معين بخصوصه، لا واجب الوجود ولا غيره، وإنما يدل على أمر كلي، والكلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، وواجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه، ومن لم يتصور ما يمنع الشركة فيه لم يكن قد أعرف الله"، وقال: "وهذا بخلاف ما يذكر الله من الآيات في كتابه، كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ، وقوله: ﴿فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وغير ذلك، فإنه يدل على المعين كالشمس التي هي آية النهار.. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ٤، فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره، فإن كل ما سواه مفتقر إليه نفسه، فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه[1]

فأدلة الله على توحيده وما أخبر به من المعاد، وما نصبه من البراهين لصدق رسله لا تفتقر إلى قياس شمولي أو تمثيلي، بل هي مستلزمة لمدلولها عينًا، والعلم بها مستلزم للعلم بالمدلول، وانتقال الذهن منها إلى المدلول بيِّن واضح كانتقال الذهن من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطلوعها، وهذا النوع من الاستدلال بدهي يستوي في إدراكه كل العقول[2].

قال الزركشي:"اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين

---

(١) مباحث في علوم القرآن(ص: ٣١١-١٢).

(٢) المرجع السابق.

والأدلة، وما بين برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين.

أحدهما: بسبب ما قاله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[1].

والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزًا، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق، لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفى على ما أدركه فهم الخطباء[2].

(١) سورة إبراهيم الآية ٤

(٢) مباحث في علوم القرآن - (١ / ٣١٢)

البرهان في علوم القرآن (ـ٢ :٢٤) وما بعدها، بتصرف.

الخاتمـــــــة

جهود المملكة العربية السعودية في خدمة كتاب الله[1]

عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم

تجلت عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم في مظاهر عديدة:

١-ففي مجال التعليم للبنين والبنات قامت الأسس التي بني عليها على الإيمان بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، والتصور الإسلامي الكامل للكون والحياة، وأن الوجود كله خاضع لما سنَّه الله تعالى، ليقوم كل مخلوق بوظيفته دون خلل، أو اضطراب، وتوجيه العلوم والمعارف بمختلف أنواعها وموادها – منهجاً وتأليفاً وتدريساً – وجهة إسلامية في معالجة قضاياها، والحكم على نظرياتها وطرق استثمارها حتى تكون منبثقة من الإسلام، متناسقة مع التفكير الإسلامي السديد.

فبالإضافة إلى الاهتمام بالقرآن الكريم (تلاوة وحفظاً وتفسيراً) في مراحل التعليم المختلفة، أقيمت مدارس خاصة بتحفيظ القرآن الكريم: ابتدائية، ومتوسطة، وثانوية، بل وكليات وأقسام متخصصة في بعض الجامعات، بالجامعة الإسلامية بالمدينة، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

٢-وفي المجال الإعلامي هناك ندوات، ودروس، ومحاضرات تبث عبر

---

(١) بحث مقدم لندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه، بعنوان، عناية المملكة العربية السعودية بطباعة المصحف الشريف بقلم الأستاذ الدكتور محمد سالم العوفي، المحور الثاني ص٤٢٤، عام ١٤٢٤هـ، المدينة المنورة.

الإذاعة والتلفاز عن القرآن، وتلاوته، وتفسيره، والعلوم المتعلقة به، إضافة إلى إنشاء إذاعة خاصة بالقرآن الكريم في مكة المكرمة عام ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م. وفي نفس العام أنشئت إذاعة أخرى بالرياض، وأُدمجتا في إذاعة واحدة في غرة محرم عام ١٤١٣هـ الموافق ١٨/ ١٠/ ١٩٩٣م، سميت إذاعة القرآن الكريم من المملكة العربية السعودية بالرياض، وفُتحت فرع لها في مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وجدة.

وتقوم هذه الإذاعة بإذاعة آيات مجوَّدة ومرتلة، وتقديم أحاديث وبرامج مستمدة من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

ويستمر بثها يومياً إلى عشرين ساعة: ٧٥٪ لتلاوات قرآنية، والباقي لعلوم القرآن والسنة النبوية، ويغطي بثها العالم العربي، وشرق آسيا وجنوبها ووسطها، وشمال ووسط إفريقيا.

٣-ومن مظاهر العناية بالقرآن الكريم إنشاء (٦٠) جمعية خيرية لتحفيظ القرآن الكريم، منتشرة في أنحاء المملكة، تشرف عليها وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، تتلخص أهدافها في:

١-تعليم القرآن الكريم لأبناء المسلمين تلاوة وتجويداً وتفسيراً.

٢-تحفيظ القرآن الكريم للناشئة.

٣-إعداد المدرسين الأكفاء لتعليم القرآن الكريم وتحفيظه.

٤-تهيئة قراء وحفظة لإمامة المصلين في الصلاة.

٥-تهذيب أخلاق الناشئة بما يتعلمونه من كتاب ربهم.

٦-إحياء جانب مهم من جوانب رسالة المسجد.

٤-ومن مظاهر العناية بالقرآن الكريم تنظيم المسابقات في تلاوة وحفظ وتفسير القرآن الكريم، ليس على مستوى المملكة وحدها بل وعلى مستوى

العالم.

٥-ومن مظاهر العناية بالقرآن الكريم طباعته بطريقة برايل، إذ تتراوح نسبة عدد المكفوفين في العالم ما بين ١-٣٪، منهم خمسة وعشرون مليوناً تقريباً من المسلمين، وفي المملكة العربية السعودية – حسب المسح الذي قامت به وزارة المعارف عام ١٤٠١هـ - عشرون ألف كفيف.

وأصبحت هذه الفئة من العالم الإسلامي هدفاً للمنصرين، وأصحاب الأهواء المنحرفة، فوجهت لهم برامجها، ودربتهم على مهارات ومهن متنوعة، وحرصت على تخريجهم معاول هدم ضد الإسلام والمسلمين، مستغلة ما يتمتع به بعضهم من ذكاء وفطنة.

والاهتمام والعناية بهذه الفئة في البلاد والمنظمات والهيئات غير الإسلامية، يقابله فتور وغياب في البلاد والهيئات الإسلامية.

٦-ومن مظاهر العناية بالقرآن الكريم ترجمة معانيه إلى اللغات المختلفة.

٧-مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف:

وتتجلى أروع مظاهر العناية بالقرآن الكريم التي قامت بها المملكة العربية السعودية، في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في المدينة المنورة.

فعندما كثرت الطبعات التجارية وغيرها للمصحف الشريف، والتي لم تحظ بالعناية الكافية من التدقيق والضبط، وحسن الطباعة والإخراج، وفق الله ولاة الأمر في هذه البلاد بإنشاء مجمع لطباعة المصحف الشريف، وزوّد بأرقى التجهيزات الطباعية الحديثة، وأمهر الفنيين المختصين في مجال الطباعة.

ووقع الاختيار على مدينة المصطفى ﷺ، لتكون مقرّاً لهذه المنشأة العظيمة، لمكانتها في نفوس المسلمين، ولأنها عاصمة الإسلام الأولى التي تنزل فيها الوحي على خير الخلق محمد ﷺ، وشع منها نور القرآن فأضاء أنحاء المعمورة.

واتفق على تسمية المصحف الذي يتم طبعه في هذا المجمع بمصحف المدينة النبوية، تيمناً بهذه البقعة المباركة.

ففي السادس عشر من شهر محرم عام ١٤٠٣هـ، تفضل خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز بوضع حجر الأساس لهذا المشروع العملاق، وقال عند وضع حجر الأساس: (بسم الله الرحمن الرحيم، وعلى بركة الله العلي القدير، إننا نرجو أن يكون هذا المشروع خيراً وبركة لخدمة القرآن الكريم أولاً، والإسلام والمسلمين ثانياً، راجياً من الله العلي القدير العون والتوفيق في أمورنا الدينية والدنيوية، وأن يوفق هذا المشروع الكبير لخدمة ما أنشئ من أجله، وهو القرآن الكريم، لينتفع به المسلمون، وليتدبروا معانيه).

وفي السادس من شهر صفر عام ١٤٠٥هـ، الموافق ٣٠ أكتوبر ١٩٨٤م كان حدثاً عظيماً أثلج صدور المسلمين، عندما أزاح خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز الستار إيذاناً بتشغيل المجمع، بعد أن اكتمل بناؤه وتجهيزاته الفنية، والبشرية، وسطر في سجل المجمع الكلمات التالية: (لقد كنت قبل سنتين في هذا المكان لوضع حجر الأساس لهذا المشروع العظيم، وفي هذه المدينة التي كانت أعظم مدينة فرح أهلها بقدوم رسول الله ﷺ، وكانوا خير عون له في شدائد الأمور، وانطلقت منها الدعوة، دعوة الخير والبركة للعالم أجمع. وفي هذا اليوم أجد أن ما كان حلماً يتحقق على أفضل مستوى، ولذلك يجب على كل مواطن في المملكة العربية السعودية أن يشكر الله على هذه النعمة الكبرى، وأرجو أن يوفقني الله أن أقوم بخدمة ديني ثم وطني، وجميع المسلمين، وأرجو من الله التوفيق).

يقع المجمع في الشمال الغربي من المدينة المنورة على طريق تبوك، على مساحة تقدر بمائتين وخمسين ألف متر مربع، وهو عبارة عن وحدة عمرانية

متكاملة في مرافقها المختلفة، حيث يضم مسجداً، ومبنى للإدارة، وساحة كبيرة للطباعة ومستودعات للمواد الأولية، ومستودعات للإنتاج التام، ومجموعة من الوحدات السكنية للموظفين غير المتزوجين، ومجموعة من الفلل السكنية لكبار الموظفين، ومركزاً للتسوق، ومطاعم، وملاعب رياضية، مكاتب بريد ومستوصفاً وغير ذلك

أما أهم أهدافه فهي:

١-طباعة المصحف الشريف بالروايات المشهورة في العالم الإسلامي.

٢-ترجمة وطباعة معاني وتفسير القرآن الكريم إلى أهم وأوسع اللغات انتشاراً.

٣-تسجيل تلاوة القرآن الكريم بأصوات مشاهير القراء.

٤-إجراء البحوث والدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم، والسنة والسيرة النبوية المطهرة.

٥-نشر إصدارات المجمع على الشبكات العالمية.

٦-تلبية حاجة المسلمين في الداخل والخارج من إصداراته المختلفة.

طُبع المصحف الشريف في المجمع برواية حفص عن عاصم، وهي الرواية التي يُقرأ بها في معظم بلاد العالم الإسلامي، وكتب هذا المصحف على قواعد الرسم العثماني، وضُبط على ما قرره علماء الضبط مع الأخذ بعلامات الخليل بن أحمد وأتباعه من المشارقة، وعدد آياته ٦٢٣٦ آية وفقاً للعدد الكوفي، ومجموع صفحاته ٦٠٤ صفحة تنتهي كل صفحة بآية، وطبع بأحجام مختلفة هي: الجيب، والثمن، والربع، والعادي ٧٥جم، والعادي ٤٥جم، والممتاز، والجوامعي العادي ٧٥جم، والجوامعي العادي ٤٥جم، والجوامعي الخاص، والجوامعي الفاخر، والملكي الفاخر، إضافة إلى طبعة مجزأ: جزء عم، وجزء تبارك، وجزء قد سمع، والعشر الأخير، وربع يس، ومصحف بكامله مجزأ على ستة أقسام.

كما طُبع برواية ورش عن نافع المدني، وهي الرواية التي يُقرأ بها في معظم دول المغرب العربي (المغرب، والجزائر، وتونس، وموريتانيا) إضافة إلى السنغال، وتشاد، ونيجيريا، وكتب هذا المصحف بالخط المشرقي على حسب قواعد الرسم العثماني، وضُبط بالضبط المغربي، وعدد آياته ٦٢١٤ آية وفقاً لعدد المدني الأخير، ومجموع صفحاته ٥٥٩ صفحة. وطبع بالحجم العادي ٧٥جم، والجوامعي الخاص.

كما طبع برواية الدوري عن أبي عمرو البصري، وكتب بالخط المشرقي على حسب قواعد الرسم العثماني، وضبط على ما قرره علماء الضبط مع الأخذ بعلامات الخليل بن أحمد وأتباعه من المشارقة، ما عدا بعضاً يسيراً، فقد روعي في ضبطه مذهب أكثر المغاربة، وما جرى العمل به في السودان. وعدد آياته ٦٢١٤ آية وفقاً للعدد المدني الأول، ومجموع صفحاته ٥٢١ صفحة، ولا تنتهي صفحاته بآية، وطبع بالحجم العادي ٧٥ جم.

كما طبع مصحف نسخ وتعليق برواية حفص عن عاصم، على حسب قواعد الرسم والضبط المتعارف عليها في باكستان وما جاورها، وعدد آياته ٦٢٣٦ آية وفقاً للعدد الكوفي، وعدد صفحاته ٦١١ صفحة، وطبع بالحجم العادي ٧٥جم.

جزى الله تعالى خيراً كل من ساهم في خدمة كتاب الله تعالى، وبخاصة ملوك هذه البلاد، ومن أولوه القيام بشؤون الدولة من أمراء ووزراء وغيرهم، هذا والله أعلم، والصلاة والسلام على نبينا ورسولنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المراجع

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- الأدب الجاهلي لطه حسين.
- أسباب النزول للواحدي.
- إعجاز القرآن والبلاغة العربية للرافعي.
- أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية لعبد العال سالم.
- البرهان في علوم القرآن للزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- البيان في مباحث من علوم القرآن لعبدالوهاب غزلان.
- بحث مقدم لندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن الكريم وعلومه، بعنوان، عناية المملكة العربية السعودية بطباعة المصحف الشريف بقلم الأستاذ الدكتور محمد سالم العوفي، المحور الثاني، عام ١٤٢٤هـ، المدينة المنورة.
- التبيان في علوم القرآن لمحمد علي الصابوني.
- التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان لطاهر الجزائري الدمشقي.
- تذكرة الحفاظ للذهبي.
- تفسير آيات الأحكام لمحمد علي السايس.
- تفسير البحر المحيط لأبي حيان.
- التفسير الكبير للفخر الرازي.
- تفسير ابن كثير.
- تفسير المنار لمحمد رشيد رضا.
- التفسير والمفسرون للذهبي.

- تقريب التهذيب لابن حجر العسقلاني.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبدالرحمن السعدي.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.
- الجواهر في تفسير القرآن لطنطاوي جوهري.
- حاشية زاده على تفسير البيضاوي للشيخ زاده.
- حجة القراءات لأبي زرعة.
- أبو حنيفة لمحمد أبو زهرة.
- الخصائص لابن جني.
- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاي.
- دروس في سنن الكائنات لمحمد توفيق صدقي.
- دلائل النبوة للبيهقي.
- الرسالة للشافعي، تحقيق: أحمد شاكر.
- روح المعاني للألوسي.
- سنن ابن ماجة.
- سنن الترمذي.
- شرح المعلقات السبع للزوزني.
- الصاحبي لابن فارس.
- صحيح البخاري.
- صحيح مسلم.
- صحيح مسلم.
- الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، تحقيق: محمود شاكر.
- علوم القرآن لعدنان زرزور.

- غاية النهاية في طبقات القراء لابن الأثير.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.
- الفتوحات الإلهية للجمل.
- فضائل القرآن للنسائي.
- فقه اللغة للثعالبي.
- الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن لابن قيم الجوزية.
- القاموس المحيط للفيروز آبادي.
- القرآن والحديث لمحمد الزفزاف.
- القرآن ينبوع العلم لعلي فكري.
- القول المسدد في الذب عن المسند لابن حجر العسقلاني.
- مباحث في إعجاز القرآن لمصطفى مسلم.
- مباحث في علوم القرآن للقصبي محمود زلط.
- مباحث في علوم القرآن لمناع القطان.
- متشابه القرآن للقاضي عبدالجبار.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي.
- محاسن التأويل للقاسمي.
- محمد رسول الله لمحمد الصادق عرجون.
- المحكم والمتشابه لإبراهيم خليفة (رسالة دكتوراه).
- المدخل لدراسة القرآن الكريم لمحمد أبو شهبة.
- مدخل إلى القرآن الكريم لمحمد عبدالله دراز.
- مذاهب التفسير الإسلامي لجولد زيهر، نقله إلى العربية: عبدالحليم النجار.
- المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز لأبي شامة المقدسي.

- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي.
- المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري.
- مسند الإمام أحمد.
- مع العضد والسعد لابن الحاجب.
- المعرب للجواليقي.
- مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت.
- مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، تحقيق: عدنان زرزور.
- مناهج المفسرين لإبراهيم خليفة.
- مناهل العرفان لمحمد عبدالعظيم الزرقاني.
- المهذب للسيوطي.
- النبأ العظيم لمحمد عبدالله دراز.
- النسخ في القرآن لمصطفى زيد.
- النشر في القراءات العشر لابن الأثير.
- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم – دراسة وموازنة، لسليمان القرعاوي. ط الأولى، ١٤١٠هـ، مطابع الشاطئ الحديثة، الدمام.
- وقوع المعرب في القرآن لمحمد السيد.
- وكتب أخرى في بقية العلوم قد أثبتناها في الهوامش مع أرقام الأجزاء والصفحات.

فهرس المحتويات

الموضوع الصفحة

تقديم الكتاب ٣
تمهيد ٥
الفصل الأول: القرآن الكريم ٩
المبحث الأول: تعريف القرآن لغة وشرعاً ١٠
المبحث الثاني: أسماء القرآن ١٣
المبحث الثالث: لغة القرآن ١٩
المبحث الرابع: إعجاز القرآن ٣٢
وجوه فاسدة في إعجاز القرآن - (القول بالصرفة) ٤٧
المبحث الخامس: القصة في القرآن ٤٩
المبحث السادس: ترجمة القرآن ٥٢
الفصل الثاني: الوحي ٥٧
المبحث الأول: تعريف الوحي لغة وشرعاً ٥٨
المبحث الثاني: دليل الوحي ٦٣
المبحث الثالث: مراتب الوحي إلى النبي ﷺ ومظهر النبي مع تلك المراتب ٦٨
الفصل الثالث: نزول القرآن ٧١
تمهيد: نزول القرآن ٧٢
المبحث الأول: أول وآخر ما نزل من القرآن ٨٥
المبحث الثاني: المكي والمدني من القرآن ١٠٢

المبحث الثالث: نزول القرآن على سبعة أحرف ١١١
معنى الأحرف السبعة ١١٧
المبحث الرابع: القراءات القرآنية ١٣٣
المبحث الخامس: أساب النزول ١٥٣
الفصل الرابع: جمع القرآن الكريم ١٧١
تمهيد ١٧٢
المبحث الأول: الجمع في عهد النبي ﷺ ١٧٣
المبحث الثاني: الجمع في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ١٧٩
المبحث الثالث: الجمع في عهد عثمان رضي الله عنه ١٨٤
المبحث الرابع: ترتيب الآيات والسور القرآنية ١٨٩
المبحث الخامس: رسم المصحف ١٩٣
الفصل الخامس: أساليب البيان ١٩٩
تمهيد ٢٠٠
المبحث الأول: العام والخاص ٢٠٠
المبحث الثاني: المُطْلَقُ والمُقَيَّد ٢٠٥
المبحث الثالث: النسخ في القرآن الكريم ٢٠٨
الفصل السادس: مباحث في علوم القرآن والأصول ٢٢٩
المبحث الأول: المُحْكَمُ والمُتشابه ٢٣٠
المبحث الثاني: المنطوق والمفهوم ٢٤٣
المبحث الثالث: المجمل، والمبيَّن ٢٤٩

المبحث الرابع: أسلوب القرآن ٢٥٤
المبحث الخامس: الوجوه والنظائر ٢٥٧
المبحث السادس: أمثال القرآن ٢٦٢
المبحث السابع: القسم في القرآن ٢٦٥
المبحث الثامن: الجدل في القرآن الكريم ٢٦٩
الخاتمـــة: جهود المملكة العربية السعودية في خدمة كتاب الله ٢٧٣
فهرس المراجع ٢٨٠
فهرس الموضوعات ٢٨٤